الشيخ خليل عبد الكريم الأزهري

صاحب كتاب (إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب)

وجدلية كتابة التاريخ

تأليف

أ.د. أحمد ناجي الغريري

- **الكتـاب:** الشيخ خليل عبد الكريم الأزهري صاحب كتاب (إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب) وجدلية كتابة التاريخ .
- **المؤلف:** الأستاذ الدكتور أحمد ناجي الغريري
- **الطبعة:** الأولى ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م
- **المطبعة:** مطبعة الميزان– النجف الأشرف

التصميم والإخراج الفني

مكتب محمد الخزرجي ٠٧٨٠٠١٨٠٤٥٠

العراق – النجف الأشرف

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (   ) لسنة ٢٠١٩م

فهرست المحتويات

تصدير

الكتاب بعنوانه والكاتب بكلماته . :

لمن يكتب التاريخ ... [١]

إلى الذين يؤرقهم الشوق إلى قراءة التاريخ العربي الإسلامي وهو مكتوب كتابة موضوعية بعيدة عن الحواجب التي تحجب العقل مثل العواطف الفجة والأساطير والماورائيات.. إلخ. وإلى : الأكاديميين الذين ينادون بضرورة إعادة كتابة التاريخ العربي الإسلامي ولكنهم لا يفعلون إما حرصا على مكاسبهم – التي هي في آخر المطاف عرض من الدنيا قليل– وإما تحرزا من المتاعب التي سوف تلاحقهم لو أقدموا على ذلك.

وأخيرا إلى: القلة الشجاعة القابعة فى مصر وعدن ودمشق وبيروت والمغرب والجزائر وتونس التي بدأت تمشي في هذا الطريق الوعر الخطر غير عابئة بما فيه من أشواك بل ألغام، والتي تصر على حمل مشاعل "التنوير" مهما كلفها ذلك من ثمن ، والتي تؤمن بأن الفجر حتما سوف يطلع مهما طال أمد الظلام ومهما تمترس خلف ترسانات الثروات الأسطورية وسلطات الطواغيت الحاكمة التي تدرك

١ اعتمدنا استخدام كلمة الازهري كناية عن الشيخ خليل عبد الكريم ، بوصفه قد تتلمذ في جامعة الازهر الشريف ، فأصبح ملتزما بأدبيات وكتابات وتوجهات هذه المؤسسة فخالف أفكارها حينا ، واتفق حينا آخر .

أن بقاءها على عروشها رهن باستمرار الظلاميات الدالات على رغبة التحري وقول الحقيقة ، من هذا المعنى وما يكمن خلف السطور ، نبدأ حديثنا عن واحد من علماء الأزهر الشيخ خليل عبد الكريم وجدلية كتابة التاريخ لديه .

مقدمة

الحيادية والتجرد صفتان جميلتان تكملان الصفة القيادية للشخص المتصدي في أي مجال من مجالات الحياة ، بل وتضيف لمعانا لبريق كلامه وتأثيرا في وقع لسانه . وهذا الأمر يزيد صاحبه قوة ورصانة في مجال البحث في التاريخ وكتابته ، وبالتالي فالضرورة العلمية تقتضي أن يتصف المرء بهاتين الصفتين لينتج لنا تأريخا غير محرف ، ولا ملغما ، بل أن هاتين الصفتين ملزمتان لمن يبتغي أن ينجو بنفسه عن نبذ الآخرين ، وينحو بها بعيدا عنهم ، وان ينتهي بأعماله الى صنف المنصفين ، لان ما يكتبه وهو من الذين إليهم بالبنان يشار ، محسوبة عليه كلماته ، مردودة لجنبه هفواته ، مسموعة كل جزئية يتلوها او مقروءة يسوقها . وعلى الباحث في التاريخ ، أن يدرك انه يتعامل مع جوقة من أقدم الحكماء وأنبه القضاة وأكثر المحامين حماسة في الغوص بأعماق الحقائق المساقة صوب مدفن الحقائق ، علّه عليه يردُّ ولطرحه ينهي او غير ذلك ، يسايره ويشيد بأفكاره ، ويلتزم بحسه ، ويؤسس لمساره ، ويرنو لشجون صوته وصدق مشاعره وتجاوزه لمعمعات المتملقين من حوله . فيقول فيه إشادة وتكريم ، لأنه عن الحقيقة لم يحيد ومن سوط الجلاد لم يرتد وله جفن لم يغمض . يعطيك لوحة كناية عن مرحلة من مراحل التاريخ حابثت مخاض ارض ولدت اشرف الأنبياء وأحبهم الى الله تعالى . ولأن هذا المولود ، على يده حصل ما حصل للمعمورة ، فغير ما غير ، وناهز ظلم وعزز الفضيلة في مجتمع كان أقل ما يمكن القول فيه أنه " عهد جاهلي "[١]

---

١ يقينا ان من يريد أن يبخس العرب أشيائهم في تاريخهم ، له ما يقول ولكن ما يجب ان يقال أن العرب لم يكن عهدهم قبل الإسلام عهد جهل وانحطاط ، وإزاء ذلك يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله : " محمد (ص) بعثه الله في زمن الفصحاء والبلغاء ونحارير الشعراء، وقد تحداهم الله تعالى بقله : فأتاهم بكتاب من الله، عز وجل، لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من

افتقر الى من يأخذ بيده صوب الفلاح ، بعد أن ابتعدت سفينة النجاة عن ساحل البحر وأمانة الدهر فأعادها الى حيث ما يجب واوجب عليها ما وجب وما يجب. هذه الكلمات الصادرات جزافا من دون تردد أو بحث في المعاني والعلل ، قد سقتها ما أن انتهيت من قراءة كتب الشيخ خليل عبد الكريم وبالأخص منها كتاب " إلا أمير المؤمنين ..." أفاض الله جل وعلى ، على صاحبه علما وارفا وفكرا ثاقبا ونباهة واضحة وشجاعة مبينة ، كتابُ كاتبٍ كم تمنيت ان أحظى بقسط ولو ضئيل من علمه وبسيط من صبره وبصيص من حياديته ، وكم تلعثمت كلما استغرقت في قراءة كلماته اللواتي لم تخرج من فاهٍ فاغرٍ ، إنما وجدت الهمّ والغم والتبصر والتحليل والتخيل والتسجيل والتبجيل او النقد والتمحيص والبحث في كل ما اشتركت في بنائه تلك الكلمات لتخرج فقراته وعباراته ناصعة البياض لا تشوبها شائبة ولا ينقصها دلالة ولا يعوزها دليل ، كتب سُطرّتْ عباراتها باتزان واستقامة وزن ومعنى واضح لا يحيد عن هذا ولا ذاك . شعرت بالخجل من نفسي لأني في كثير من الأحيان اشعر أني اكتب بعد شعوري بالانتماء الى مذهبي او رهطي او من انتمي إليه ضمآنا لأرتوي من حيث ارفع عن تاريخنا ما كان واقع وأراوغ كي أضع عبارات لثلمات تبدت أمام ناظري وقد علمت بها ، بيد أني لم أكن حياديا كي أنوه بها ، كما وجدت في عبارات كتاب " إلا أمير المؤمنين " الذي أسرى بي وطاف وتعدى الحدود ، ما ناقض بعباراته ، عبارات عدة حقائق نُقشتْ في قلب التاريخ ومصادره ، فباتت داخل إطار مقدس لا يمكن أن تمس أو تمحى . وجدت فيه جرأة خوض الكلام وجدارة الأسلوب وقول الحقيقية كما يراها هو لا كما يهوى سماعها الآخر ممن فقد البصر قبل البصيرة . وجدت الكتاب مناقشا لأمور ووقائع في التاريخ ألإسلامي وكأنه قد أقسم إلا أن يكون موثّقها ، لا لشيء سوى أنه يرى فيها

مثله ، أو بسورة من مثله لم يستطيعوا أبداً ،وبذلك فأن هذا التحدي من لدن الله تعالى دلالة على علم الله المسبق بما عليه هذه الأمة بمساوئها او بخيرها .

حقيقة ناصعة البياض مغبون صاحبها ، فأشار أليها وانتقد مدونها ، وأسرف في الرد على كلمات وأقاويل ، لم يكن من علل ورودها سوى الفرقة والتجزؤ . وقد ساق ما ساقه عقله قبل قلبه ، الكثير من الروايات التاريخية وهي تتحدث عن مرحلة من أقسى مراحل التاريخ ألإسلامي على أهلها ، فأماط عن تلك الروايات اللثام ، وتبين انه أنتج ما أنتج من الكتب والمؤلفات ما يسترعي الانتباه ويستوجب الحيطة والحذر فما كتب بشخطة قلم ، لا يضاهيها كيان الإنسان بوجوده وعطائه ومتبنياته ، إلا بذات الميزان والمقياس والخطوط الحمراء . فقد وجدنا انه دخل في جدل وصراع في الفكر ووجدنا أننا في موقع يتوجب أن لا نتقبل أن نوكل مدافعا عن حقائق تاريخنا ، إلا بعد أن تكتمل أمام ناظرينا صورة بهية نقية لذلك المدافع وها نحن نقف أمام ما نبتغيه من صدق الكلام وسلامة النية وخلاصة العمل لله لا لغيره ، وكل ذلك وجدناه متجسدا في كتابات العلامة الأزهري بإشكاله العلمي والفقهي وفي مجمل ما كتبه ، كانت إجابات لتساؤلات لطالما راحت تحوم في تفكيره وعبر مخياله فأشغل لبابه ، وعرقلت جانبا من صفاء ذهنه حتى وقف عند إجابات عدها الأصح لما كان منشغلا بها من تساؤلات ، وجلها كان يتمحور حول:.

١. ما الضير لو زاوجنا بين ألإسلام الليبرالي وبين العدالة الاجتماعية عكس ما ينظر إليه من القادة المسيطرين في جماعة الإخوان المسلمين ؟

٢. وجدناه يتساءل عن الأسباب التي حالت دون توجيه الرسول الأعظم المسلمين ولا سيما الصحابة على الانتخابات ليدرؤوا عنهم الفتن والاضطرابات ؟ .

٣. يحار المرء في مبالغة البعض واقتطاع البعض الآخر وإضافة آخرين من كتّاب السيرة النبوية وسيرة الصحابة لأمور ما أنزل الله بها من سلطان !! .

وغير ذلك من التساؤلات التي تحاكي الواقع بيد أنها تصطدم بهالة القداسة التي فرضها ممن لا يفقهون معنى وضع اللبس على الحقائق وتزويقها . كل تلك

التساؤلات ، جعل الأزهري الشيخ خليل عبد الكريم منها مضمونا لكتبه المثيرة للجدل في رأينا والمفيدة في تقديرنا جزاه الله خيرا فيما قام وما فعل .

ولربما سيلمس البعض بعض المتغيرات المنهجية في كتابنا هذا ، وبالذات في مقدمة الكتاب وبما تتضمنه تلك المقدمة من مفاصل . ولأنني اعلم أن قراءة الكتاب تتفتح فيها قرائح القارئ وتقبله منذ إن وقع بصره على ماهية المقدمة ومضمونها ، فقد آثرت أن اضمنها فضلا عن المفاصل الأساسية للمقدمة ، مفصلا يضم ما أثيرت من تساؤلات وما احتملت تلك التساؤلات من ردود عليها ، الى جانب مفصل آخر تضمن أهم الاستنتاجات التي توصلنا اليها ، بحيث ألغينا من تسلسل الكتاب ما يعرف بالخاتمة ودمجناها ضمن محتوى المقدمة . ومن ذلك فأن من يقرأ المقدمة برمتها ستتبلور أمامه صورة اكثر نصعا ووضوحا مما لو كانت القراءة لهذا الكتاب ، تسير وفق تراتبية الأسلوب المنهجي الدارج ، فإذا شعر القارئ بلهفة للقاء المضمون من خلال وقوفه في مقدمة الكتاب على ما سقناه من تفصيل المضمون ومن الإشكاليات التي وردت والجدل الذي تأسس على خلفية هذا التباين في الآراء بين ما قاله الشيخ من آراء وتفصيلات وروايات وبين ما حصل من ردود عليها . والى جانب ذلك ، فأن القارئ سيلتقي بأهم الاستنتاجات التي تبلورت في مخيال المؤلف وأوردها ، لتخلق حالة من السعي والجري بلهفة للوقوف على ظروف هذه الاستنتاجات والتحليلات.

• ليس دفاعا عن الشيخ خليل عبد الكريم الازهري ، بل وضع النقاط على الحروف :ـ

في اعتقادنا أن هناك جماعة من المؤرخين والمعنيين بكتابة التاريخ الإسلامي ولا سيما ممن عاش بمعية الشيخ الازهري وسار برفقته ، وحصل ما حصل من تباين في المستويات وجرأة الطرح ، الذي أوحى لهؤلاء ومن خلال موضوعات وقف عندها الشيخ الازهري بعقلانية ، وبتجرد ومن دون اللجوء لمصادر او مراجع او حتى الاستعانة بآراء الجماعة ، أدلى بدلوه وهو مقتنع بما يقوله بل وراح يدافع ويبعد عن طرحه كل شبهة أرادوا إلصاقها به . وربما من يقرأ للشيخ الأزهري كل مؤلفاته ويقف عند تلك الفقرات التي تبدو كشطحات المتصوفة وهو لم يقصد أن يكون كذلك ، من دون تحليل وتعمق وتبحر في معانيها ومبانيها ، يخال انه وصل بتطرقه لمثل تلك الموضوعات الى درجة الإلحاد أو يكاد . وعلى سبيل المثال ففي كتابه " الأسس الفكرية لليسار الإسلامي " وفي الصفحة (٢٧) يشير الى الجنة وخالقها بالقوى غير المنظورة أو القوى الجبارة " ولا اعرف ما الضير لو أطلقنا كلمة القوى الجبارة على الخالق ، أو ليس من أسمائه الحسنى (الجبار) فلماذا لا نأخذ تفسيره وإطلاقه لهذا اللقب كناية عن الخالق الجبار ؟ لماذا ننحدر به نحو الدرك الأسفل بحيث ننتقص من عقله ومن موهبة بحثه ومن تعمقه بالأشياء والوقوف على عقلانية حدوثها بدلا من البقاء أسير التفسيرات الإلهية او الغيبية ، لا لشئ سوى أننا أمام جدل مقدس لا يمكن حواره او السؤال عنه . لا بأس لنقوم بنقده ولربما بمحاولة تقويم بعض ما يقع به من أخطاء أو هنات ، فهو ليس بمعصوم عن ذلك ، ولكن أن نصل بتوصيفه بالملحد المتجبر ، فهي رسالة لا تبشر بالخير

ولا تقول غير الدخول بجدل غير موضوعي وغير منطقي بين كل الأطراف المعنية بهذه الإشكالية في تفسير التاريخ الإسلامي ، وبالتالي فأن مخرجات هذا الجدال وليس الجدل ، سينتهي الى فصام وخصام بين المتجادلين ، ومنه بدأ الإسلام بمرحلة الضعف والتأخر .

وبما أننا نعيش أجواء متفاوتة ومتقلبة الأهواء في مجتمعنا الإسلامي والعربي ، أجواء تخضع في الأغلب الأعم إلى إشكالية تقلبات وأمزجة الساسة والسياسيين او المجموعة القيادية لتلك البلاد ، وبالتالي فأن هذه الجزئية الخطيرة في مسيرة الدولة ، ستهيأ أمامنا مجالا واسعا من التردد والتمادي والحنث والقهر وكل ما من شأنه أن يسّخر السياسة من اجل عرض من الدنيا رخيص ، وبالتالي فأن من يريد أن يعلى شأنه ولا سيما بين المتناحرين والمتجادلين إزاء قضية هامة تتمحور حول أمر عقيدي أو مذهبي فأنه لا مناص سيدلي بدلويه في المياه الآسنة لعله يخرج منها ما يشوه ما لا يبتغي ولا يريد .

أما ما يلحظ البعض على الشيخ خليل عبد الكريم من تغيرات في المواقف إزاء الاستشراق والمستشرقين ، فمن المؤكد ان أي باحث أو معني بقضية تاريخية ما ، في بداية تطرقه لتلك القضية المعني بها ، ستكون له رؤية إزائها ، فيعطي تصورا معينا ، ومن الطبيعي أن هذا التصور وهذا التفسير من شأنه أن يتغير وفقا لما سيستجد من معطيات وما سيترتب من فهم أدق لتلك القضية بعد توفر براهين وثوابت جديدة . وكما قال الامام علي (ع) " لا خير في امرئ أمسه خير من يومه " ولا سيما اذا ما كانت الموضوعة المعنية بالبحث لا تزال قائمة الوجود ومؤثرة

المفعول ، كما هو الاستشراق . فلماذا إذن نستغرب مما حدث في فهم الشيخ الصغير لمفهوم الاستشراق ، وما حصل له من تحول في هذا المجال ، ولا سيما أن ما حصل من تغير في فهمه لظاهرة الاستشراق ، كان يسير في جادة الصواب والحقيقة . فما دام للاستشراق سلبياته وهناته وما تسبب في بث روح التفرقة المذهبية ، فأن في الجانب الآخر من الاستشراق أجواء ايجابية متعددة سواء على مستوى التثقيف أو التوجيه والإرشاد .

وفي سياق هجوم الكاتب على العلماء الذين يتصدون للغزو الفكرى ، ويحذرون من مضاره وأخطاره وسخريته منهم ، مع أنه هو نفسه قبل ذلك يهاجم المستشرقين مهاجمة عنيفة متهماً إياهم بسوء النية والتربص بالإسلام والعمل على هدمه . وقالوا أن الشيخ يعود ليطلق على الوحى السماوى " السلع الماورائية "[١] على ((سبيل السخرية والاستخفاف !)) .

وبداية لدينا تحفظ على توصيف للشيخ الأزهري بـ ((سبيل السخرية والاستخفاف)) فالشيخ ممتلئ وليس بالأجوف لكي يستهزأ بالآخرين . وهذا تأويل وتهويل ، أما ما بدر منه من توصيفات ، لا اعتقد أنها تصل الى حد السخرية والاستخفاف بالآخرين ، بقدر ما كان تعبير عن نقده اللاذع والصارم لمن ذهب لوصف الاستشراق بالأداة الاستعمارية وانه أداة للتفرقة العنصرية داخل المجتمعات العربية والإسلامية ، ومع ان الواقع لا يبرأ المستشرقين من هذا التوجه ، لكن هذا الامر لا ينسحب على الجميع ، بل العكس ، فهناك من المستشرقين يعود لهم

---

١ الشدو ، ص١٣٥ .

الفضل في كثير من المعارف الإسلامية وحفظها والكشف عنها ، وعلى سبيل المثال فأن مقدمة ابن خلدون لم تكن معروفة في الأوساط العلمية والفكرية العربية والإسلامية . ويعود الفضل في الكشف عنه منتصف القرن التاسع عشر الى العلماء الفرنسيين حين قدموه على طبق من ذهب إلى العرب ليدرسوا تراثهم . ومع اننا وقفنا كذلك على بعض الاراء للشيخ خليل عبد الكريم ، لم نتفق معه عليها إطلاقا ، وحاورناه وانتقدنا طرحه هذا ولكن الامر من الجدل معه والتحاور والاختلاف لم يصل بنا الى حد وصفه بالملحد ، متناسين ما له من محاسن في رصد وقائع التاريخ والدين الإسلامي والتطرق إليها .

وقالوا انه " يسخر من الاعتقاد بوجود إله يسيطر على مقاليد الكون وينبغي الانقياد لأمره للفوز بنعيم الجنة ، قائلاً إن تلك الثقافة الثيولوجية [يقصد " دينية " أو " لاهوتية " ، لكن غلبه التشدق بالألفاظ الأجنبية ، وهو عمدة جهازه الإجلابى الذى يستخدمه لإرهاب القارئ] .. تلك الثقافة الثيولوجية التى كانت تسود القرون الوسطى وتدور حول الغيبيات والعوالم اللامرئية والكائنات غير المنظورة وتسليم كافة المقاليد إليها وحتمية الانقياد لأوامرها الصارمة بغية الفوز بـ " الخلاص " و" الخلافة فى الأرض " على الأرض وبـ " ما لا عين رأت ولا خطر على قلب بشر " فى العالم الآخر ، هى ثقافة لا تصلح لعصرنا الحديث ، عصر التنوير الذى حلت محلها فيه سيادة العقل والذي لا يعترف بأية سلطة سواها[١] .

---

١ الشدو ، ص٢٨

وهنا أضع علامة تعجب أمام من طرح هذا الإشكال وألقى باللوم على الشيخ حين يترفع عن أن يصنف مع مؤرخي القرون الوسطى حين كان الاكليروس يسيطر على كل نشاطات الحياة بوصفه الرجل الأعلم في الكنيسة ، تلك المؤسسة الدينية التي كانت تقود الإمبراطورية الرومانية ، مناصفة مع القيصر بالاستناد الى ما عرف حينها بهبة قسطنطين[١] . وفي الواقع إن رجال الدين في العصور الوسطى كانوا قد عنوا كذلك بتفسير أحداث التاريخ ، على اعتبار أنهم الطبقة الواعية والمدركة لأهمية الدولة التي بالأساس تقودها المؤسسة الدينية وهي الكنيسة . ولان هؤلاء جهلة بحركة التاريخ وتفسير مساره ، فأنهم راحوا يفسرون كل أحداث التاريخ بإرجاعها الى العناية الإلهية ، وما أن حل عصر الأنوار وسيادة المبدأ الكارتيزي الذي يقول بغلبة العقل على التصورات الغيبية ، حتى الغي التاريخ الغيبي ، وهذا ما كان الشيخ الازهري ينادي به بل وينكر على رجال الدين (الاكليروس) أن يضعوا أنفسهم بمحل المؤرخين والمحللين لحركة التاريخ .

وقيل أيضا أنه لكثر ما يلجأ إلى التلميح واللمز ، لا الكلام المباشر المستقيم .وأكثر من ذلك ، راحوا يعززون ما ذهبوا إليه من أنه ملحد ، بقولهم : أن الإقبال

١ وثيقة مزورة باسم الإمبراطور قسطنطين الأكبر والتى يقال أنه بموجبها قد قدم مميزات وممتلكات لا يتصورها عقل للبابا وللكنيسة ، في مقابل الاعلان عن فتوى الكنيسة تقول بضرورة انقياد الناس لاوامر القيصر من دون اي جدل او حوار . وزيادة على ذلك ، يقوم قسطنطين بالتنازل إلى البابا سيلفسترالأول ، وكل من يخلفه ، عن الملكيات التالية : بموجب أن البابا يعد خليفة القديس بطرس فإن له الأولوية على البطرياركات الشرقية التالية : إنطاقيا ، والإسكندرية ، والقسطنطينية ، والقدس . وكذلك الأولوية على كافة أسقفيات العالم .

على الدين عنده ، ليس نتيجة الإيمان القلبى النابع من اقتناع العقل ، بل هو نتيجة للملل والسأم الناتجين من التخمة المادية واللذين يدفعان بصاحبهما إلى الغيبيات ، أو نتيجة للفقر والجوع اللذين يسوقان المبتلى بهما إلى التوجه لـ " كائنات علوية وقوى غير منظورة " ، يطلب منها العون وان يحظى بمنقذ !!!

وهنا نقول أن الإنسان كلما أزداد علما ، وتوغل في دراسة المبهمات والمعجزات وما يصعب فهمه ، فأن ذلك مدعاة لزيادة أيمانه وذوبانه في المطلق (الله) ، بحيث يكون خطابه أعلى من مستوى الإنسان العادي ، حتى ليخال إنه لا يبتغي في خطابه هذا سوى التوعية وكشف مستور الجولة !!. وفي واقع الحال أن الازهري ما أراد أن يمضي في رحلة كتاباته وأبحاثه ، من حيث مضوا ، بل أنه جاء وهو مقرر سلفا : أنه لن ولن يمضي الإ من اجل الغوص الى أغوار الأشياء والوقوف بصرامة على كيفية حدوثها ، وبالتالي سبر أغوار الحقيقة التي في كثير من الأحيان تهز العروش ويفر منها السلاطين ومن هو على دربهم سالك وآت .

أما تهجمه على ما يقال من الصحابة ، فأعتقد أن المشكل ليس فيما قال وانتقد ومال وابتسم ثم عاد واستهجن ولعن بعض الصحابة كما قيل وقال البعض ممن على ذلك يبدو انه انهضم ! . بداية لا بد ان نعين بالتحديد المريح ، أيٍّ من الصحابة هو انتقد وضعّف من قدره وسَخرْ ؟ ما ميزان عمل هذا الصحابي وكيف هي سيرته ، أو لم يكن صحابيا في الظاهر كالشجرة الباسقة ، فكان صحابيا تحسبه أبى اللعن شقيا تمرة من نخلة باسقة ، عصية على الجياع قطفها ، تبقى في ذاكرة هؤلاء الجياع ، ما دام قطف المتاع بات من المحال !!!

ويرى البعض أن هذه المواقف من لدن الشيخ الازهري ، تبرر له وحسب فهمه لها سخطه الشديد على الصحابة رضوان الله عليهم ، وانحيازه إلى أعداء الإسلام آنئذ ، الذين يقول عنهم إنهم " كانوا يدافعون عن وطنهم ومقدساتهم ، ضد الذين اقتحموها عليهم عنوة ، بمقولة إنهم يريدون أن يخرجوهم من عبادة العباد إلى عبادة الله ، مع أنهم لم يشتكوا إليهم من ذلك ، ولم يستعينوا بهم "[شدو الربابة:١٧٣/١ .

وهذا صحيح وكلام موجود وواقع كان معاش . ولكن ما المطلوب من الأدبيات الإسلامية ، أو هل عليها أن تنحو منحى الأدبيات الغربية في الدفاع عن قضيتهم حين كان الإسلام بدولته العريقة في بلاد الأندلس يحكم على وفق الدين والإرادة الإسلامية لبلاد الغرب المسيحيين ؟ هل يجب أن تكون تلك الأدبيات العربية بمثابة بوقا لما يثار ضدالشعوب العربية والإسلامية الأخرى بحجة أنها لم تنضم الى ركب من ينادي بالحق ونبذ كل ما هو واقع عتيد ؟!!

وعلى كل حال ، اعتقد أن الفهم الخاطئ لمغزى الدراما التاريخية التي خلقها الشيخ الازهري ، والتي أراد من ورائها بيان مدى مصداقية صاحبها المسلم حين يكتب ويقرر ويقاتل ، فهو أمام هذا الإصرار ، يعتقد جازما أن الشراكة الحقة في تسليط الضوء على خيارات المؤرخين ، وعدم جعل أنفسنا بمثابة حكام متصلطين ، فإنه وأمام هذه الصورة ، سيخلق من وراء ذلك كتب وأدبيات عربية أسلاموية تتناسق وذوات متبنيات صحيحة . والى جانب ذلك ، فقد راح البعض من المؤرخين الى نبش بعض المتراكم من وقائع التاريخ ، أملا في الوصول الى درجة من الفجاجة والسلبية في تصدي الشيخ الازهري لكتابة التاريخ . فهم امتدحوا الازهري في بادئ

الأمر من كتابه الجديد ، حين مدح الإسلام وشموليته لكل مناحي الحياة ثم : الدعوة إلى فهمه فهماً صحيحاً ثم : قصر الدين على العبادات فقط ثم : الهجوم على العبادات نفسها فماذا يبقى من الدين إذن ؟ ! . فى هذا السياق ، يشير القائل ويتهكم الشيخ خليل عبد الكريم بصلاة الاستسقاء وصلاة الكسوف والخسوف ، كما يسخر من نهى الرسول عن الصلاة عند طلوع الشمس ، مؤكداً أن هذا وأمثاله ليس إلا نتاج مجتمع بدوى قبلى متخلف ، ومن ثم لا يصلح لمجتمعنا الزراعى المتحضر (ص١٧٠) . وهو يفسر صلاة الكسوف والخسوف على أساس أن الرسول والصحابة كانوا ينظرون إلى هاتين الظاهرتين الجويتين بوصفهما " من علامات غضب الله ، وخاصة أن قوم عاد وثمود عاشوا فى جزيرة العرب ، وهلاكهم جاء على أيدي ظواهر جوية خوارق نتيجة انتقام السماء منهم " ، فهذه الصلاة إذن هى " من آثار المعتقدات القبلية " كما قال بأنها خرافة من الخرافات التى ورثها الإسلام وحافظ عليها . أما الزكاة ، فهو يضيق بها صدراً ، ويتجهم لها ، وينفر منها ، ويدعى أنه لو " أنشئت لها مؤسسة " لجمعها من مظانها وتوزيعها على مستحقيها " لتحولت نسبة كبيرة من المجتمع إلى متسولين وتنابلة وكسالى "[١] . وأما الحج ، فأن كاتبنا يلتفت بالشكوى إلى عنان السماء ، مولولاً على الأموال التى هدرها المسلمون المتخلفون عليه ، وهو عمل لا ينفع ولا يشفع ولا معنى له فى نظره ، ويحرمون البلاد وما فيها من سواد من نعم الله على الشعوب[٢] وبعد قليل ، يختم كلامه بما يتوقعه ، من إقبال " القاعدة الجماهيرية العريضة " على دعاة "

---

١ الشدو : ص١٨٨

٢ المصدر نفسه : ١١٦ .

التنوير " واستجابتهم لندائهم التنويرى " الكفيل وحده [أى دون حج أو صلاة أو زكاة] بانتشالها من الوهدة التى تردت فيها ، والتى جعلتها تبحث عن الخلاص فى الغيبيات والماورائيات[١] . وأما بالنسبة للصيام ، ففى [ص١٠، صحيفة الأهالى ، ١٩٩٦/٢/٧] ، كتب عبد الكريم مقالاً بعنوان " مجرد اجتهاد : الصيام فريضة المجتمع المعسكر " ، جاء فيه ما نصه : " عندما هاجر رسول الله إلى المدينة ، تغيرت الصورة جذرياً ، ولم يعد المسلمون مستضعفين يخافون أن يتخطفهم الناس ، بل شرعوا فى إنشاء دولة هى حصراً " دولة قريش " ، أخذت تطلق السرايا وتشن الغزوات ... من أجل هذا كان مجتمع يثرب بمثابة معسكر حرب ... والمجتمع المعسكر له موجباته الخاصة ... منها أن يتمرن أفراده المدنيون على تحمل آلام الجوع والعطش ، إذا ما أحاط بهم عدو ... ، فإن الصوم بحالته التى نراها اليوم كان جزءاً من خطة رسمها رسول الله ؛ لتأهيل مجتمع المدينة عامة ، وجنود الغزوات والسرايا والبعوث وفرق المهمات الخاصة ، لما قد يستقبلهم من أهوال وبلايا. وفى كتابه " مجتمع يثرب . العلاقة بين الرجل والمرأة فى العهدين المحمدى والخليفى " ، خليل عبد الكريم كل وسعه في محاولة تلطيخ سمعة الصحابة رجالاً ونساءً ، باتهامهم بالشبق الجنسي وبالزنا ، ثم يتوقح فيلمز الرسول عليه الصلاة والسلام بأنه كان يسهل أمره ، ويخترع الوحي من أجل ذلك .. فاعتبروا يا أولى الأبصار ! .

---

١ المصدر نفسه : ص١١٨ .

ونحن هنا من المؤكد لا نتفق وما ذهب إليه الأزهري من ذكره لهذه المعلومات والتي يقينا أنها معلومات موجهة ، تقضي بتشويه صورة الرسول وآل بيته . ويقينا إن الشيخ كان دوره في هذه الرواية التاريخية لا عقلا للخبر لا معلقا ولا محللا ولا ناقدا . بل نقله من مضانه الأصيلة ، وما كان عليه فعل ذلك ، إلا إذا ما أخضعها جميعا إلى التحقيق والتأكد من سلامة النص . وهذا ما لم يمرق على بال الشيخ الازهري . مع ان الموضوع حديث ، ألا إني أجد ان متغيرات عديدة ستشهد هذه الدنيا تتمحور حول فعاليات متعددة .يؤكد كاتبنا الهمام على أن المجتمعات البدائية لا تعرف الأنشطة الرياضية أو الفنية أو الأدبية ، ومن ثم فليس أمام أهلها من سبيل لشغل أوقات فراغهم وتصريف طاقاتهم سوى الجنس ، وأن المرأة فى تلك المجتمعات قد استطابت مع طول العهد سيادة الرجل عليها وامتطاءه لها ، فهي تتحرق تحرقاً فظيعاً إلى ممارسة الجنس غير مبالية بحلال أو حرام أو سر أو علن ، وبخاصة إذا أضفنا عامل الطقس الحار الذى يزيد شهوات الجسد اشتعالاً[١] .

وهنا نقول أن ما يدل على الهوس الجنسى عند أفراد ذلك المجتمع ، فى نظر الكاتب ، كثرة الألفاظ التى تدل على ممارسة الجنس ... ولأن محمداً (ص) كان يعرف طبيعة المجتمع العربي ويدرك أنه مجتمع ملتهب بالشهوة الجنسية ، فقد أخذ يشجع أفراده على الزواج المبكر ويسهل عليهم تكاليفه ، كما قرأ عليهم قرآناً يغلظ عقوبة الزنا ... وأصدر أحاديث تبشعه ، وبخاصة مع المغيبات ، أي النسوة اللاتي كان أزواجهن يغيبون فى الغزو أو التجسس أو الاشتراك فى التصفيات

---

١ الشدو : ص٨ .

الجسدية لبعض الأعداء . ولأن محمداً كان حريصاً على ألا ينصرف أزواجهن عن الغزو ، حتى لا تفسد خطته التى كان قد رسمها بإحكام لإقامة الدولة القرشية والسيطرة على شبه الجزيرة العربية وإخضاعها لزعامته ، فقد رأيناه يشدد فى هذه المسألة حتى يطمئن جنوده إلى سلامة بيوتهم وإناثهم أثناء غيابهم[١]

والذي يجب أن يعلمه القارئ الكريم ، أن دعوة الإسلام ، رغم كل مزاعم الإعجاز للنصوص التى أتت بها ، لم تستطع أن تصنع ما حال نهائيا دون استمرار تيار الجنس الذي كان قبل الإسلام فى مجتمع المدينة ، والمجتمع العربى بوجه عام ، لأن النصوص مهما قيل فى إعجازها لا تؤتى ثمرتها إلا إذا تغيرت عوامل الإنتاج وأساليبه[٢] . ومع ذلك ، فما أن حل الإسلام واستقرت الدولة الإسلامية ، فأن نظاما صارما شرع ونفذ يتعلق بحقوق المرأة واحترامها بوصفها في نظر الإسلام ، إنسانة لها حقوق وعليها واجبات .

وأخيرا ، أقول وأنا متيقن من أن براثن الإسرائيليات قد نفذت الى مؤلفات هذا الرجل محاولة لتشويه ما يحمله من فكر ومصداقية وعقلانية في تناوله لموضوعات التاريخ الإسلامي ، حين انتقد وبشدة الأسلوب الغيبي ، وهو يدعو الى عقلنة التاريخ ، ليؤسس لمسار صحيح ونهج قويم كما أراد الله له أن يكون ، وكما خطط الرسول ومن خلفه الصالحين لبناء مجتمع صحيح يسير بهدي الدين الإسلامي الفضيل ، وهذا بالتأكيد ما لا ترضاه الدوائر الصهيونية ، ولا يهين عليها أن يعيد

---

١ : لشدو ، ص١٧ .

٢ المصدر نفسه ، : ص٢١ .

الإسلام بناؤه الصحيح من جديد ليكون ندا لدولة إسرائيل المختارة من قبل الله . كما يدعون.

• نطاق تحليل الكتاب :ـ

لسنا معنيين بتقييم منهجية الكتاب ومقارنته بالكتب الأكاديمية او المنهجية الصرفة ، أو الوقوف عند أمور وتوجهات يؤمن بها فننبذها ! . ولكننا معنيين بفحوى الكتاب ؟ ما الغاية من تأليفه لهذا الكتاب ، فنجده يسير بموازاة الخط الدارج من كتابة تاريخ الدولة ألإسلامية ورموزها وليس بذات مسارها ، هو لا ينكر الدولة ألإسلامية بعنفوانها ، لا ينكر أفضالها على الإنسانية ، لا يبخس حق معطاء جليل لم يمجد أحدا ، ولم يشهر بسيفه على أحد . كان مسالما ترك لقلمه الانزياح في الكتابة لا توجهه رؤية أحد أو جماعة ، ولم يبتغي كشف المستور ، من اجل التشهير أو الاشتهار ، ولم يلتفت لظاهرة لمجرد ان يعيشها أو يحيا في بنيويتها بقدر ما أراد الوقوف على عليّة وإشكالية تلك البنيوية . وأمام كل ذلك ، فمن يقرأ كتابه (الشدو) بأجزائه الثلاثة ، للوهلة الأولى سيُصدم !! وسيفُاجأ بأمور لم يتصور انه في يوم من الأيام سيلتقي بمفرداتها . وهو ما سيخلق لربما في نفس البعض امتعاضا أو لربما سيؤدي الى الانعتاق من ربقة بعض ما درجنا عليه من القداسة ومن الخطوط الحمراء التي بقيت تلازم الفكر العربي ألإسلامي كظله ،

حتى بات البعض من الصحابة محط استهزاء بصورة غير مباشرة حين يسوق لنا الشيخ الأزهري روايات من المؤسف ان لا يترفع عنها من هو بمستوى الصحابي[١] . وألححت كثيرا في قراءة مفردات الكتاب بأجزائه الثلاثة ، واعدت قراءة العديد من الموضوعات التي لم أصادفها في بقية المصادر بالشكل الذي صاغها الأزهري . وأيقنت انه لا يبتغي في تصديه لكتابة سير وأفعال الصحابة ، إلا من اجل ((تسييد حاكمية العقل المطلق في الصبح والمساء والأمور كافة ، والشدو بأجزائه الثلاثة مبادءة أو مبادرة للسير الصحيح في الطريق الفكري الصحيح .))[٢] .

١ يجب التنويه ان هذا الكاتب في كتابه الشدو وغيرها من المؤلفات ، لم يكن الاول من المؤرخين والمعنيين بالتاريخ الإسلامي ، وقد انتهج هذا النهج المغاير عن أقرانه المؤرخين في التصدي لتاريخية الدولة الإسلامية ، وبالذات لشخوصها ممن يعدون رموزا وخط أحمر لا يمكن تجاوزه ، بل وقفنا عند كاتب وكتاب يقول أشياء وأمور تتعلق بسيرة الرسول والأصحاب ، مخالفا جملة وتفصيلا غيره من المؤرخين والمعنيين بالتاريخ الإسلامي ، وهو الشاعر العراقي الكبير معروف عبد الغني الرصافي في كتابه المثير للجدل والمعنون بـ " الشخصية المحمدية ، أو حل اللغز المقدس " وقد رددنا على هذا الكتاب ، بكتاب انتهجنا فيه النهج العلمي والفقهي معولين على ما أسعفنا من التاريخ للردود عليه ردودا ، أعتقد أن أكثريتها موضوعية لم تمسس شخص الشاعر بقدر ما أثارت في سريرتنا التقلبات التي حصلت في بنيوية الشاعر الرصافي ، عندما تحول من رجل دين متزمت الى رجل علماني منفلت الى ابعد الحدود ، وقد جسد ما اختمر في جعبة أفكاره عن الإسلام والمسلمين وعن سيرة الرسول بالذات وما روي عنه ، جسد كل ذلك وأبداه في كتابه الشخصية المحمدية . ومن ذلك فأن هذا النهج من الدراسات النقدية الجريئة لم يكن الشيخ الأزهري صاحب الكتب الكثيرة والمثيرة للجدل ، لم يكن سوى استمرارية لما انتهجه من قبله الشاعر الرصافي .

٢ الشدو /٣ ، ص٣٨١ .

ومع اننا في جدل ولربما يصل الى حد الإشكال على الشيخ الأزهري في بعض أطاريحه والموضوعات التي تصدى ليس لها بقدر التصدي للمسار الخاطئ الذي بات غير منتظم ولا يخضع لأي رقابة فكرية أو علمية ،فإننا يقينا نجد مخرجات هذا العمل او غيره مثيرة للجدل والنقاش . ولا نريد ان نكون كمن وصفهم الأزهري بالأفاضل في إخراج وإصدار هذا الكتاب ، بقدر ما نبتغي القول ان هناك مؤاخذات عدة على الكاتب . والواقع كم من الروايات التاريخية ،هي بأمس الحاجة لإعادة قراءتها وتصويب أخطائها . وأخيرا لا بد من مناقشة بعض ما ورد في بطون مؤلفاته ومنها هذا الشدو وغيره من الدراسات التي أتمها ، وهي بالتالي رواية بحاجة الى إعادة النظر فيها أو تصويب قراءتها ، وحين ذاك سنجد أنها تحمل معلومات لطالما تمر من أمام ناظرينا فقرات وعبارات لم نستطع استساغتها أو حتى قبولها ، وهي عديدة ولكن الذي استوقفتني كثيرا ترديده لعبارة تحقيق أمل جدوده وبالأخص جده قصي في بناء دولة قريش . ولا اعلم هل ان الجد السابع للرسول كان مكلفا بالتمهيد لتلك الدولة ألإسلامية الكبرى ، ولماذا أنيط بمحمد قيامها ، وإذا كان لمحمد (ص) الفضل في تأسيس تلك الدولة وبإرادة ربانية ، فما دخل جده قصي بالشأن الغيبي ، وهذا ما نطمح ان نجد له تفسيرا في السطور الأخرى من كتبه في قابل الأيام ، بيد أنه لم يقم بذلك وفارق ما كتبه وتركها للسائلين والمتهمسين فيها لغطا . وعلى كل حال فأن هذا النوع من الاستنباط في ثنايا مؤلفاته قد لمسناه ايضا لدى الشاعر معروف عبد الغني الرصافي في كتابه الشخصية المحمدية حين أشار الى ان محمدا كان قد اطلع على تواريخ الأمم من جده السابع قصي ، ولكنه نسي ان في القرآن نظريات علمية تليت على صدر الرسول الأعظم لم ينوه بها الرصافي ، بل انه تغافل عنها وتجاوز المرور بها لأنها بحق فوق مستوى البشر ! فكيف لرجل ببساطة محمد ان يشرع وينظر علميا لمثل

تلك النظريات والرؤى ، كان قد مر عليها قرابة أربعة عشر قرنا ، ولم يضع العلماء والمفكرين بصماتهم عليها بعد .

والى ذلك ، وجدنا ان الأزهري يكرر قيام دولة قريش في مكة والمدينة ، لاغيا بذلك المجال الحيوي لتلك الدولة التي يتجاوز مداها اسم قبيلة قريش وحتى الجزيرة العربية برمتها . أما الأمر الذي بدأت أحار فيه ، فهو عبارة الصحابة التي لم تشأ ان تفارق نطق الأزهري بها ، حين أطلقها على كل من هب ودب ، المهم ان عاش إبان ذلك العصر فاكتسب صفة الصحابة ، بصرف النظر عن سلوكيته أو أخطاءه او تطاوله وهذا ما لم نستسيغه حقا ، فمفهوم الصحابي حسب ما عهدناه ووعينا معناه ، انه الشخص الموالي للرسول(ص) والملتزم بأخلاقياته وصفاته ، أما ان يطلق اسم صحابي على شارب الخمر والقاتل والزاني والمتردد وغير ذلك ، المهم انه من ذلك العصر الذي شهد حياة الرسول ، فهذا ما لم نتفق عليه ، وننتقده أيمَ انتقاد .

ـ قبس نور من حياة الشيخ :

لطالما تمنيت وأنا مليط في عطائي ، بل واستغرقت بعيدا في التمني ، حتى غدت الصورة النمطية في مخيالي ، أن أكون نسخة ولو بأدنى درجة من طبق الأصل من العلامة الشيخ خليل عبد الكريم الأزهري ، وأنا أعي ما البون الشاسع بيننا . ولكن ما من شخص جاء إلى الحياة وبمعيته هذا الخزين المعرفي الذي يفضله على القاعدين درجة ، بمعنى أن السعي والجد والاجتهاد أسباب كل ارتقاء . وهذا الرجل العلامة الأزهري الشيخ خليل عبد الكريم (١٩٣٠ – ٢٠٠٢) هو من ولادات أسوان في جنوب مصر، أنهى دراسته للفقه والشريعة الإسلامية في الأزهر مطلع الخمسينيات (١٩٥١)، كما درس القانون في جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة

حاليا) وتخرج فيها عام ١٩٥٦. انضم لجماعة الإخوان المسلمين مبكرا، وعمل محاميا في مكتب الأستاذ عبد القادر عودة، ولكنه ترك الجماعة وانضم في سنواته الأخيرة لحزب التجمع اليساري . وقد زاول مهنة المحاماة طوال حياته مستفيدا مما تعزز في ذاته من علوم الفقه ألإسلامي ، فكان متدينا عقلانيا لا متصابيا ولا تحديثيا . ومن باب شعوره بضرورة إثبات وجوده الإنساني من خلال تقديم عمل منتج ومفيد لأبناء جلدته من المسلمين ، فقد أنتج من دون أن يغادر تخصصه إلا لمما . فكانت كلماته المرصوفة بعد تأنٍ واستئذان ، تتمحور وتتجمع في كتب وجدت طريقها سالكا لدى البعض ومتعارضا لدى البعض الآخر ، فأنتج لنا العديد من الكتب والدراسات ، وخلق لنفسه الكثير من الشتم والعداوات لا لشيء سوى أنه عشق عليا أمير المؤمنين ، حين أفصح عن هذا المسار وعن حبه الى قول الحقيقة ، مؤكدا أن ما من أمة تسعى الى عرقلة الفكر العربي ألإسلامي وتعمل على وضع العراقيل في سبيله ، أنى كانت تلك العراقيل ، فأن تلك الدولة لا شك أنها واهمة متخيلة والسراب لها أقرب ، كأنه الطريق المضيء الذي سيوصلها إلى حيث تبتغي وتريد .

ولد الشيخ خليل عبد الكريم في مدينة أسوان . كما نوهنا بذلك . في ١٤ نيسان /أبريل من العام ١٩٣٠ . فكانت سني حياته التي امتدت حتى عام ٢٠٠٢ من أسوان الى القاهرة ، حافلة بالعطاء الفكري المنتج والذي هيأ لأسس منهجية وعلمية صارمة قلما اعتمدها غيره من شيوخ المنبر أو أئمة المساجد ولا حتى كبار الفقهاء إلا لمما !!. ، وكان قد درس القانون في جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة حالياً) وتخرج فيها سنة ١٩٥١.عمل محامياً وأمضى أغلب حياته في القاهرة في حي

بولاق الدكرور. كان خليل محامياً مشهوداً له بالكفاءة، كان قد قام بالدفاع عن زميله نصر حامد أبو زيد[١] .

كان فى الجزء الثاني من حياته أحد أعضاء حزب التجمع(الوطني التقدمي الوحدوي) وكان يمثل التيار ألإسلامي المستنير فيه. ولو انه كان لفترة طويلة من بداية حياته من الأخوان المسلمين ، بل وبات يعرف على أنه بات على ذمة الأخوان مرتين، الأولى في السجن الحربي سنة ١٩٥٤ والثانية فى سجن مزرعة طرة سنة ١٩٦٥ .

ونتيجة قراءاته الواسعة والمعمقة لأدبيات الدين ألإسلامي وفقهه وشريعته ، مدركا موضوعيتها ، فقد بات ما يشعر به ، تجسيد حي للروح الحقيقية التي باتت تتعرش في جذوره وتتعشق في لواعجه ، ووجدت أنه يمزج بين ألإسلام الليبرالي وبين العدالة الاجتماعية ، على العكس من القادة المسيطرين فى جماعة الإخوان

١نصر حامد أبو زيد (٢٠١٠ – ١٩٤٣) أكاديمي مصري، وباحث متخصص في الدراسات الإسلامية ومتخصص في فقه اللغة العربية والعلوم الإنسانية. أثارت كتابات الباحث المصري ضجة إعلامية في منتصف التسعينيات من القرن الماضي. لا سيما تلك التي ينادي بها في التحرر من سطوة القرآن وثقافته والبدأ برحلة أرقى ، وبسبب ذلك فقد اتُهم بالارتداد والإلحاد. وكان الشيخ خليل عبد الكريم من اشد المدافعين عنه . ونظراً لعدم توفر وسائل قانونية في مصر للمقاضاة بتهمة الارتداد عمل خصوم نصر حامد أبو زيد على الاستفادة من أوضاع محكمة الأحوال الشخصية، التي يطبق فيها فقه الإمام أبو حنيفة، والذي وجدوا فيه مبدأ يسمى "الحسبة" طالبوا على أساسه من المحكمة التفريق بين أبو زيد وزوجته. واستجابت المحكمة وحكمت بالتفريق بين نصر حامد أبو زيد وزوجته قسراً، على أساس "أنه لا يجوز للمرأة المسلمة الزواج من غير المسلم". فحياة الزوجين باتت بعد ذلك في خطر، وفي نهاية المطاف غادر نصر حامد أبو زيد وزوجته د .ابتهال يونس الأستاذة في الأدب الفرنسي، القاهرة نحو المنفى إلى هولندا، ليقيما هناك حيث عمل نصر حامد أبو زيد أستاذا للدراسات الإسلامية بجامعة لايدن.

ممن كان همه تطبيق الشريعه على حد تعبيره. "ولكنه خلال ذلك كان لديه عدة تساؤلات محورها : إذا كانت كل جزئية من سلوكيات الرسول (ص) هي بمثابة رسالة للمسلمين كي يتعلموا ويشذبوا حياتهم ؟ فلماذا لم يتطرق (ص) الى مسألة الانتخابات لتحوول دون كثرة الفتن والاضطرابات الداخلية نتيجة التنازع والتنافس على الحكم ، الأمر الذي أدى إلى تفشي الضعف ووصوله إلى بنيوية المجتمع ألإسلامي وبالتالي الابتعاد عن مسألة التداول السلمي للسلطة ؟ .

ولا نريد أن نتقاطع وما نوه به الشيخ الازهري وتسائل عن عدم أشارت الرسول (ص) الى الانتخابات والتأكيد عليها ؟ نقول ان القرآن الكريم يقول : بسم الله الرحمن الرحيم : (وما ينطق عن الهوى إن هو الا وحي يوحى) . بمعنى ان ما ينطق به الرسول الأعظم إنما مرده الى الله جل وعلا ، فالنبي مقيد بوحي معبوده ، لانه يعلم بالأشياء قبل حدوثها ! ولو كان الامر كذلك ، لانتفت الحاجة الى وجود الى الرسل والأنبياء!! لان الله هو دين الحق كله وهو بالتالي قادر على كل شيء ولو شاء الله لأنزل جنوده لمقاومة المشركين في موقعة أحد وما أصاب الرسول والصحابة من انتكاسة ! وعليه فهو حكم الله في عباده ! وهذا ما نراه متجسدا في واقعة الطف ومقدار الخسارة التي راح فيها ما يقرب من مئة مقاتل من ال البيت ؟ ومن ذلك نقول : إن لله في خلقه شؤون[١] ، الله هو الذي يقدّر صلاح الأشياء واعوجاجها ، ولأنه كذلك فلا اعتراض على حكمه ومسيرة عدالته . وخير دليل على حكمته ، هو أين التدخل الذي كان يمكن ان يغير من واقعة الطف وحال دون ذبح الأمويين لابنه ، وحينها لاستقرت الحال وذهب التآمر سواء من داخل النفس وخارجها .

ومن المؤكد أن هذا المطلب والتساؤل يُبطن الكثير من الإيماءات والرغبة في التقصي وأكثر من ذلك ، كشف الغموض الذي شاب تدوين التاريخ ألإسلامي ،

---

١ البقرة / ٢٦

فهو يعتقد بوجود إمكانية كافية تمكن الباحثين من البدء بتنقية حركة التاريخ ألإسلامي مما علق به من أدران الدنيا وتكالب الحكام على الاستحواذ عليها ، ومن المؤكد أنها مهمة شاقة جدا اذا ما حكمنا باستحالتها ، فمن غير الممكن تغيير مسار توريخ مضى عليه أكثر من ألف وأربعمائة سنة . وإذا سلمنا بإمكانية ذلك ، فهذا يستدعي تهيئة جماعات وجماعات من البحاثين والمؤرخيين والمعنيين بكتابة التاريخ ، ناهيك عن ضرورة إقناع أصحاب الملل والطوائف المختلفة بعدم الاعتراض على أي حذف او شطب او تعديل او نقد أوتقويم .
وا ذا كان الشيء بالشيء يذكر ، فمن الواجب التأكيد على أن الشيخ خليل ، أنتج مؤلفات يشار إليها بالبنان ، ولا سيما أنه في معظم مفاصل وجزئيات كتبه ، قد استشهد وأورد النصوص والمرويات التي هى محل تقديس خصومه، الى جانب الأشارة للمراجع التي تحظى برضاهم . ويبدو واضحا ان ما حصل من متغيرات في حركة التاريخ ، أوجدت نوعا من الترقب ومتابعة مفاتيح الغموض الذي كان قد لف تلك الحركة لمئات من السنين ، بحيث بات من المستحسن أن يسمع المرء الشيء الذي يناقض او على الأقل يشّذب من مسار أحداث تاريخية خارجة عن نطاق العقل والمنطق أحداث صنعها الحكام بمعزل عن الجماهير ، وها أنها تَطل هذه المرة على دورٍ لتلك الجماهير وهي تصنع تاريخ أمة ليس بمعزل عن قوادها بل بمساعدتهم وعونهم على أنفسهم ، ويبقى الدور الأكبر والأخطر في صناعة التاريخ هو للجماهير . وهذا التفسير أعتقد جازما يبرر عدم هيجان الجماهير ومطالبتهم بالاقتصاص من الأزهري لأنه غيّرَ . صحح . من حقائق التاريخ ، وفي أحيان أخر تلمسنا تفاوتا في عطائه ، وكل الظن في ذلك نعيده الى المتغيرات وليس للثوابت . وفي ذات السياق من الترقب والتأني في حث الخطى ، فأن هذا الأمر يكون الشيخ خليل قد أدركه ، بحيث وجد زادا له يقتات عليه في مواصلة الكتابة بذات السياق الذي ألمح أليه البعض وغمزه الآخر وبزه غيره وانتقده آخرون

، ولكن تلك الحركات بمجملها لم تربكه ، فواصل نهجه في الكتابة والمؤسس على أساس قول الحقيقة ولا شيء غيره . وها انه بعد ما انتهى من كتابه الجذور التاريخية للشريعة ألإسلامية ، وكتابه " فترة التكوين " وبعض الكتب الأخرى المثيرة للنقاش والجدل والجديرة بالتأمل كذلك . فهو يقول في إهداء كتابه (النص المؤسس ومجتمعه) كلمات يخفف من وطأة ردة الفعل المتوقعة لأنها زائلة ولن تعود مرة أخرى " : إلى أحبابي الذين التزموا الصمت المطبق عندما انفجرت براكين الغضب على (فترة التكوين)، أمنحهم فرصة أخرى ليكرروا الموقف ذاته لأن السكوت – حسب منهجهم الجديد – من ذهب، ولكنه ذهب مع الريح وهيهات أن يعود!.

ـ قراءة في بعض دراساته :

خلاصة ما نبتغي قوله أن خليل عبد الكريم الشيخ الأزهري وفي محاولته تلك التي أنتج العديد من الدراسات ، وبالأخص تأليفه لكتاب " إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب" والبعض الآخر منها ، كان يبتغي منها التأسيس لحالة من تنوير الفكر والخروج به من الإطار الظلامي الذي هيأت له دوائر الفكر الصهيوني بكل تفرعاتها . ومع ذلك ، فأن كتاباته تلك ، مع أنها بمثابة توصيف دقيق للكثير من مفاصل الحياة في المجتمع ألإسلامي ، من معاملات وعبادات ، فقد حملت في ثنايا أسطار ، وروايات ، ووشلة من أخبار وتفسيرات وردود واستعانات واستغاثات بكتب أخريات ، حملت تناقضات وأحيانا تجاوزات لثوابت وتحريك لمواقف وتمييع لمتغيرات التاريخ ، وهو مقتنع غير متردد في البوح بها ، بل ومناقشتها . فجاءت كتاباته محيرة للوهلة الأولى ، قلقة وفاتنة ، في وهلة أخرى !! تفرد بآراء ومتبنيات ، جديرة بالنقاش ومحبذة الردود ، حتى ليحار المرء الذي يتابع مسار الشيخ المعرفي يحار أمام ما وجده من مسار متأرجح بين الصح والتصحيح وبين الغث والسمين

وبين الخطأ والتخطئة والتوبيخ ، روايات وتفسيرات تأخذ المتتبع لها بنباهة إلى حيث ينتهي بنقد لاذع لغير الشيخ حين تناول ذات الموضوع ، منوها ما للشيخ من قدرة الإبداع بعد أن أسرف في بيان تعجبه وإعجابه بما تلطف به من تحليل وتوصيف واستنتاج ، متيقنا أن لا أحد يستطيع أن يشمر عن ساعديه لتدوينها سوى من امتلك الشجاعة والجرأة على قول الحقيقة ولا شيء آخر يبتغيه .

وما دمنا نستوح معظم ملامح المقدمة من بطن كتابه الجريء" إلا أمير المؤمنين ... علي بن أبي طالب " فهو على الأرجح ما حفز فينا تلك الكلمات ، حين وجدنا انه تصدى لموضوعات لم يجرأ من عنى بها أن يتطرق ويجادل في دلالاتها ، منتهيا الى حقائق تقول بالضد منها وبالعكس من معانيها ومن متبنياتها ومن انحياز كتابها . وعلى سبيل المثال لا الحصر ، ففي مطلع كتابه المشار إليه ، أورد سؤالا مفاده :

ما سر العداء نحو " الطالبيين " وكيف ينتهي الى تفنيد الحجج والمبررات التي اتخذها من كنَّ العداء لآل البيت . وفي موضوعة جريئة غيرها ، لطالما أثارت جدلا واسعا كان ولم يزل ، تناول فيه وقعة الجمل حين وصفها بالمؤامرة على الإمام علي بن أبي طالب (ع) ، معرجا على الموقف النبيل للإمام من السيدة عائشة والنسوة اللاتي برفقتها . وهناك موضوعات عدة وجدته يتصدى لها ، فتعلمت منه أن أفضل ما يمتلكه المرء ولا سيما الباحث في التاريخ ، هو الشجاعة في التعاطِ مع الحقائق التاريخية وتخليصها مما علق بها من شوائب وعوائق ومخلفات للجاهلية . وبخلاف ذلك ، فيجدر به الاعتزال لأنه يعطي للأجيال تاريخا مشوها وهذه هي الخيانة بعينها ، وما من أحد راجح العقل يتقبل أن يوصم بخائن في التاريخ أو من كتبه .

بل وازددت إيمانا بصحة منهجه حين قرأت في كتابه هذا شرحه وتحليله لعبارة " ماذا يعني تكليف الإمام علي بتأدية سورة براءة ، منوها بلا مواربة او تلميح غير

واضح لأولئك المنافقين أو ما أطلق عليهم بـ (مايسترو) كناية عما أسماهم بالطبالين والزمارين في مديح (أل أبي بكر) . ويشير من ثم الى ما قيل بمصحف عثمان مؤكدا انه المصحف الإمام ، مستندا في ذلك على روايات يقول ان :الأمويين لم يجدوا مَحمَدةٍ يضيفونها الى جانب عثمان سوى أنه جمع القرآن ودونه في مصحف وحد المسلمين عليه . ثم تولى جهاز دعاية الأسرة الأموية تضخيم هذا العمل ونشره على أوسع نطاق.

وتطرق في موضوعة أخرى لما أسماه بـ" استقراء لسيرة عمرو بن العاص " مختزلا تلك القراءة لسيرة هذا الرجل بقوله ((باع دينه بعرض من الدنيا وهي أكبر الخيانات في التاريخ ألإسلامي))[١] . ولعل موضوعات أخرى أكثر من تلك التي أشرنا أليها ، تستحق الوقوف أمامها لبيان ما افتقرت أليه المصادر التاريخية المعتمدة من روايات ، أعتقد جازما أنها ستغير من نظرة القارئ وتقييمه لتلك المصادر التي اكتفت بمجانبة الحقيقة بدلا عن الغوص في كبدها . وأخيرا أقول أن ما يخلد الإنسان ليس سوى كلمة حق تقال لتلزم الآخرين باحترامها ومن ثم اعتمادها كعبرة من التاريخ نستفيد .

١ـ كتابه : الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية:ـ

يسعى الشيخ في كتابه هذا (الجذور التاريخية للشريعة ألإسلامية) إلى تقصي وتتبع الجذور التاريخية للشريعة ألإسلامية في حياة العرب، والموضوع المطروح هذا إنما يمثل محاولة الكشف عن الموروث أو الميزان العربي الذي ورثه ألإسلام عن عرب الجزيرة وذلك بقصد فهم ألإسلام فهماً صحيحاً، وهي محاولة رائدة هدف

---

١ خليل عبد الكريم : إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، بيروت لبنان ـ دار الانتشار العربي ، ٢٠٠٦ .

المؤلف من ورائها أن تكون المفتاح المنهجي للفهم الصحيح للإسلام وبخاصة للموضوعات المثارة دوما في الساحة العربية والإسلامية .

وكتاب الأزهري المعنون بـ"الجذور التاريخية للشريعة ألإسلامية" ذا الحجم الوسط والمؤلف من (١٣٣) صفحة ،يعد أول ما كتبه الأزهري من كتبه العديدة ،ومن خلاله ارتسمت أمامه رؤية متماسكة للتراث بهدف إيجاد منهج علمي لدراسة التاريخ العربي والإسلامي على ضوء الظروف التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي أحاطت بالشريعة ألإسلامية ومدى تأثير هذه الظروف على طقوس الشريعة وقواعدها انطلاقا من فكرة عامل التأثر والتأثير ، على أَن لا جديد يولد من العدم بل شرط وجوده ، يكون لظهور متطلبات حتمته.

ومن مفيد القول التنويه الى ان الشيخ الأزهري أنتج عدد من المؤلفات تمحورت حول جوانب مختلفة من الحياة ألإسلامية واعتمد في ذلك على كتب التراث الديني التي تعترف بها المؤسسات الدينية وخصوصا الأزهر ، ولا سيما أن هدفه كان دراسة الشريعة ألإسلامية بنمطية جديدة تعتمد العقلانية أكثر منها المنهجية الدارجة منذ مئات السنين ، لتتماهى مع ما حصل من متغيرات اجتماعية تغلغلت الى بنيوية المجتمع ألإسلامي .

ويشير الشيخ الأزهري عبد الكريم إلى مسالة لم ينتبه لها احد ،بل كان فهمها والتعاطي معها أمر موروث ، ولا مجال لنقضه أو نقده أو القول بالضد منه . وجدناه لا يبخس القول بكثير من الصفات والسلوكيات ، ما لم تجد لها مكاناً غير المجتمع الملتزم ، المجتمع المعروف برصانة فكره وتوجهه. ويرى أن من يدعي تدني مستوى مرحلة ما قبل ألإسلام وانحطاطها ، إنما يقلل من قيمة وشأن ألإسلام وهذا الفهم قد ترآى للشيخ من خلال ما أشار ألإسلام من تحديه لهؤلاء ممن لم يؤمنوا بالدين ألإسلامي ، بل و يجادلهم! فلو كانوا حقا متخلفين وجهله فما كان بالقرآن أن يجادلهم ، بل كانوا على مقدرة من الردود وتعليل الظواهر والعادات

ومظاهر الكون والفلك ، وهذا ما تبدى واضحا في الآية الكريمة التي تحدى فيها العرب بقوله ((قل فاتوا بسورة من مثله))[١] .

وعادة فان التحدي لا يمكن ان يكون للضعيف ، بل لابد للمتحدي أن يتحدى صنوة ومن هو يضاهيه من القوة ، ومن ذلك ، فما ورثه ألإسلام من عرب الجزيرة واستعارته العديد من الأنظمة التي كانت سائدة بينهم في شتى المجالات الأخلاقية والاقتصادية والاجتماعية والقانونية ، غدت موروثا تاريخيا يعتد به . ويؤكد في هذا السياق من المقاربة ما بين المجتمعين ما قبل ألإسلام وما بعده ، إن هذا الدين الجديد قد اخذ عن العهد السابق له العديد من العادات والتقاليد ومنها فريضة الحج وشعيرة العمرة وتعظيم الكعبة وتقديس شهر رمضان وحرمة الأشهر الحرام وحدود الزنا والسرقة وشرب الخمر، وشطرا كبيرا من المسؤولية الجزائية مثل القصاص والدية وغيرها[٢].

ومن الواضح إن الشيخ الأزهري يحاول في بحثه هذه الجوانب الهامة في حياة العائلة وكأنه يحدد البروفة أو المسودة لما بعد ألإسلام ، والأكثر من ذلك فقد وجدناه وقد أشار إلى مقولة الخليفة عمر بن الخطب (العرب مادة ألإسلام) وكأنه يبتغي القول ان كل ما كان من الرقي والرفعة والنظام والاتساع ، كان بوحي من فلسفة حياة ما قبل ألإسلام ، وما أن حل الدين ألإسلامي حتى تفاعلت شريعته السمحاء مع هذه الثوابت التي ورثها من عرب ما قبل ألإسلام فشذبها وهذبها وقدمها أدوات ناجحة وراقية لمجتمع متدين ملتزم بنهج قويم. وقد تناول الشيخ في باب كتابه الأول أهم الشعائر التعبدية الموروثة من القبائل العربية ، مركزًا في مجمل بحثه على بيان أهمية الكعبة أو مكة وما كانت تمثله من شعيرة ومن مكانة

---

١ يونس/٣٨

١ الازهري : الجذور التاريخية ...، ص١٥

يؤمه العرب والمسلمون من كل صوب وحدب . وأشار إلى التوازن الأخلاقي والمذهبي الذي ظهر عليه الحجيج بدلالة رمزية المكان وقدسيته. وقد وقف الشيخ عند أهم الشعائر التعبدية ومنها الحج والعمرة ، فتحدث عن هذه الشعيرة قبل ألإسلام مع توصيف دقيق لملامح ما كان عليه الحجاج ، مؤكدا أن ألإسلام حين حل ديناً في شبه الجزيرة العربية وأسس دولته فإنها ورثت مجمل ما كان من عادات وتقاليد ظهر بها هذا المجتمع قبل حلول ألإسلام .

ووقف الأزهري عند مجمل الشعائر التعبدية الموروثة من القبائل العربية ومنها تعظيم البيت الحرام (الكعبة) والبلد الحرام وكذا الحال تحدث عن الحج والعمرة بوصفها من شعيرات التعبد في المجتمع آنذاك . وما يجب أن يشار إليه إن تلك الشعائر التعبدية التي ورثها المجتمع ألإسلامي ، كان قد شذبها وأضاف إليها واقتطع منها واجتزأ بحيث باتت تتفق والشريعة ألإسلامية وهذا الأمر من الارتقاء بالعادات والتقاليد ، انسحبت على تقديس شهر رمضان لأنه من عادة قريش قبيل ألإسلام أن يعمدوا الى تقليد يتمثل بما عرف بالمتحنفين[١] ، ومنهم عبد المطلب جد النبي (ص) إذ عمد حين مجيء رمضان إلى شد مئزره وطلع إلى غار (حراء) وتحنث فيه وأمر بإطعام المساكين طوال شهر رمضان وكذا كان يفعل زيد بن عمرو بن نفيل عم الخليفة عمر بن الخطاب (رض). وكان من ضمن ما عمد الى ذكرها الشيخ الأزهري وأكد عليها بوصفها من عادات وتراث المرحلة السابقة للعهد ألإسلامي ، هو تحريم الأشهر الحرام ، فقد كانت العرب قاطبة تعتبر أشهر ذي القعده وذي الحجة ومحرم ورجب ، أشهرا حرما لأنها الأشهر التي تشهد موعد الحج إلى اكبر الكعبات وأقدسها وهي كعبة (مكة). وتحدث عن مكانة إبراهيم

---

١ حنيف تعني كلمة متعبد والمتبع لدين إبراهيم ، وجمعه حنفاء أو أحناف ...حنيفا مسلما وما ...

وإسماعيل (عليهما السلام) لينتهي الى الحديث عن الاجتماع العام وهو يوم الجمعة[١] .

وتطرق في مبحث آخر عن الشعائر التعبدية الموروثة عن الحنيفة. موضحا معنى هذا المصطلح ومشيرا الى أهم رجالها بما فيهم اسعد ابو كرب الحميري وزهير بن ابي سلمى الشاعر المشهور و عثمان بن حارثة وغيرهم. وقد أسهب الأزهري في سوق الروايات التي تشير وتؤكد على سمو طبقة المتحنفين ، مشيرا الى اهم صفاتهم والتي في بعض منها يتشارك مع مفردات الشريعة ألإسلامية[٢] . وحين تحدث عن الشعائر الاجتماعية ومنها الرقية أو العوذة التي يرقى فيها المريض . وتحدث عن السحر وتفرعاته ووجهاته واستخداماته[٣].

وكان من ضمن العادات والتقاليد الاجتماعية التي تطرق إليها الأزهري ، هو العناية بالإبل (الأنعام) فأشار إلى أهمية الأنعام أو الإبل في قوت الناس ومعيشتهم وتوصيفها بأنها محور الاقتصاد في حياتهم بل أنها في كثير من التعاملات التجارية كانت تعتمد في عملية التبادل وخاصة في المسائل المالية ، بل وأكثر من ذلك في عمليات التعويض والغرامات وغيرها . ومن ضمن العادات والشعائر المجتمعية ، تحدث الأزهري عن تعدد زوجات وطبيعة العلاقة بين هذه الزيجات ببعضها وبالزوج الوحيد في مقابل لربما خمس زوجات . فيما أسهب في بيان معنى ((بعل)) ودلالتها المتعددة ، مشيرا في هذا المجال الى الصحابة والخلفاء ممن اقر

---

١ الازهري : الجذور التاريخية ، ص٢٦ .

٢ المصدر نفسه ، (ص٢٩).

٣ المصدر نفسه ، ص٣٥

بتعدد الزوجات وتزوج بالفعل أعداد وفيرة من الزوجات ومنهم الخلفاء الراشدون والصحابة وآخرون[١] .

وفي اعتقاد الأزهري إن هذا الزواج الذي شمل الصفوة المختارة من المسلمين والمسلمات له دلالات بعيدة كانت سائدة وقتذاك . على أن التقاليد العربية التي كانت سائدة في الفترة السابقة لحلول ألإسلام ، لا تؤثر قطعا بين جماعات ترتبط بروابط أخوية تركت آثارا واضحة لا على النصوص المقدسة فحسب ، بقدر ما أثرت في سلوكيات المسلمين السابقين . ويعود الشيخ الأزهري ليؤكد اقتباس مصطلحات كانت دارجة في العهد الجاهلي ، والتعامل معها بعد ألإسلام كما في الآية الكريمة " وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو أعراضا "[٢] .

ويعرج الأزهري على موضوعة المرأة إذ أشار إليها ضمنا وليس مستقلا ، مناقشا مسألة الزنا وقذف المحصنات ، وما يترتب على الشخص المعروف بابن زنا من محاذير اجتماعية وإدارية . ويبدو انه في هذا المجال من ذكره لهذه الحالة من رمي المحصنات ، والتأكيد على النسب الشرعي يتيح له المجال بأن ينسب تلك الحالة إلى التراث او الميراث العربي مستندا في ذلك من لغة التخاطب بين المتخاصمين حين ينعت أحدهم الآخر بابن الزانية وأبن الزاني ، مؤكدا أن هذا اللفظ موجود في المجتمع العربي من الخليج الى المحيط ، بمعنى أنه متجذر ، ومن أجل ذلك يمكن أن يرجعه الى ما ورثه المسلمون عن العرب قبل ألإسلام على أن ذهابه الى تعريش المفهومين أو المعنيين يحتاج الى أدلة أقوى من ترجيحه عودة هذا اللفظ الى ما قبل ألإسلام لانتشاره بين شتى القبائل العربية ، ولكن يمكن البحث في مفردات أو ألفاظ كمشتركات بين القبائل العربية ، وهي بالتالي تعود الى عهود لا

---

١ الازهري : الجذور التاريخية : ص٤٣.

٢ النساء / ١٢٨ .

ترقى الى ما قبل ألإسلام وفدت مع الأقوام من جراء المغازِ المتعددة . أو هل وهل يمكن أن نقول أنها وفدت

تتلبس المرء حين يعيشها ويشعر بقربها من مشاعره ومتبنياته[١] ، فالعادات والتقاليد عند المجموعات البشرية ، هي مخرجات لتلاقي تلك المجموعات البشرية بصرف النظر عن الانتماء او الشكل ، فالعادات والتقاليد حالة وفدت مع ما وفد من مفردات انضمت الى مفردات التراث العربي القديم ؟ حقا أنها مسألة بحاجة إلى وقفة جدية تستند إلى أدلة وبراهين ، أجدر مما ذهب إليها الشيخ الأزهرية

ويقف الشيخ عند موضوعة لطالما أثارت جدلا ونزاعا سواء بين المنظرين في كتابة التاريخ ، أو الذين أوجدوا هذه الظاهرة والتي تمخمخ٠ ض عنها ما تمخض من ارتباكات وتهدمات وتثلمات في المجتمع ولا سيما في المجتمعات ذات الأنظمة المستبدة. وهو موضوع الاسترقاق[٢] . وقد انتقى الشيخ عبارة للأديب محمود العقاد وناقشها ، تتعلق بوجود الاسترقاق من عدمه عند المسلمين ، منتهيا الى القول بوجوده ومنه رق السبي او رق الأسر ، ورق الاستدانة ، ليخلص إلى القول إن ألإسلام حل ببيئة كانت حبلى بهذه العادات والتقاليد ، فكان من الطبيعي أن تسري فيه مثل تلك العادات ومنها الرق ولم يتمكن من تخفيفه وليس القضاء عليه إلا عن طريق العنف أو التخلص منه ، فقد كان بقرار من المملكة المتحدة البريطانية في القرن السابع عشر بعد أن أصبح خطرا يهدد شعوب العالم الفقيرة ومنها أفريقيا ، فضلا عن تضرر مصالح بريطانيا وإلا لما أقدمت على تحريمه وإلغائه .

١الأزهري : الجذور التاريخية، ص٧٥ وما بعد

٢ المصدر نفسه : ص٧٩ .

وتطرق في موضوعة الشعائر الجزائية الى ما وصفها ب(العاقلة)[١] ويعني الدية التي تتحملها العشيرة او القبيلة عن فرد من أفرادها ارتكب عمدا فعل القتل[٢] . وقد ورث ألإسلام هذا التقليد ، فأطفأ عليه تشريعا وغدا جزءا من موروثه الثقافي . ولعل من الأمور التي تؤكد على سمو عادات العرب ورقيها ، وهو ما بحثه الشيخ الأزهري من مسألة القسامة والتي في مغزاها محاصرة الجريمة وعدم السماح بالتستر عليها. وفحوى القسامة وهو حلف او أداء قسم خمسين شخصا من اهل المكانة الذي وجد فيه القتيل الذي لم يعرف قاتله ، يختارهم ولي المقتول فيقسمون بأنهم ما قتلوه ولا هم عرفوه او من قتله ثم يحكم بالدية على أهل المكانة جميعا. وحين جاء ألإسلام ، اقر بهذا العرف وباب واجب القيام به والاحتكام إليه ، حتى غدت نوع من المسؤولية الجنائية إذا كانت عرفا او حكما مستقرا قبل ظهور ألإسلام بين عرب الجزيرة ، فأقر ألإسلام واخذ محاذيره . وجاء الى الباب الرابع المعنون ب(الشعائر الحربية)[٣] ، فاختار الحديث عن خُمس الغنائم بوصفه احد أركان الاقتصاد ألإسلامي ولا سيما في مراحله الأولى. وكان في عهد ما قبل ألإسلام يعطى ريعه الى رأس القبيلة والعشيرة ، وبعد مجيء ألإسلام ادخله ضمن إجراءاته ألإسلامية حتى غدا مقسما بنسبة الخمس لله ولرسول ولذوي القربى الخمس والثلاثة أخماس البواقي لليتامى والمساكين وأبناء السبيل[٤] .

وتطرق الى موضوع ذات دلالة بعنوان (السلب) وبغية تأكيده على تواصل هذا العرف او التقليد من عصر ما قبل ألإسلام الى ما بعد ألإسلام ، أورد الشيخ

---

١ الازهري ، الجذور التاريخية ، ص٣٣

٢ المصدر نفسه ، سه : ص٩٥ .

٣ المصدر نفسه ، ص٩٤

٤ المصدر نفسه ، ص٩٥

الأزهري نصين يتعلقان بتلك المرحلتين وكيفية التعاطي مع السلب. فقد نقل نصا عن محمد احمد في كتابه أيام العرب في الجاهلية:((وخرج هودي والأساور والعير من هجرٍ حتى إذا كانوا بنطاع بلغ بني تميم ما صنع هوذى ، فساروا اليهم واخذوا ما كان معهم فاقتسموه وقتلوا عامة الاساورة وسلبوهم...ثم إن رياحا اخذ رمحا القتيلين وسلبهما وانطلق)) . وهو بذلك يؤكد على إن هذا العرف كان قد استقر في القبائل العربية ما قبل ألإسلام وقد انتقل بكل حيثياته الى ما بعد ألإسلام وهذا ما نتلمسه من النص ((قضى رسول الله(ص) في السلب للقاتل ولم يخمسه))[١].

وتطرق بعد ذلك الى موضوعة الصفي أي ما كان يأخذه رئيس الجيش ويختاره لنفسه من الغنيمة قبل القسمة ويقال لها الصفية وهذا التقليد بذاته انتقل الى ما بعد ألإسلام حتى غدا من اهم موارد الدولة ولا سيما بعد الفتوحات[٢] .

اما الشعائر السياسية التي تطرق إليها في باب الكتاب الخامس ، فقد وقف عند مفهوم الخلافة بما تعنيه من معان متداخله ومتشابكة بل ومثيرة في بعض الأحيان للجدل ولعل أول تلك الجدليات هو ما أثاره الشيخ الأزهري من تساؤل مفاده:لماذا لم يترك الرسول (ص) حديثا يحدد فيه الشخص الذي يخلفه في السلطة والقيادة ؟ ولا سيما إنه لم يترك شاردة ولا واردة جزئية او مفردة في الحياة الا وقد علمها لشعبه ولكنه لم يترك حديثا كما أشار لحل هذه الإشكالية. وناقش ما ذهب إليه محمد احمد خلف حين عزا ذلك لأمور غيبية . ومع ذلك فهو لم يقتنع بهذا التبرير مؤكدا إن هذه المسالة اكبر من أن يوكل أمر المسلمين إلى أمر غيبي ويقول :إن الرسول وهو في أخريات سويعات عمره أشار إلى أبو بكرٍ بان يؤم المسلمين ، لكنه لم يشر الى الإمامة الكبرى وراح الأزهري يناقش ويتساءل عن مغزى عدم الإفصاح صراحة

---

١ أحمد الشرباصي ، المعجم الاقتصادي الإسلامي ، دار الجيل ، ١٩٨١.

٢ الازهري : الجذور التاريخية ، ص١٠٠ .

عن الإمامة او الخلافة حتى توصل الى نتيجة وجدها مقنعة وحين استقرأ الشيخ كل مظاهر اختيار الخليفة ، لم يجد اي تبرير او توضيح سوى إن التقليد الذي كان سائداً في مرحلة ما قبل ألإسلام لا تتيح لشيخ القبيلة أن يعين خلفه دون الذهاب الى رأي مجلس القبيلة لأنه يرى إن رئاسة القبيلة او الخلافة أو حتى الرئاسة هي تسمو عن النواحي الإدارية والوظيفية فهي لا تخرج عن النطاق الأخلاقي وبذلك فهو يبرر إن اللجوء الى السقيفة كان امر حتمي اقتضته الحال المتدهورة للدولة ألإسلامية و لا سيما انها ملتزمة بالتقليد الذي ورثته عن مرحلة ما قبل ألإسلام في اختيار رأس القبيلة من انه يمثل الجوانب الأخلاقية وهذه الأطر الأخلاقية تفسخت وتوارت مع تعقد الحياة والأمم ، وحين وصل الأمر الى حكم معاوية بن أبي سفيان ، فقد تغير هذا التقليد من انتخاب الشيخ او رأس الدولة الى التوريث. وهذا ما شهدناه إبان حكم معاوية إذ قال عنه:انه من أصاب حين حول النظام من مبدأ الاختيار الى التوريث ، استنادا لتطور وتعقد الحياة[١] .

وفي ذات السياق من هذا الموضوع عمد عبد الكريم الشيخ الى بيان مسالة الشورى حين أورد ما أشار إليه عبد القادر عوده في كتابه (عودة التشريع الجنائي ألإسلامي) من أن العرب كانوا قبل ألإسلام في أدنى درك الجهل وفي غاية الانحطاط والتخلف ، وعليه قررت الشريعة ألإسلامية التأسيس لمبدأ الشورى لما عليه من فاعلية في الارتقاء بحياة الأمة تحت أطار الدين .

وقد اعترض الشيخ الأزهري على ما ذهب إليه عبد القادر عوده من تخلف العرب قبل ألإسلام مؤكداً أنه يرى العكس ، فقد كانت لديهم ثقافة واضحة بدليل ما أنتجته الفرق الفكرية وعلى رأسها المعتزلة ، ليستدرك مسالة الشورى ويقول : أنها سابقة على ألإسلام بدليل وجود ما عرف بالملأ أي ممن تجاوز الأربعين وله دراية وحنكة

---

١ الازهري : الجذور التاريخية ، ص١١٧ .

في إدارة ومناقشة الأمور ، ليشكلوا مجلسا لانتخاب شيخ القبيلة وتعيين أمورها وناقش الأمر تاريخيا مشيرا الى دار الندوة وما كان يدور فيها من اجتماعات وكذا الحال بالنسبة لسوق عكاظ وغير ذلك مما يدل على وجود ثقافة معينة تحول دون الانحطاط . وفضلا عن ذلك ، فقد ناقش مسالة الشورى من الناحية اللغوية وأوصلها بالمعنى التاريخي لينتهي الى القول إن الشورى هي ميراث الى القبائل العربية السابقة على ألإسلام .

ثانيا : في كتابه : " إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب "

بغية بيان أهمية وخطورة متبنيات الأزهري في كتابه المشار إليه أعلاه ، هذا إذا كان التفسير للروايات التاريخية ، هو تفسير نسبي ، لربما أنا أطري على واقعة معينة من وقائع التاريخ ، في وقت أنت غاضب على تلك الواقعة ، وهذا هو ما يخلق جدلا وتصارعا في الأفكار . وهذه الاختلافات وغيرها الكثير من التحفظات ، هي ما تؤسس لجدلية في قراءة النص التاريخي ، صحيح إن الجدل من شأنه أن يرتقي بالفكر ، ولا سيما الفكر المحاور ، بيد انه في نفس الوقت سيستغرق جهدا ويستهلك صبرا ، ويخلق تصارعا ولربما عدم التلاقي مستقبلا ، وهو أمر ضئيل الحصول . وعودا على بدء ، فأن من شأن الجدل وعدم التلاقي بالآراء إلا بعد جهد جهيد ، من شأنه أن يؤسس لحالة من تحديث الفكر وتجديده وإخراجه من قيود ورتابة جعلت منه وعاءا لاستقبال الراكد من الماء . وفي محاولة للوقوف على جانب مما ذهبنا إليه بشأن جدلية الرواية التاريخية عند الشيخ خليل فقد آثرنا أن نستعرض أهم جزئيات كتابه المثير للجدل " إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب " مؤكدين على وجود إشكالية المرويات التاريخية عند الشيخ خليل عبد الكريم ، وقبل ذلك لا بد من شيء عن الكتاب وعن مؤلفه :

فمن خلال مراجعتنا لكتاب الأزهري هذا ، تبين لنا انه بمثابة ردود على أطروحات ورؤى وروايات ساقها لنا ابن إسحاق بشأن السيرة النبوية ، ووجد ان محور هذا الكتاب يدور حول إشكالية معينة تقاطعت في طبيعتها مع ما يراه ابن إسحاق في سيرته ، ولا سيما أنها محل ردود واضحة بادر إليها الشيخ الأزهري من خلال نقاط ركز عليها هناك تتعلق بالروايات التي وردت في كتاب الدكتور محمود علي مراد وهي بالتالي مقتبسة من كتاب سيرة ابن هشام . وليس من شك بأن سيرة ابن هشام (التي كتبها ابن إسحاق) تعد المصدر الأول لكل ما كتب عن السيرة النبوية حتى الآن . وقد وجد للدكتور مراد وهو ما تضمنه كتابه الذي اعتمد فيه على القرآن وحده- أن ما ورد في سيرة الرسول لابن هشام عن: قصة أصحاب الأخدود – ونفي حماية عبد المطلب للرسول (ص)- فترة الاستخفاء- حماية بنى عبد المطلب وبنى هاشم للرسول صلى الله عليه وآله سلم – الهجرة إلى الحبشة- مقاطعة قريش لبنى هاشم- بيعة العقبة الثانية – حصار بيت الرسول صلى الله عليه وآله سلم – ظروف الهجرة إلى المدينة- لا يمثل الحقيقة الموضوعية وينطوى على كثير من المغالطات، كما اتضح له أن ما حفلت به سيرة ابن هشام من شعر منحول يدل دلالة قاطعة على نية مبيّتة لتزوير السيرة النبوية عن طريق انتحال الشعر .
وتُظهر هذه الدراسة أيضا أن الجزء المكى من سيرة ابن هشام ليس سيرة حقيقية للرسول صلى الله عليه وآله سلم ، وأنه يفصل الرسول عن القرآن الكريم، ويسير فى اتجاه مخالف تماما لاتجاه القرآن، وأن مؤلف ((السيرة)) تأثر فى كتابته بعدة عوامل هي: ولاؤه للخليفة العباسى الذي كلفه بكتابتها، وانتماؤه إلى المدينة، وحفيظته الشخصية ضد خالد بن الوليد الذي أسر جده فى العراق، وعقلية عصر الفتوح التى كانت تعتبر أن النصر العسكرى هو النص الوحيد الجدير بهذا الإسم .
وقد حاول الدكتور مراد أن يصحح أخطاء ابن إسحاق العديدة وأن يسد بعض الثغرات التي وردت فى حديثه عن الفترة المكية. وإذا ما علمنا أن معظم الكتب

التي تطرقت للسيرة النبوية والتاريخ ألإسلامي ، الى جانب ما جرت العادة عليه في المناهج الدراسية ، أنها جميعا تتغاضى عن التطرق لمناقشة مثل هذه الإشكاليات وكأنها أمور مقدسة ومسلم بصحتها ، ومن ثم يأت قلم يشعر بوجل الأنامل الممسكة به ليخط ما تبتغيه تلك الأنامل من صحيح الكلام والادعاء ، وينوء بمدواته مع ما يتقاطع مع هذا المسار ، فأن ذلك سيكون قضية فيها وجهة نظر ، ولا سيما لدى أولئك من يعدون أنفسهم سلاطين كتبة التاريخ ألإسلامي ، بل إن هذا الجنوح عن المعتاد في كتابة التاريخ ألإسلامي يعد أخفاقة كبرى وتجاوز على سيرة الرسول (ص) . وقد أشار الشيخ الأزهري بهذا الصدد قائلا : " إن أبن هشام كان جل اعتماده على أبن أسحاق ، ولكن أبن هشام ذكر صراحة أنه أهمل أشياء بعضها تشنيع للحديث وأخرى يسوء ذكره "[١] .

ويرى الأزهري أن أبن هشام كان يبتغي التوسع أكثر في سرد سيرة الرسول والوقوف مليا عند محطات هامة في حياته (ص) من مثل قصة زواجه من زينب بنت جحش ، الى جانب طرحه الروايات تاريخية إذ وجدها مجافية للحقيقة التاريخية التي أغفلها البعض عمدا ، مؤكدا أن ابن هشام ولأسباب تتعلق بالبيت العباسي الحاكم وإرضاء لهم ، تخلى عن ذكر أشعار أهل البيت (ع) كما هو الحال في إغفاله قصيدة الإمام علي (ع) في رثاء أبيه . وكذا الحال في إغفاله موقف الإمام علي من الرسول (ص) مع اعتراف الرسول بالإمام جهارا ونهارا ، ويؤكد الأزهري أن ذكر مثل تلك الروايات من الطبيعي انها تغضب من اغتصب الحكم من الحاكم الحقيقي وهو الأمير علي بن ابي طالب ومن ناصر على ذلك . ومن الأمور التي تطرق إليها الأزهري ، وهي في غاية الخطورة ، تلك التي تتعلق بالنص القرآني الذي لا يحتمل التأويل ، فهو يؤكد وهو الصحيح إن القرآن الكريم ليس كتاب تاريخ

---

١ الازهري : إلا امير المؤمنين ، ص١٩ .

لكي يحاكم ابن إسحاق السيرة المحمدية العطرة ، حين عمد الى تحريف بعض المعان المستخلصة من نصوص القرآن الكريم ، لأن الآيات الكريمة ، جاءت بخصوص العهد المكي من الدعوة ، ولم يكن المقصود منها التاريخ ، إنما المعان التي رمت إليها وهي التثبيت وتقوية القلب لـ (ذؤابة قريش : محمد) ولتأسيس اليقين في صدور أتباعه١ .

ووقفنا عند نقد لاذع للازهري وجهه للدكتور مراد محمود مطالبا بضرورة المراجعة قبل أن يدلو بدلوه في الحديث عن سيرة الرسول الأعظم (ص) بالاعتماد على الكتب المعنية بتلك السيرة الشريفة وان لا يترك كتابا معنيا بتلك السيرة الحميدة إلا واطلع عليها ، ولا سيما تلك التي سبقت تدوين سيرة الرسول من قبل أبن إسحاق كما في سيرة عروة بن الزبير وأبان بن عثمان وأبن شهاب الزهري وموسى بن عقبة ، بل وأكثر من ذلك ، وجد شيخنا الأزهري أن الدكتور مراد كان عليه أن لا يضيق صدره من كثرة البحث والتقصي ، بل وجد ضرورة الالتقاء بالسير اللاحقة وكتب التاريخ الى جانب مصنفات أسباب النزول وأسباب الورود بالنسبة للحديث الشريف . ويرى أن ما وجده من أغلاط وهفوات معرفية وتاريخية اعترت كتاب الدكتور محمود ، يكمن في تعجله ، بل أنه آثر الطريق السهل والمحجة المطروقة ، مؤكدا أن ذلك ما دفع بالشيخ الأزهري لتحرير هذا الرد ويضّعف بل ويسقط ما رواه الدكتور عن مزاعم نفي حماية أبي طالب للرسول (ص) محددا الصفحات التي ساق فيها تلك المعلومة في كتابه مؤكدا أن تلك المعلومة غير صحيحة لعدم وجودها بالتواتر أو بالاعتماد على الإسناد أو المصادر التاريخية ، ومثل هكذا رواية عن حدث خطير ، ولا يمكن بمكان لمن يرويها أن يستند على الفروض والاحتمالات والتخمينات كما ورد في الصفحة (٥٤) من كتاب الدكتور محمود

١ الازهري : إلا امير المؤمنين: ص٢٠

علي مراد . وأشار الأزهري الى ما ورد في الصفحة (٥٣) من الكتاب ، وهو القسم الذي أقسمه أبو طالب لأبن أخيه ((ألا يخلص إليه شيء مكروه ما بقي)) مردفا ذلك بعلامة تعجب . ويبدو إن الشيخ الأزهري من الدقة والوضوح لم يغفل أية أشارة أو حتى تلميحه خاطئة ، وقد أشار إليها بيانا منه لتقدير مستوى صاحب الكتاب ، وهي أطروحة دكتوراه درءا لأي خطأ لربما سيصدم بها أو يندهش من يروم قراءتها والعثور على هفواتها ، ولا سيما تلك التي كانت محورا هاما من محاور كتاب ونقود الأزهري وتصويباته التاريخية ، بما في ذلك نفيه تسيد أبا لهب على بني عبد المطلب ، وقد أحال ذلك الى أبي طالب على الرغم من ثراء ألأول وفقر الثاني ، بل أن زعامة أبا طالب كانت قد تعدت الى قريش . وقد ساق لنا الأزهري ما من شأنه توثيق ذلك ، بما فيها الأدلة التاريخية والممارسات التي كان عليها أبا طالب ، معولا في كثير من تلك الشواهد على روايات وردت في مصادر رصينة كما هو الحال فيما أخرجه أبن عساكر وطبقات أبن سعد ، وما أشار إليه الشيخ محمد أبو زهرة في المجلد الأول من كتابه " خاتم النبيين " عند الصفحة (٤٢٤) .

وفي حديث شريف يحضرني مفاده :((القابض على دينه كالقابض على جمرة من نار)) حاولت أن أُسقط ما تشير إليه معاني هذا الحديث على حال الشيخ الأزهري وما عاناه مما يؤمن به ويعتقد بصحته. ومن دون شك إن الإنسان معرض للخطأ والنسيان ، وبالتالي فإذا ما أصر كاتب او مؤرخ او مفكر على رؤية معينة أو تصويب لمسار يجده خاطئا ، فهذا يمثل رأيه ، وليس من المنطق أن نحول دون البوح برؤيته تلك والعمل على تحييده او التحريض في أحيان أخرى على قتله وتصفيته . بل العكس لا بد من الإنصات إلى رؤيته والتمعن بأفكاره ومحاكمة نصوصها وتفكيك فقراتها ، ونعود مرة أخرى لترتيبها علنّا نجد تصويبا او إضافة علمية أو فكرية وبذلك نكون قد خدمنا المجتمع وأسهمنا في رقيه . ولكن الشيء الذي وجدته في سيرة الأزهري ليس هذا أو ذاك ، صحيح إن في كتاباته ما هو

غث وما هو سمين ، ولكن ما يجب الاعتراف به ، إن هذه الكتابات نهضت بزوايا وأركان مهملة من أركان التاريخ ألإسلامي ، وأقصت جوانب أخرى من جوانب الإبداع ، وأحيانا قال الحقيقة بتمامها وأحيان أخرى جانبها أو غمطها ، ومع ذلك فهو يمثل رأيه ، وإذا كان بالإمكان تصويب ما أخطأ به أو تكملة ما بدا لنا ناقصا ، أو بحاجة التنويه لشيء قد فاته ، فالنتيجة زيادة معرفية تسهم في رقي الفكر وتوثبه . فالشيخ ومن خلال سبعة عقود من الزمن ، وهو حصيلة ما عاشه من السنين في هذه المعمورة ، يكون قد أنتج مجموعة كتب تعد من اخطر ما كتب في التاريخ ألإسلامي ، ومن المؤكد إن تلك الأهمية متأتية من معيارية واضحة يمكن ان يتوسمها الكاتب ليفز بتلك الأهمية . فما من شك كلنا يدرك أن كتابة التاريخ ألإسلامي لا بد أن يسير بنمط جرت عليه العادة بحيث لا يشُكِل على رواية أو يغير من مسار أو يحط من منزلة أي احد ، بمعنى المحافظة على قداسة التاريخ ألإسلامي بكل شخوصه ورموزه ومحطاته وتعثراته وغير ذلك . وهذا ما لم نجده عند الأزهري ، فقد انفرد برأي وجدنا فيه من الصحة الشيء الكثير ، ومع ذلك ففي طرحه أحيانا وجدنا لبس وغلو واندفاع في الحكم على الأشياء التي لا تستحق ذلك الاندفاع . ومما لاشك فيه أن المؤسسات العلمية العربية والإسلامية بما فيه الأزهر الشريف ، تعمل جاهدة على عدم تغيير مسار كتابة التاريخ ألإسلامي لدواعٍ عدة ، ولا نعتقد إن هذا الامر صحيحا ، فبمرور الزمن تتكشف ومن خلال الوثائق والمخطوطات والتغييرات السياسية للأنظمة الشمولية ، ومعها يقع زمن التغيير والوقوف على حقائق لم تكشف من قبل لسرية المعلومات أو لتغييرات في فهم التاريخ ، يكون مرتبط بانفتاح من شأنه أن ينتج مسارا تاريخيا مغايرا ، إذ أن تغييرا واحدا أو محطة واحدة في مسار تاريخ ألأمة ألإسلامية من شأنه أن يشكل انعطافة خطيرة في مسار التاريخ ألإسلامي ولربما يحدث تغييرا بنيويا في طبيعة المسلم المعني بهذا التغيير . وعلينا أن نتخيل أن شيخا من شيوخ هذه المؤسسة الأزهرية

وفي ليلة مضيئة يأت أحدهم لينبأ الآخرين من شيوخ هذه المؤسسة وجماهيرها بحقائق تاريخية ، لعلها تحدث شرخا او تهدد كتابات أخرى بالتغيير لأنها لم تكون صحيحة ولم تقم على نهج قويم . وعلى وفق ذلك ، وكما كان يتوقع من ردود الفعل على ما عمد إليه من تغيير في كتابة التاريخ ألإسلامي حين ساق روايات تناقضت مع الإنتاج القديم للتاريخ ألإسلامي ، فقد جوبه بهجمة شرسة من جهلة المؤرخين ومن لم يفقه إن الاختلاف في الرأي ينتج فكرا رصينا. ومع ذلك فأن تلك الردود لم تزده سوى إصرار على الاستمرار بنهجه المؤسس على قول ما يشعر بصحته ومتيقن من سلامة نصه . وعلى هذا المتغير في بنيوية أفكاره ، ولا سيما انه اعتقل لمرتين بسبب انتمائه لجماعة الإخوان المسلمين ، مما زاده هذا الأمر إصرارا على قول الحقيقة مهما كانت العواقب . فأصدر كتبا حملت بصماته التغييرية ضمن ما حملته أفكاره وتوجهاته . وقد تبنت نشر جزء من كتبه تلك مؤسسة (الانتشار العربي) بعد أن وجدت في مادة كتبه ما يجذب الآخرين ، لا سيما وانه خالف كثيرا من حقائق التاريخ ألإسلامي المدون وهو يستند فيما يذهب إليه بأسانيد وأدلة دامغة تقضي : ((بضرورة إسقاط هالة القداسة عن المجتمع العربي المسلم قبل وأثناء الدعوة ألإسلامية ... فهو مجتمع لا عصمة له)) . وهو لا يعارض النصوص الصحيحة من القرآن الكريم ، ولا سيما تلك التي لا تأله الرسول وتدلل على انتمائه للبشر كقوله تعالى ((قل إنما أنا بشر مثلكم)) فأن كان هذه هي شأن النبي ، فما بالك للصحابة[١] .

وعلى هذا المنوال من التناول والتعاطي مع الحقائق التاريخية ، فقد أنتج ما عدده عشرون كتابا ، تمحور فيها حول رؤى وتوجهات تخللت كتابة التاريخ ألإسلامي ،

---

١ الازهري : الا أمير المؤمنين ، ص٥-٨

فكان له إزائها وجهات نظر مختلفة وتقويمات وجد انها ستعمل على تقويم وتخليص الروايات التاريخية ألإسلامية من التجاوزات والمحن الوضعية .

وفي مبحث أسماه بـ " ما هو سر العداء للطالبيين القديم والحديث : أنتهى فيه الى سوق كلمات دالات بحق الطالبيين منوها أن جوهر سموهم ، كان قد استفز الاخرين لا شعوريا ، ودفعهم ليخلقوا ردود أفعال تؤكد شعورهم بعدم وصولهم ما وصل إليه الطالبيون من مكانة تفردوا بها[١].

١ المصدر نفسه : ص٢٩ .

الضلع الثالث

-في مؤامرة وقعة الجمل وموقفه من النسوان -

ما أن وقع نظري على كتاب " إلا أمير المؤمنين " وقرأته حتى تخيلت أني ماثل أمام موضوع مثير للجدل من خلال ما أعطاه الأزهري هذا العنوان . وقد استعمل مصطلحات لم نعهدها من قبل ، أوجدها كناية عن شخوص أسهمت في وقوع أحداث خطيرة في مسيرة التاريخ العربي والإسلامي. فحين تحدث عن واقعة الجمل ، أطلق تسمية الضلع الثالث ، وكأنه حدد ثلاثة أشخاص يعول على أنهم أساس هذه الواقعة ، على أن بينهم وشائج قوية كما هي بين أضلاع القفص الصدري لشخص معين ، ويقصد بالضلع الثالث " الزبير بن العوام " في حين كان الضلع الأول متمثلا بالسيدة "عائشة بنت عتيق بن أبي قحافة والضلع الثاني " طلحة بن عبيد الله".

وبغية أن يضع القارئ في الصورة التي يراها المثلى فيما يذهب إليه إزاء وقعة الجمل ، فقد وصفها بالمؤامرة ، مستعينا بتوصيف خطير لهؤلاء الأشخاص الثلاثة حين وصفهم بالثالوث غير المقدس منوها بما ساقه اليعقوبي في تاريخه عن تحريض هؤلاء على قتل عثمان بن عفان :" وكان عثمان محاصرا في داره ، وكان أكثر من يؤلب عليه طلحة والزبير وعائشة١ . والى جانب ذلك ، أشار الأزهري الى الرواية الثانية لليعقوبي التي وصفت هؤلاء بالمنافقين والمرائين ، تأكيدا لضلوعهم في تلك المؤامرة ، وزيادة على انطباق هذا التوصيف عليهم ، أشار الى مبايعة طلحة والزبير والأنصارْ والمهاجرين ، بل وكان أول من بايع الإمام علي وصفق على يديه هو طلحة بن عبيد الله . وتأكيدا لما ذهب إليه الأزهري ، فقد أشار الى إن هؤلاء الأشخاص سرعان ما انقلبا على وعدهما الإمام علي (ع)

---

١ اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، المجلد الثاني ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، د ت ، ص١٧٠ .

وأصبحا عدوين لدودين له . وفي هذا السياق التفت الأزهري الى ما أشار إليه الخليفة عمر بن الخطاب من ظروف عداوة الزبير بن العوام للامام علي (ع) ودوافع تلك العداوة بقوله : إن الزبير بن العوام كان يمقت ويغار اشد الغيرة من سلوك الرسول مع الإمام علي ، وكذا الحال في تعامله الشريف (ص) مع نسوته ، وأكثر من ذلك وصفه بالمتخلف والجاهل لأبسط حقوق المرأة المسلمة انطلاقا من تعامله المعاكس لتعامل الرسول مع نسوته . وقد أسهب الأزهري في بيان سوء سلوك ابن الزبير سواء مع نسوته او إثرائه الفاحش على حساب المقاتلين المسلمين ، لدرجة انه وصف ممتلكات ابن الزبير بأنها مهولة حين شملت العقارات والمزارع والبساتين ، انتهاء في حديثه بوفاته عام (٦٥٦م . ٣٦هـ) إذ خلف ورائه ألفا من العبيد ومثله من الجواري ، بل والانكى من ذلك تعمد الأزهري بيان ما كان عليه ابن الزبير من سوء سلوك مع زيجاته والجري خلف النساء الحسان . ومن الواضح إن الأزهري بتوصيفه هذا لشخص ابن الزبير وبيان مناصبته الإمام للعداء ، مع الفارق بين الاثنين بما يتعلق بزاد الدنيا وزاد الاخره ، يتبلور الى الذهن الواقد والحذق أن ثمة عاهة وشعور بالنقص يكون قد أصاب هؤلاء الأشخاص وغيرهم الكثير ممن عادى الأمير علي ، وتعمد الإساءة إليه ، وهو الرجل الذي زهد بالمنصب ولم ينتبه له إلا بعد أن أوحى إليه جل وعلا بذلك ، ولأسباب لا تخفى .

ويبدو إن الشيخ الأزهري ، كحال العلامة ابن خلدون بدا متحاملا نوعا ما على العرب[١] ، حين أشار الى إن هؤلاء (ويقصد العرب) العربان الجفاة ممن أصبحوا

---

١ ومع ذلك فلنا رأي في ذلك ، فحين وصف ابن خلدون العرب بالأعراب ، علينا أن ندرك أنه إنسان والإنسان يتأثر بالعواطف والأحاسيس ، ونقدر للعلامة المبدع ابن خلدون أنه كان شاهد عيان على تداعيات الدولة العربية الإسلامية وتشظيها وتفرقها لدويلات متعددة ، وبعد إن كانت تتبعها الدول المحيطة بها ، أصبحت فيما بعد تابعة تنتظر منها الأمر والنهي والتدخل الصارخ في إدارتها لا سيما في العهد العباسي الأخير . والى ذلك ، وبدلا من توحد القبائل العربية وتوجهها ضد دول

في غفلة من الزمن سادة وحكام لدول الجوار ذات الحضارات الراقية ، بل يجد أن مقاييسهم للمرأة حسية بحتة[١]. وبعد هذه الفقرة لا بد من التوقف قليلا وتأمل معانيها ومآلها ودواعيها مع سبل إطلاقها :

نقول : لا يختلف اثنان على أنّ لكلِّ أمة فضائلها وعيوبها، ولا يمكن القول بأن أمة كلّها عيوب، وأخرى كلّها فضائل، وكذلك كان شأن العرب قبل ألإسلام؛ فقد كانت لهم فضائل من النجدة والشهامة والكرم والشجاعة والذكاء وتحمّل المشقات بصبر وجلد، إلى غير ذلك مما لا يستطيع إنكاره كلّ من قرأ الشعر العربي القديم –وهو ديوان العرب وسجل أعمالهم وخصالهم– وفي الجانب الاخر كانت لهم عيوب مثل الغزو والتفاخر فيما بينهم وعبادة الأوثان وشرب الخمور، وغير ذلك مما كانت لكلّ الأمم في عصورهم، فماذا كان موقف القرآن والإسلام من هذه الفضائل والرذائل؟ وللإجابة على ذلك لا بد من القول : إنّ كلّ رسالة إنسانية لا بد لها من أمة جديرة بحملها والدعوة إليها، بما يتفق مع طبيعة هذه الأمة وأهداف ما حملته من رسالة ، ولقد كان العرب يومئذٍ أجدر الأمم المعاصرة لهم بشرف دعوة ألإسلام وإبلاغ رسالته الإنسانية إلى الناس كافة، فأذهانهم صافية صفاء السماء التي يستظلونها، بعيدة عن التخبط الفكري الذي كانت تعيش فيه أبناء فارس والروم، وأخلاقهم لم تتحلل كانحلال أبناء الحضارات في كلّ من فارس والروم، لقد

التسلط التي وجدت لها مرتعا غنيا تعتاش عليه على حساب العرب من شعوب تلك المناطق العربية .
وأمام هذا الظرف الذي يؤزم النفس ، من المرجح أن نفسية ابن خلدون قد تأثرت بحيث جعلت تفكيره منصبا على نقد طبائع وسلوكيات القبائل العربية ومنها التقاتل بينهم بل وراح ينبش التاريخ ويتحرى احداثه ووقائعه عله يقع على سبب مقنع لهذا الخنوع والتراجع ، وهذه الموجة من الغضب التي اعترت ابن خلدون دفعته للبت في تلك الأقوال والتوصيفات الدونية لجماعة من العرب .

١ : الازهري ، الشيخ خليل عبد الكريم : الا أمير المؤمنين ، ص٤١ .

١ الازهري ، الشيخ خليل عبد الكريم : الا أمير المؤمنين ، ص٤١.

جاءت رسالة ألإسلام منطقية معقولة تخاطب العقل، وتنفذ إلى أعماق النفس بكلّ يسر وسهولة، فليس كالعقل العربي يومئذ عقل يتجاوب مع منطق ألإسلام، وليس كالفطرة العربية حينئذ فطرة نقية بيضاء تقبل سهولة ألإسلام ويسره وسموّه، وتتجاوب مع واقعيته ومثاليته، وليس كالعربي حينئذ في جَلَدِهِ وصبره وبأسه، أمة تبذل من التضحيات في الأنفس والأموال ما تقتضيه الدعوة الجديدة ومكافحة أعداء أهدافها من رؤساء ومتسلطين، وبهذا كان العرب أجدر الأمم في عصر محمد (ص) بحمل رسالة ألإسلام، لا لأنهم قوم لا عيب فيهم، بل لأنّ خصائصهم الذهنية وأخلاقهم الاجتماعية جعلتهم جديرين بشرف التضحيات في سبيل الدعوة الجديدة، والله أعلم حيث يجعل رسالته، وليست جدارتهم بحمل أعباء الرسالة من الناحية التي أشرنا إليها تقتضي أن يكونوا أشرف الأمم قاطبة من الوجهة العرقية الجنسية، فقد يكون الإنسان أصلح من غيره لعملٍ معين، دون أن يكون أصلح من غيره في كلّ الوجوه، كما كان قواد الرسول (ص) وولاته أجدر من غيرهم من الصحابة لكفاءتهم الشخصية وعبقريتهم العسكرية، وقد كان تحت إمرتهم من هو أزهد منهم أو أعبد أو أعلم، واعتبر في ذلك بأبي ذر (رض)، فقد شهد له رسول الله (ص) بأنه: «ما أظلت السماء ولا أقلّت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر»، ومع هذا فقد رفض (ص) أن يوليه الإمارة قائلًا له: إنك ضعيف، وإنك لا تصلح لها. وهذا الأمر فيه مغزى عميق ، فكان من الممكن توزير (تنصيب) أبي ذر في مكانة عليا في الدولة استنادا لمواقفه المشرفة من الدين وخدمته ، لكن امتناع الرسول عن ذلك يحمل دلالات وأبعاد جمة ، لعل أهمها هو العمل على تأسيس دولة لها رجالها الأقوياء الأشداء ، ولا نبتغي من ذلك القول بافتقار أبي ذر لتلك المواصفات بقدر ما نريد التنويه بأنه كان ضعيف البنية مصفر الوجه زاهدا ناسكا طلق الدنيا ثلاثا فلم يهمه سوى التوجه الى عبادة الله . فالقرآن الكريم أراد ان ينظم حياة المسلم ويصلحها ، إذا ما علمنا أن صلاح المجتمع من صلاح الفرد .

وبعد هذه المقدمة التي لا بد منها نريد أن نبحث عن أثر القرآن في صناعة الإنسان العربي ولا سيما الموقف من فضائلهم وعيوبهم: فأن الله سبحانه وتعالى كان يعلم بطبيعة حياة الإنسان العربي وخشونة ما كان عليه ، وما ارتسمت على وفق ذلك من عادات وتقاليد بعضها حميدة وأخرى خبيثة فأشار الى الخبيثة فحرمّها ، ونظر الى الحميدة فأوجبها ، بل وجعل منها دستورا ينظم حياتهم ويخرجهم شيئا فشيئا من خشونة تعاملهم وبلادة سلوكهم ، يخرجهم الى عالم جديد جعل منهم أمة أشير إليها بالبنان ، حتى فاقت التصور في قوتها ومعرفتها ووزنها عند الدول الأخرى . وفي كل فعل أو حركة أو قول يطلقوه ، في كل ذلك فهم يرجون رحمة من الله تعالى ترحمهم وترتقي مكانتهم : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}[١] . ولعل من ممتع القول وأحسنه أن الدين الجديد عمل جاهدا لتهذيب وتشذيب عادات وتقاليد وأفعال المسلمين ، ولا سيما تلك المتجذرة في نفوسهم وفي أدبياتهم الشفوية من مثل الشعر والقصص وغيرها ، كالتفاخر بالنسب والشجاعة والمروءة والكرم ، منوها بأن توظيف هذه المتبنيات من شأنه أن يخلق دولة تمجد الدول الأخرى أجيالها وتنجذب إليها ، بل وتكون تابعة تسير في فلكها ، فأن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وطالبهم بقوله : {وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا}[٢] ، وقد سئل رسول الله (ص) عن الرجل يقاتل حميّة، ويقاتل شجاعة، ويقاتل مباهاة؛ أي ذلك في سبيل الله؟ فأجاب: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله». وكلمة الله أي

---

١ البقرة: ٢٦٤

٢ النساء: ٧٥

شريعته؛ من إحقاق الحقّ، ومحاربة الباطل، ونصرة الضعيف، وهداية الضالّ، وإغاثة المحتاج، فكلّ ذلك من شريعة الله وكلمته، فمن قاتل للمبادئ الإنسانية النبيلة فهو المجاهد في سبيل الله حقًّا. وبهذا القدر من موقف القرآن من سلوكية العربي المسلم وما أُريد له أن يكون نحاول ان نقف عند الشيخ الأزهري ومواقفه من تاريخية ألإسلام والمسلمين وصولا عند حديثه عن الزبير بن العوام ، مؤكدا على سوء تصرفه مع زوجاته والأساليب الرخيصة التي اتبعها معهن الى جانب بيان الأساليب الرخيصة التي اعتمدها بغية ردع زوجته عاتكة بنت زيد عن الخروج الى الجامع لأداء الصلاة[1] .

وإن لم أكن مخطئا فأن الشيخ الأزهري كان يسعى جاهدا لخلق قناعة تامة بتجاوز الزبير وعائشة وطلحة على الإمام في حملتهم عليه ، وأكثر من ذلك ، فأنه سعى أيضا أن يُفرغ الضلعين كما وصفهما ويكتفي بتجريدهما من كل فعل أنساني ذو معنى ، بغية تأسيس قناعة تامة على أحقية الإمام علي في صراعهم ضده ، مؤكدا ومنوها في حديثه عن السيدة عائشة ودورها في حملة الجمل . فجاء بترجمة مقتضبة عنها ، نافذا من خلالها الى بيان علاقتها بالرسول الأعظم (ص) الذي بذل جهدا واضحا في سبيل بنائها عقيديا . وقد تمحور الشيخ في حديثة عن عائشة حول الآية الكريمة " وقرنَّ في بيوتكنّ "[2]. ولكي لا يكون عند مجموع النساء لبسا في موضوعة الأوامر والنواهي ، فقد أكد على ان تلك الآية معنية حصرا بنساء النبي (ص) .

وقد أشار الأزهري لموضوعة خطيرة تخص السيدة عائشة حين أكد أنها فقدت كل ما فعلته من الأفعال الحسان وما كان لوجه الله تعالى عندما قادت هذه الحملة ضد

---

١ الازهري : الا ..أمير المؤمنين .. المصدر السابق ،ص٤٧

٢ الأحزاب /٣٣

ولي رسول الله ؟ وضد خليفة المسلمين بل وأكثر من ذلك ، فقد بات ذكرها في محافل البحث والباحثين فقيرا جدا إذا ما قلنا هامشيا . وأمام هذا المشهد الضبابي ، يبدو ان الأزهري لم يبتعد قليلا عن المشهد السياسي من جراء تلك الواقعة . ولا سيما أنه ازداد سوء بعد أن قادت حملة دعائية على الإمام علي (ع) بحجة المطالبة بدم عثمان بعدما كانت هي المحرضة الأولى على قتله . والى جانب رمزيتها بما تمثل من زوج النبي وبمعية ابن العوام وطلحة ، وما آلت إليه الأمور من خسائر بشرية كبيرة . وواضح ان الشيخ الأزهري لم يكن راضيا عما فعلته السيدة عائشة فاستعان بما كتبه بدر الدين الزركشي/ ق١٨ " وفي كتاب "البرهان في علوم القرآن "وكتاب " الاجابه على ما استدركته عائشة على الصحابة ومنهم ابو هريرة . وفي كل ذلك كان تزلفا لبني أمية لكسب رضاهم ونيل عطاياهم .والتفت من ثم متألما حين وجد أن الزركلي قد أستدرك على الإمام علي ، وهو تجنٍ واضح على شخص الإمام حين يضع ما بينه وبين التيمية عائشة أي مقارنة ومن أي باب ، ومع ذلك فالإمام لم يكن بحاجة لإعلام كامل وإفصاح شامل عن سيرته المفعمة بالمنعة الإنسانية والدعوة الصادقة لمن يحظى بالمسؤولية . ومن ضمن المهام الخطيرة التي كان الإمام ينتظرها بجد ورغبة ، هي نيل الشهادة من اجل نشر راية ألإسلام وإحقاق الحق والقضاء على الظلم ، ولكنه لم يكن راغبا إطلاقا بتسلم الخلافة . كما اشرنا سابقا . لأنه قد أدرك تماما ان الوضع الذي يريده سائدا سيستغرق سنينا عددا . وزيادة في استحقاق الإمام لسدة الحكم وأهليته لها ، أشار الشيخ الأزهري الى بعض الأمثلة الواردة في الكتب ومنها قول الرسول :أنا مدينة العلم وعلي بابها " وقال ما روي عن الرسول (ع) " أنا مدينة الرسول وقتها ومن أراد العلم فليأت لبابها وهو علي . وفضلا عن ذلك وفي أيام الخليفة عمر بن الخطاب (رض) كان طوال فترة حكمه يعتمد فتاوى الإمام علي بن أبي طالب . وقال : أن حبر الأمة عبد الله بن عباس كان قد أورد الكثير من الأحاديث التي

تقول : ((أذا ثبت لنا الشيء عن علي (ع) لم نعدل عنه الى غيره))[١] ، وهذه الشهادات الثلاث وغيرها ترسخ المكانة الباذخة في العلم للإمام علي (ع) . والى ذلك ، ناقش ما جاء به الزركشي من استدراك يتيم لعائشة أخذته على الإمام علي (ع) ويتمحور حول " المسح على الخفين " فحين سأل شريح بن هاني عائشة عن المسح على الخفين ، أحالته الى الإمام علي (ع) فقال له : ((جعل رسول الله ثلاثة أيام ولياليهم للمسافر ويوما وليلة للمقيم))[٢] . وقد أبدى الأزهري استغرابه من تشكك الزركلي في إسناده الى الإمام علي مع انه ورد في مسند مسلم يؤكد أحالة عائشة لشريح الى الإمام علي (ع) ليشرك النسائي في هذا الجدل عن مسح الخفين ، مؤكدا أن الزركلي أثبت تناقضه الصارخ والفاضح في اتخاذ حديث مع جهله بمصدره . وبعد أن ثبت رجحان كفة الإمام علي (ع) على عائشة في استدراكها عليه ، يعود لتأكيد قدرة الإمام (ع) في مبحث أخر أسماه بـ " ماذا يعني تكليف الإمام علي بتأدية سورة براءة[٣] .

وفيه يستعرض عام الوفود الذي توشحت فيه مكة بفتح المسلمين لها ، الى جانب تأدية القبائل فروض الطاعة للدولة الجديدة . وفي هذه الأجواء نزلت سورة براءة / التوبة ، وقد أسهب الأزهري في الحديث عن معالم وموضوعات وأسماء هذه السورة

---

١ نقلا عن الازري : ص٥٤.

٢ المصدر نفسه : ص٥٥

٣ وهي أخر ما نزل على الرسول من السور الكريمة عقب غزوة تبوك اي بعد سنة من بدء الرسالة والوحي ، وكأن هذه السورة تمثل البيان الختامي للدعوة والرسالة وقد نزلت في وقت كان المسلمون يستعدون للخروج برسالة الاسلام خارج الجزيرة العربية والانفتاح بهذه الرسالة على العالم كله . ومن ذلك فأن توقيت نزول سورة التوبة كان في غاية الدقة والحكمة ، شدة أحكامها وشموليتها فقد اشتملت على ما يقرب من أربعة عشر اسم ، في حين ذكر الازهري أن عدد أسماء هذه السورة هو عشرة فقط .

العشرة ، مؤكدا أنها فضحت المنافقين وكشفت نفاقهم ، فضلا عن أنها مثلت حدا فاصلا بين المسلمين وبين المشركين وتحديد آلية العلاقة بينهم . ولعل من أهم ما التفتت إليه هذه الآية الكريمة ، هو تخليص شعيرة الحج مما علق بها من أدران مرحلة ما قبل ألإسلام ولا سيما الطواف والتعري حينها ، وعدم دخول الكعبة من كان مشركا . ومن ذلك ، واضح ان الأزهري كان يبتغي الكشف عن أهمية وخطورة هذه السورة المقدسة لأنها تضمنت موضوعات جريئة ضد المشركين مع تحديد المواثيق وما لها وما عليها وتحريم التعري حين الطواف أو حين دخول المسجد الحرام ، وكل ذلك كان من الممكن ان يثير ردة فعل قد تشكل عرقلة أو خلق حالة من الاضطراب يعتمدها المنافقون ، وصادف ان يكون الرسول منشغلا بأمور حالت دون تلاوتها أو تفسيرها للمسلمين . وفضلا عن ذلك ، فأن حركة الوفود كانت مستمرة مما أدى الى إشغال الرسول باستقبال تلك الوفود القادمة من مختلف أرجاء شبه جزيرة العرب ، وهذه الحركة واقعا كانت بمثابة الثورة المضادة لثورة محمد (ص) ضد المشركين وقد وصفها الأزهري بدولة الفسق مستهجنا أن تقوم الارستقراطية المكية حديثة العهد بالإسلام وبعد نصف قرن من الزمن أن تقوم بحكم دولة إسلامية على وفق أهوائهم وملذاتهم بقيادة معاوية بن ابي سفيان . وقد قيل له ((يا رسول الله لو بعث بها إلى أبي بكر ، فقال لا يؤدي عني إلا رجلا من أهل بيتي))[١] . وقد استدعى حينها عليا وأوكل له مهمة تلاوة وتوضيح ملامح وطبيعة وموضوعة هذه السورة ، ويخلص الأزهري الى القول بهذا الشأن:إن تكليف الإمام علي بتلاوة سورة براءة وما تضمنته من تبليغات ، يعد أمر خطير له دلالات لا تخفى على أللقن ولا تستبهم على الذكي ولا تغيب عن اللوذعي ولا تستتر على

١ الازهري : الا أمير المؤمنين .. ، ص٥٩ .

الفطن .[1] وفي هذا المستوى من التفاعل والتعاطِ بين الغث والسمين في مسؤولية المؤمن من عدمه ، وجّه الشيخ الأزهري نقده اللاذع لمجموعة من الطباليين والزماريين ممن أضفوا على التميمي وابنته عائشة هالات وأوصاف من مثل العلم الغزير الفياض ، من خلال قيادة بعض التابعين ومن جاء من بعدهم مثل الزركشي ومن تلاه[2] . وفي مبحث أخر وتحت عنوان " المصحف الإمام لا لمصحف عثمان " بدأ الشيخ الأزهري موضوعة بحثه هذا بتمهيد متسلسل لأحداث وضح فيها كيفية تكون مجموعة السقيفة ، منوها ببعض ما كان يشوب سيرة البعض من أعضاء السقيفة بالإبهام والغموض ، بل ويثير الجدل حول سلوكيتهم حين أكد أن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان كانوا قد تركوا أرض المعركة في وقعة أحد ، إلا انه أشار الى ان عثمان ، أستدرك هذا الخطأ وأسهم في تكاليف جيش العسرة . ووقف عند مساعي البعض ممن يسميهم بالصحابة وموقفهم من الإمام علي للحيلولة دون انتصاره على معاوية . فقد أكد أن الطبقة الجديدة من الطلقاء ولا سيما أولئك ممن دخل ألإسلام متأخرا ، الى جانب أصحاب الثروات الطائلة من أمثال عبد الرحمن بن عوف ، حيث كان يجمعهم هدف مشترك ، هو التخلص من الإمام علي (ع) . أما عائشة فالى جانب ذلك ، فقد راحت تندد بالإمام وكما رفعت قميص عثمان الملطخ بالدماء ، عاودت هذه الظاهرة فتسببت في مقتلة بين المسلمين . وإذا كان القول يقول : أذكروا محاسن موتاكم ، فأن الأزهري يحصر تلك الصفة بجمع عثمان للقرآن ، فضلا عن أن الأمويين راحوا ينسبون لأنفسهم المصحف الإمام ، فقالوا مصحف عثمان أو المصحف العثماني ، والخط

---

١ الازهري : الا أمير المؤمنين : ص٦٣ .

٢ المصدر نفسه : ص٧٠. ع

العثماني[١] . ووجد الأزهري أن أبناء الجماعة والسنة قد ابتلعوا هذا الطعم ولا يزالون على ذلك ، وينفي أي فكرة وضعها عثمان لكتابة المصحف الشريف ، بقدر ما كان له دور تنفيذي بوصفه الحاكم ، مؤكدا أن الفكرة لم تخطر له على بال ولم يلتفت اليها ، إنما تنبه لها غيره . ويبدو ان الشيخ لم يكن مقتنعا بما أورده عن كتابة عثمان او جمعه للقرآن ولم يكن مقتنعا بإعلانها ، بقدر ما يبتغي القول : بأن الإمام علي هو أول من شرع في جمع القرآن بعد انتقال المصطفى الى جوار ربه . وجاء جمعه للقرآن مرتبا بحسب نزوله أولا بأول . وهو ما رواه ابن ابي داود ، مرجحا أن ظروفا حالت دون إتمام الإمام علي لهذا المشروع ، على انه يؤكد أن الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان[٢] هو صاحب الاقتراح مبررا اقتراحه هذا بثمة علل ولا سيما في قراءات البعض له . فضلا عن ان هذا الصحابي شعر وهو في ساحة الميدان في ارمينية واذربيجان ، بالضرورة القصوى لتوحيد القراءة بعد ما حصل من تفاوت في تلك القراءات . وخوفا من حدوث تفاوت واختلاف كاختلاف اليهود والنصارى ، أقتنع عثمان بأن يحضر القرآن من عند حفصة لنسخه ومن ثم أعيد لها[٣] .

ويتواصل الأزهري في سرد روايات جمع القرآن ولكنه يبدي استغرابه من أن عثمان أغفل دور شيوخ القوم وعلمائه حين أمر بتشكيل اللجنة الثلاثية ، وهذا على ما يبدو ما أثار ثمة تساؤلات تفيد بعضها وتتساءل : لماذا شكل عثمان اللجنة من صغار الصحابة وترك شيوخهم من أمثال عبد الله بن مسعود وأبي موسى ؟ ثم

---

١ الازهري : إلا أمير المؤمنين ،س٧٢ .

٢ حذيفة بن اليمان العبسي الغطفاني القيسي، صحابي جليل ولد في مكة وعاش في المدينة المنورة ومات سنة ٣٦ هجرية في المدائن.

٣ الازهري : إلا أمير المؤمنين ، ص٧٢ .

لماذا وضع على رأس تلك اللجنة رجل من رهطة ، ثم أنه حصر مهمة الأنصارْي الصحابي الجليل بمهمة الكتابة فقط . وبعد هذا التوضيح وجدنا الأزهري وكأنه ينأى بنفسه عن إثارة هذا الموضوع ، ومع ذلك فهو يرمي الكرة بساحة القارئ الكريم ليستنتج أياً من الطرفين كان صائبا : فريق أراد تملك الدنيا حين اختلطت عليه الألوان ، فضعف لبابه وخفتت بصيرته ، أم الفريق الذي كان يضع الله وشريعته واستقامة دينه محط نظره ، ليكفي المرء مؤنه البحث في من يكون الفريق الأول ومن هو الثاني .

وعودا على بدء ، فقد جعل الأزهري من مصحف عثمان ومصحف الإمام علي ، وما أُثيرَ من جدل لما يزل قائما حتى أيامنا الحاضرة ، محورا للحديث ، فأورد عدد من الاراء المختلفة عن بعضها إزاء تلك الإشكالية ، وقد وجدنا من المفيد أن نقف عند مقتبسات من كتاب السيد الشهرستاني تتعلق بهذه الإشكالية وكما يلي :.

وكما قال جل من قال : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾

من المعروف أن غالب الدراسات الاستشراقية قد استندت إلى الرأي المشهور عند الجمهور والتي رويت في كتبهم الحديثية من قبل الحشوية لا الى الروايات الموجودة في كتب الشيعة الإمامية .

فالمستشرقين عموماً أشكلوا على ألإسلام من خلال وجود تلك الروايات في الصحاح والمسانيد، فإنّهم حين يتساءلون أو يشككون في بعض تلك النصوص والأقوال، إنّما مستندهم هو تلك الروايات الموجودة في كتب المسندين . فالمستشرق يعتمد أولاً في أقواله وآرائه على ما عند المسلمين، ثمّ يتبع بعد ذلك أسساً عقلية في محاكماته، فلو شاهد تناقضاً أو حصل له تساؤل فعلى العالم ألإسلامي الإجابة عن تلك الشبهات والأسئلة، وليس له أن يتركها من دون جواب أو يتعامل مع المستشرق كعدو في كل الحالات، فهناك بعض المستشرقين قد انتقدوا زملاءهم في

هجومهم على ألإسلام مثل توماس كارليل[١] في كتابه (الأبطال) والذي دافع فيه عن النبي محمد (ص)، ولين بول؛ كما أشار إليه كرد علي في (ألإسلام والحضارة الغربية) وغيرهما. وكما يقال أن خير وسيلة للدفاع هو الهجوم ، فمن الممكن التوجه إلى إشكالاتهم وتساؤلاتهم وعدم تركها من دون جواب، ثم السعي بعد ذلك إلى تنقية تراثنا منها، لأن من واجبنا الشرعي والأخلاقي عدم ترك النصوص عرضة لدعوى التضارب والتناقض.

ومع أن موضوعة (تاريخ القرآن) حاز عند الباحثين المسلمين الأهمية، فأن تلك الدراسات تكاد تخلو من المنهج النقدي المستقل ، بل أن المقدَّم في كتب الأعلام من الفريقين (السنة والشيعة) ما هو إلّا تكرارٌ للتراث التقليدي السائد في بحوث القرآن، ونقلٌ للمشهور المتناقَل على الألسن، فلا نرى دراسةً نقديّة شمولية تُسَلِّط الضّوء على النّقاط الغامضة والعالقة في ذلك، واعتقد ان مثل هذا الاهتمام لا بد وان ينسحب كذلك على المصنفات ألإسلامية ومن كلا الفريقين وتنقيتها من شوائب بقيت عالقة بها استنادا لهالة القداسة التي أحيطت بها تلك المصنفات حتى غدت وجبة دسمة يأخذ منها المستشرقين ما يبتغون منه تشويه صورة المسلم والمسلمين ، واعتقد ان تلك المصنفات حبلى بمثل تلك الترهات لحد الترهل ، لكن لا أحد يجرأ على التعرض لنقدها .

---

١ توماس كارليل Thomas Carlyle : (١٧٩٥ – ٥ فبراير ١٨٨١) كاتب إسكتلندي وناقد ساخر ومؤرخ. وكان لأعماله تأثير كبير بالعصر الفكتوري، وهو من عائلة كالفينية صارمة أملت أن يصبح واعظاً إلا أنه فقد إيمانه بالمسيحية أثناء دراسته بجامعة إدنبرة ومع ذلك بقيت القيم الكالفينية تلازمه طوال حياته. جعل تآلف المسحة الدينية مع فقدان الإيمان بالمسيحية التقليدية أعمال كارليل تبدو جذابة لعديد من الفكتوريين المناهضين للتغيرات السياسية والعلمية التي هددت حسبهم نظام الحياة الاجتماعي، ينظر كتابه " الابطال وعبادة البطولة ، ترجمة محمد السباعي ، بيروت ، ٢٠١٧ ، ص٧١ .

وقد وجد الشهرستاني ثمة أمور مهملة هي التي يُشكِل على القرآن من خلالها بما في ذلك سبب التّهويل لدور زيد بن ثابت في جمع القرآن على عهد رسول الله (ص) وعلى عهد الخلفاء الثّلاثة. فضلا عن إهمال معرفة أسباب ارتباط موضوع جمع القرآن بأمر الخلافة والإمامة لأهل البيت (ع) ، أثرَ منهج عثمان في جمع القرآن حين أشار الى ضرورة تصحيح كتاب الله رسماً وقراءةً! بدعوى «أنّ فيه لحناً. الى جانب ما أدعاه عثمان من أن كتابة المصحف يحتمل كلّ الوجوه في القراءة. والإصرار المتزايد على الالتزام بالخط العثماني الذي كتبت فيه المصاحف المرسلة إلى الأمصار، مع وجود الاختلاف فيما بينها ، بل والأخطر من كل ذلك دعوى جمع القرآن المعصوم بيد خليفةٍ غير معصوم، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ فمدرسة أهل البيت التي تقول بالعصمة للائمة الأطهار لها المخرج من ذلك . وما من شك أن أحدا من المعنيين لم يلاحظ إشكالية إغفال تكليف الإمام علي وابن مسعود، ومُعاذ بن جبل، وأُبيّ بن كعب..وتكليف غيره من الصحابة بكتابة القرآن

وبعيدا عن النظرة الطائفية لهذا الموضوع يرى السيد الشهرستاني ، أن البحث في هذا الموضوع يعد

بحث أساسي يصب في صلب الموضوع، ومن خلاله يمكن أن نزيح إشكالية قديمة تثار بين الحين والآخر ضد المسلمين الشيعة، مع أنّ أصول هذه الفكرة موجودة في تراثهم الروائي والتاريخي، فلو تصفحت كتاب (المصاحف) للسجستاني مثلاً لوقفت على نصوص تؤكّد أنّ الإمام عليّ بن أبي طالب (ع) قد تخلّف عن البيعة وجلس في بيته وقد آلى على نفسه أن لا يخرج منه إلّا بعد أن يجمع القرآن

كما أنّهم تناسَوا بيان دور الإمام علي وأولاده المعصومين (ع) في الحِفاظ على هذا المصْحَف وأن الموجود بين أيدينا هو مصحفه لا مصحف غيره، وأن الإمام أسند هذا المصحف ودعمه بالرغم مما قدّمه الخلفاء من أُسسٍ خاطئة في جمعه.وإذا كان

الإمام(ع) قد جلس في بيته لجمع القرآن، فهل هناك من مبرِّرٍ لجمع زيد بن ثابت القرآن تارةً أُخرى؟ . ويتساءل الشهرستاني عن أسباب سكوت أبو بكر عن جلوس الإمام في بيته وقَبِل بتعليله، ولم يطلب منه احترام قراره ؟! ولماذا قال بإيكال أمر جمع القرآن إلى زيد بن ثابت؟!أليس في جمع الإمام ما ينفي الغرض من جمع زيد مرةً أُخرى؟ وأيُّ الجمعَين كان هو الأقدم، جمع الإمام بعد وفاة رسول الله (ص) مباشرةً، أم جمع أبي بكرٍ بعد واقعة اليمامة؟ وليس من المنطق تجاوز وصيّة رسول الله (ص) للإمام عليّ بجمعه القرآن من خلف فراشه بعد وفاته (ص) ؟ ويتساءل الشهرستاني مرة أخرى بقوله :وإذا صحّ ما قالوه في جمع الشيخَين للقرآن، وكان أبو بكر هو أقرأ الناس بعد رسول الله (ص)، فلماذا لم يُقرَّر ما جمعوه في عهدهما ولم تُستنسَخ منه نُسَخ . أو يُعَمَّم . على الأمصار، ليكون قرآناً موحّداً للمسلمين ودستوراً للدولة؟ بل نرى عكس ذلك؛ حيث يبقى المصحف المجموع على عهدهما عملاً فرديّاً . وليس حكوميّاً . في بيت عمر عند حفصة ابنته، حتّى يأتي عثمان ويستنسخ منه نُسَخاً ثمّ يردّه إليها، ثم يأتي بعد ذلك مروان بن الحكم فيحرقه!؟ ولماذا يُرجِعه عثمان إلى حفصة ولا يحرقه . وهو الّذي أحرق مصاحف جميع الصحابة .، ثمّ يأتي مروان . بعد وفاة حفصة . ليحرق مصحفها وهو أجنبيٌّ عن القضية وليس بخليفة؟ بل لماذا لم يظهرا ما جمعه زيد بن ثابت في عهد الشيخين وأظهراه في عهد عثمان، هل انتظروا موت الصحابة كي يظهروه؟ وإذا كانت مدة خلافة أبي بكر غير كافيةٍ لجمع القرآن، ففترة خلافة عمر كانت تكفي لجمعه لا محالة . بل كيف أمكن لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (ع) أن يجمع القرآن المُنزَل على رسول الله (ص) في ثلاثة أيامٍ أو سبعة ، ولم يمكن ذلك لأبي بكر في أكثر من أربعة وعشرين شهراً، أو لعمَر في أكثر من عشرة أعوام؟!. والواقع أن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب كان قد جمع القرآن . وللمرّة الثانية . مع تفسيره وتأويله ومحكمه ومتشابهه وناسخه ومنسوخه وعامّه وخاصّه في ستّة

أشهر ، فكيف لا يمكن لأبي بكر أن يجمع القرآن المنزَل على رسول الله (ص) والمكتوب بيد الصحابة والمحفوظ عند كثير منهم في مدّةٍ هي أكثر من ضِعفَي مدّة الجمع الثاني من قِبل أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (ص)؟! وهل يمكن أن يُعدّ عمل الإمام عليّ(ع) الثاني وترتيبه للقرآن ترتيباً زمنيّاً وتاريخيّاً وعلميّاً وبحسب التنزيل . مع أشارته إلى الناسخ والمنسوخ في الآيات وتعيينه للمحكم والمتشابه والعامّ والخاص وشأن النزول . تحريفاً للقرآن؟ !!! أم أنّه قرآنٌ مع تفسيره وتأويله وليس غير ذلك؟ وقد شهد الآلوسي في (روح المعاني) قائلاً: «وقيل: كان جمعاً بصورةٍ أُخرى لغرضٍ آخر، ويؤيّده أنّه كتب فيه الناسخ والمنسوخ، فهو ككتاب علم.إذن، النسخة الثانية من المصحف الشريف لأمير المؤمنين هي كتاب علمٍ وتفسير حسب تعبير الآلوسي الذي سبقه ابن سيرين قديماً، بقوله: لو أُصيب ذلك الكتاب لوُجد فيه علمٌ كثير. وعليه، فالنسخة الثانية للمصحف عند الإمام هي ليست بقرآن ذكر وتلاوة حتّى يُتصوَّر فيها التحريف.

بل ماذا تعني مسألة عرض القرآن كلّ عامٍ بين جبرئيل الأمين والصادق الأمين؟ وما هو الهدف منه؟ ولماذا لا يوضّح معناه في الكتب وبقي مغفولاً عنه لمدّة قرون؟ بل مَن هو الجامع لهذا المصحف الموجود بأيدينا اليوم؟ هل هو عثمان بن عفّان، أو أنّ هذا المصحف هو نفسه المصحف المرتّب من قِبل رسول الله أيام حياته والموجود خلف فراشه(ص) والّذي جمعه ووحد شكله أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب بين الدفّتين؟ وهل حقّاً يصحّ ما قاله الأعداء عن الشيعة، من أنّهم ليس لهم سند صحيح إلى هذا القرآن؟ أم أنّ هذا المصحف المتلو اليوم صار مدوَّناً مكتوباً بفضل إمامهم أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، الذي علّم أبا الأسود الدوئلي القراءة والنحو، وأوصل القرآن ألمتلو بالقرآن المكتوب؟

في ضوء ما أسلفنا نستطيع القول: إنّ ما طُرح من آراءٍ وأسس في مسألة جمع القرآن من قِبل مدرسة الصحابة والخلافة، معظمها تسيء إلى ألإسلام وقادته، وقد

صار بعضها سبباً للقول بتحريف الكتاب العزيز من قِبل أعداء الدين، حتى تمسّك بها بعض المستشرقين في دراساتهم، وهذا ما يدعو الى التحصن وتوضيح بعض ملابسات تلك الآراء السقيمة والمقدّمات الخاطئة الّتي فشت وشاعت بين المسلمين وتسللت إلى كتبهم، وبتوجيه من الحكومتَين (الأموية والعبّاسية) ودورهما في تأسيسها

وأن تضارب تلك النصوص فيما بينها هي الّتي جعلت بعض الباحثين يشعرون بوجود التناقض والتضادّ بين الأُصول ألإسلامية قرآناً وسنة وأن بعضها لا تتّفق مع الآخر.

وعليه، فالقول بأنّ زيد بن ثابت وأعوانه هم الّذين جمعوا القرآن بشاهدَين يستلزم منه عدم تواتر القرآن، بل عدم صحة كلام الباري . والعياذ بالله . القائل: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ وحيث أنّ القرآن الّذي بين أيدينا . وإن اختلفت القراءات فيه . لا ريب في تواتره عن النبيّ (ص) تواتراً قطعيّاً، فيكون القول بأنّ زيداً هو جامع القرآن باطلاً من أساسه[١].

ويقينا ان الشيخ الأزهري بتطرقه لمثل تلك الموضوعات التي لكثر ما نئا المؤرخون والمعنيين بكتابة التاريخ ألإسلامي من الخوض بها ، ولاعتبارات متعددة، منها ما كانت طائفية ومذهبية وغيرها أثنية أو مناطقية ، او لأغراض سياسية بحته . وهذا اللغط والتفاوت في الرئاسات الثلاثة أثارت شكوكا عدة حول تلك الرئاسات ، بل حتى ليشعر المرء المنتمي للأئمة أنه يعيش في داخل امة ذات تاريخ ضبابي غير مفهوم ولا سيما مساره المتعرج ، وبالتالي فهو خاضع لظروف البيئة السياسية والاجتماعية لتلك الأمة . فالتاريخ سلاح يعتمده الطغاة لتمرير مشاريعهم وإكسابها

---

١ للمزيد عن هذا الموضوع يراجع : علي الشهرستاني : جمع القرآن ... نقد الوثائق وعرض الحقائق ، ج١، المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية ، العتبة العباسية ١٤٣٥هـ .

الشرعية أمام شعوب هي اقرب الى التخلف منها الى تمام التمدن ، ومن ذلك فقد شاعت وكثرت في روايات التاريخ العربي والإسلامي ، الحالات الرخوة والتي نعني بها الروايات غير الموضوعية التي لا تتلاءم ومسار الإنسانية ، نجد تاريخنا بمثابة تاريخ قادة وحكام مستبدين أكثر من انه تاريخ من صنع الجماهير ، بل ان المطالع لهذا التاريخ سوف لن يصادف ما يمكن ان ينتهي إليه التاريخ من انه عِبرة وانه مجال لتفعيل العقل البشري لئلا يعاود على ارتكاب ما ارتكبه أقرانه فيما مضى . وعليه فأن عدم جاذبية التاريخ ألإسلامي ، من خلال سلوكية أقطابه الكبار ، حال دون الالتصاق بهذا التاريخ ، وبالتالي ، فهو تاريخ أحادي كتب بقلم واحد وعين واحدة وأهواء متناحرة ، فأوجدوا لنا تاريخا مشوها لا يرتقي وما كان عليها العرب من حضارات راقية أدهشت العالم وجعلت دولهم منقادة لأمة العرب .

وأمام تطرق الشيخ الأزهري وبكل جرأة لسيرة رجل أخفت معظم المصادر التاريخية إخفاقاته وتجاوزاته ، وهو يتصد الى البوح بها وبين أسرارها ، لا لأنه يريد أن يخوض في التاريخ فحسب ، بقدر ما أراد أن يضيف لهذا التاريخ ما أعتوره من ثلمات وفراغات ، يكون بحق تاريخ أمة أنصفت نفسها واحترمت تواريخ الأمم الأخرى ، فخلقت لها تاريخا يشار إليه بالبنان في مرحلة إذا شاء الله أعادها .

لقد أعطى الله لبيئة المرء الأهمية القصوى في بلورة شخصية الفرد، سواء كان قائدا أو مقودا ((لا شك ان البيئة والأجواء العائلية التي ينشأ فيها الإنسان ، فأنها تلعب دورا مؤثرا في بناء شخصيته ، فالبيئة هي التي تغرس في نفسه قيمها وأفكارها ، بل وتنشئه على سلوكياتها وعاداتها))[١] .

---

١ حسن موسى الصفار : المرأة العظيمة ، قراءة في حياة السيدة زينب (ع) ، ط١ ، مؤسسة الانتشار العربي ، ط١ ، السنة ٢٠٠٠.

ويقف الأزهري عند مثال أخر لإثبات اثر البيئة في الشخصية حين أشار الى ما كان عليه عمرو بن العاص من قابلية قول الشعر ونظمه على أنه ممن حارب الإمام علي (ع) ووقف بالضد منه في كل ما كتب وقال من الشعر والخطابة ، وقد اقتبس نصا كشف فيه عن سلبية هذه الشخصية وعدم توائمها مع ما ذهبت إليه المصادر التاريخية الأخرى حين أعطته مزيات لا علاقة له بها مؤملا أن يعمد المعنيين بهذه الحقبة التاريخية ، أن يصححوا هذا المسار . وفضلا عن ذلك ، تطرق الازهري لما جاء في تاريخ اليعقوبي من خديعة التحكم التي حاكها معاوية ضد الإمام علي (ع) والتي شكلت منعطفا خطيرا هز وضعضع الدولة ألإسلامية وأسس للفِرقة بين مكوناتها حتى يومنا هذا . وقد أورد الأزهري المسرحية التي أعدها أبن العاص بكل مكر وخبث ، وانطلت على أعضاءها الذين أتموها وانتهوا الى ما أراد ابن العاص من خلع للإمام علي (ع) والتجاوز على حقه الشرعي ، وقد كوفئ ابن العاص من قبل معاوية بأن صار واليا على مصر . ومن الطريف ان الشيخ الأزهري حاول أن يترفع عن ذكر خطايا هذا الرجل وسفاهته ، بيد انه وللحظة يكرر أن لعنة التاريخ لا بد وأن تلحق العار بصاحبها ، فالشيخ الأزهري يعتبر معاوية رجلا لا يجب أن يتصدر أسمه كتب التاريخ ، وكأنه مقاتل همام وقائد ناجح ، وكذا الحال لعمرو بن العاص إذ أراد أن يضعه في مكانه الطبيعي من التاريخ ألإسلامي ، فعمد الى التطرق لمشاهد توضح فجاجة وفراغ شخصيته ، وللتدليل على ما ذهب إليه ، فقد عرج على ذكر البيئة التي عاش وترعرع فيها ، مشيرا إلى انه انتقل من بيت الى بيت وهو لم يبلغ الخامسة عشر من عمرة ، فرسم مسارا انتقاميا لكل من شهده وارتقى عليه وسما بشخصيته مع انه ذو أصل متدنٍ . وتعمد الشيخ أن يظهر حقيقة عائلته أولا وانعكاسها على شخصيته ، مؤكدا أن أمه أمَةً اشتراها من عبد الله بن جدعان الذي بدوره ابتاعها من شخص أخر ! وقد أسهب الأزهري في الكشف عن شراسة تلك المرأة التي ترعرع في كنفها عمر بن

العاص . وانسحب كلامه أيضا على والده (العاص بن وائل السهمي) الذي وصفه بالديوث لأنه كان يمتهن الدعارة كما هو الحال لعبد الله بن جدعان[١] . وأكثر من ذلك وصفه بأنه احد صناديد كفار قريش الذين تحدوا الرسول (ص) . وقد أراد الشيخ الأزهري بهذه الإطلالة السريعة بيان حقيقة عائلة ابن العاص وبالأخص أمه وأبيه وما كان يمتهناه من مهنة واطئة وحقيرة ، يريد أن يؤسس لحالة من عدم الاستغراب عند أي شخص حين يسمع شيئا يقال عن عمر بن العاص وأعماله المشينة[٢] .

ـ كتابه : قريش من القبيلة الى الدولة المركزية ...

فحوى هذا الكتاب هو تتبع المسار سواء الظاهر أو الباطن لمراحل تحول قبيلة قريش من القبيلة الى الدولة المركزية ، يساعدها في هذا التحول ما كانت عليه من أمكانية مالية ومعنوية بوصفها من أكابر مراكز التبادل التجاري وقتذاك ، الى جانب ما كان يربطها بدولتي الغساسنة والمناذرة الدولتان الفاعلتان في علاقاتهما مع دولتي فارس والساسانيين ، والتبادل التجاري معهما . وكل تلك المنافذ والقنوات أدت الى تدفق الأموال بكميات هائلة الى سادات قريش فأسست لبرجوازية مستبدة تبدى لها ضرورة التحول الاجتماعي في قبيلة قريش تساوقا وما صارت إليه من إمكانية اقتصادية وذات ثقل في عيون اكبر دولتين في العالم وقتذاك . وفي هذا الكتاب تتبع الأزهري أهم الظروف التاريخية وما شهده من أحداث رافقت مجمل تلك التحولات الاجتماعية التي حصلت عقب دخول ألإسلام لمجمل سكان هذه القبيلة ، وما أدى الى تغيير واضح في بنيوية هذه القبيلة .

---

١ الازهري : قريش من القبيلة الى الدولة المركزية ، ص٨١ .

٢ الازهري : قريش من القبيلة الى الدولة المركزية ، ص٨٢

وما يجب الالتفات إليه أن لا أحدا من شأنه أن ينكر أن حركة التاريخ وكتابته ولا سيما التاريخ ألإسلامي منه ، قد شهد كتابات تراوحت في موضوعيتها ورصانة وواقعية موجوداتها ، بين الغث وبين السمين ، مؤلفات شاء كتابها أن يشبعوه روايات تخضع للعواطف أكثر منها للعقلانية في التعاط مع مسيرة التاريخ ألإسلامي وواقعه وشخوصه وتأثير هؤلاء في مصائر الشعوب من عدمه . وكان من بين العشرات بل المئات من كتب التاريخ ألإسلامي ، يبرز هنا وهناك كاتب أو مؤرخ ، يعمد الى مفارقة المنهجية الدارجة التي ألفها في عهده لأنه أدرك وحسب فهمه لها عدم جدية صاحبها ، أو انه يعد تناولها قد أصبح تافها لا قيمة له لأنه لا يحاكي الحقيقة في التاريخ بقدر ما هو تكرار لموضوعات باتت روتينا دارجا لدى القارئ حين يروم او يتوجه لقراءة كتاب في التاريخ ألإسلامي . وبعبارة أدق ، أن هذا الكاتب الذي ننوه بعمله هنا ، اذا ما أراد مغادرة هذا المنهج الدارج والتعامل مع روايات التاريخ ألإسلامي تعاملا أشد صرامة من حيث محاكاة العلل والأسباب والبحث في دقائق وجزئيات الرواية التاريخية ، وعلى فرض أن ذلك بالتأكيد سينتج تاريخا غير خاضع للأهواء والخواطر ، بقدر ما سيكون خاضعا لمحاكاة العقل والتبصر ، وهو ما يبرره البعض ممن سلك هذا المسلك في كتابة التاريخ . ففي كتابه " الشخصية المحمدية ، اللغز المقدس للشاعر العراقي معروف عبد الغني الرصافي ، على سبيل المثال لا الحصر ، يقول : إن ما عمدت إليه من نقد لبعض الروايات التاريخية التي تتضمن جانب من السيرة النبوية الشريفة ، هو التأكيد على ضرورة أن نتعامل مع مسار السيرة النبوية والأحداث المؤسسة له على أساس العقل والتبصر بعيدا عن الانفعالية والنظرة العاطفية التي لا تتجاوز حدود أقامة المؤرخ ، وهنا سيقع المؤرخ في إشكالية الفصل بين المألوف واللامألوف من الروايات التاريخية ، ليبقى العقل والفكر هما من يحُكم سيرة النبي (ص) وأحداثها

المهيبة ، وهذا النمط من كتابة التاريخ ، بالتأكيد ما نحن بأمس الحاجة إليه لتقويم مسيرتنا عبر هذا التلاطم من الأحداث .

ولما كان الخوض في بعض موضوعات ألإسلام وشخوصه يعد خط أحمر بوصفه من موضوعات ألإسلام الهامة والخطيرة ، فقد كان هذا مانعا من ولوج بعض الموضوعات ، وبات لدى البعض ممن عني بدراسة التاريخ وكتابته ، أن هذه العقبة لا يمكن مغادرتها الا بتضحيات ، تصل الى حد التكفير وما يترتب عليه من آثار . وقد أنبرى هذا الكاتب أو ذاك ولم يتجاوز عددهم ، أصابع اليد لدراسة التاريخ ألإسلامي على وفق ما يريده هو لا ما يريده الشارع ، فحدث الأمر وحصلت التقاطعات في مسيرة التدوين ، ولا نريد الخوض في غمار ببليوغرافيا لهؤلاء ممن انصاع إلى رأيه وعقله أكثر من الانجرار وراء ما لقيه من منهجية ، أو السعي الى التبعية في الكتابة . فهناك أمثلة عديدة على مثل هذا التناول ، مع أن البعض منهم مال أكثر الى رفض المنهجية الدارجة في تناول السيرة والمغازي او سير الصحابة والتابعين وغير ذلك ، بل وامتعض من أصحابها ووصفهم بالببغاوات التي تردد ما يقوله الآخرون ، ولجأ الى ما يعتقده اعتماد العقلانية في محاكاة الوقائع التاريخية ، لدرجة انه في أكثر من موضع في كتاباته راح يتجاوز أمورا أعتدنا نحن عامة الناس أن نعدها مقدسة ، فُيسقط عنها الدلالات ويبقيها جوفاء فارغة تمهيدا لنقضها ، وهو يدعي تصويبها . وهذا اللون من الكتابة خلق من حالة اللاوعي عند البعض ممن عنوا بكتابة التاريخ من غير المسلمين ولا سيما المستشرقين منهم ، حالة من تصيد الثلمات ، الى درجة أنهم راحوا يتمادون في تناولهم لموضوعات يحرص المسلم أن لا يخوض فيها ، لا لقداستها فحسب بقدر ما أنها تثير إشكاليات أوسع وأعمق مما لو تركنا الحال على علاته .

وهذا المنهج يراه الأغلب الأعم من كتّاب التاريخ ألإسلامي ، أنه الأسلم والصواب تعويلا على سذاجة وتقبل المجتمع ألإسلامي لها ، وهو ما سيخلق حالة من تردي

الفكر وتعثره ، بل وسيضيف الى صعوبة إدراك فكرة التاريخ ألإسلامي ، صعوبة أخرى تُنتج لنا تاريخا منفِّرا بدلا من كونه أو لا بد أن يكون جاذبا ، لتكون العبرة منه غاية وليس بهدف، أما الاجتهاد والإتيان باستنتاجات وتحليل لواقعة في التاريخ ألإسلامي ، والوقوف على المسار غير المعلن لحركة التاريخ فقد بات خطيرا ، وله محاذيره لا سيما وان من وقائع التاريخ ألإسلامي ، ما قد وضع على مسألة تناولها خطوط حمراء وعلامات استفهام من تحريكها ، بل وتقديس لمسارها ، وصناعة لرموزها . وكل تلك الاستثناءات ، شاء المؤرخ أم لم يشأ ، فأنه سيستثني من مضمون تناولها الكثير من أدوات الربط التي من شأنها أن تفسر لنا الكثير من مبهمات الحوادث التاريخية ، وهذا على الأرجح بل المؤكد ما دفع بجماعة من المؤرخين والمعنيين بكتابة التاريخ ، أن يفارقوا هذا المنهج الذي عدوه أداة تفكيك لفكرة الواقعة التاريخية .

وهذه الفرشة من الحديث عن ألوان الكتابة في التاريخ ألإسلامي ، تفتح أمامنا صفحة من نشاط محموم لشيخ انفرد بنظرة إزاء كتابة التاريخ ألإسلامي ، فانتهج نهجا لا نقول انه مغاير تماما للآخرين ممن عنوا بكتابة التاريخ ألإسلامي ، بقدر ما رسم لنفسه مسارا ، لكثر ما أبتعد عنه الباحثين وممن لهم عناية بكتابة التاريخ ألإسلامي لأنه في تصورهم مجلبة للنحس وجالبة للنكد وجاذبة للنقد والوعيد . وهذا الشخص هو المؤرخ الشيخ الأزهري خليل عبد الكريم . وبالفعل فما أن انتهى من تأليف عدد من كتبه ، حتى تم عزله عن جوقة المؤرخين وممن عنوا بكتابة التاريخ ، إذ وجدوا أنه قد حاد عن الطريق وانساق وراء أهوائه التي أوصلته إلى تجاوز المقدسات .

وما دمنا بصدد الوقوف عند عناية الشيخ الأزهري بالتأريخ ألإسلامي ، فقد آثرنا الخوض في كتابه المعنون بـ " قريش من القبيلة الى الدولة المركزية " إذ وجدنا أنه

كان يروم من تأليفه هذا الكتاب ، ليكون سلسلة تتكامل وتتوائم مع ما ذهب إليه في مؤلفات أخرى له ، سنقف عندها إن شاء الله تعالى .

وفي كل ذلك ، وجدناه متمردا على المنهج الدارج في كتابة التاريخ ألإسلامي والذي وصفه بالأسلوب الفج الذي من شأنه أن يحجب العقل من ممارسة دوره في الكتابة ، وأنه يتيح للعواطف الفجة والأساطير والماورائيات ، أن تهيمن على عالم كتابة التاريخ ولا سيما منه ألإسلامي . وبالتالي فهي أشارة الى من يعنى بكتابة التاريخ العربي والإسلامي ، أن يدركوا أن إعادة كتابة التاريخ الإسلامي ، لا بد أن كتابة موضوعية : ناقدة وهادفة ، ليتسنى لنا الاطلاع بعد ذلك على أهداف التاريخ ، كتابة تُحّكم العقل فيها ولا تجعل للعواطف الجياشة أن تلعب دورها في تزييف التاريخ وتشويهه .

وقد وجدنا الشيخ الأزهري في مقدمة كتابه هذا ، يناقش إشكالية السقيفة ، إذ وجد حسبما يرى ضرورة الإحاطة بكلية تلك الواقعة التي شكلت بوجودها الإطار الذي راحت تصنع في فلكه وفي مخابئه كل الحوادث والتوجهات لتتدهور دولة ألإسلام كما فعلت وأصبحت بداية العهد الأموي ومن ثم العباسي وعهد التسلط الأجنبي (البويهي والسلجوقي) ، مرورا بواقعٍ متردٍ من أحداثٍ كان استمرارها ترسيخ لمآلات دول أخرى . وإذا ما وقفنا أمام ما عرف بسقيفة بني ساعدة سنجد أن هذه الإشكالية التي استهلكت قرونا من الزمن ولا تزال تتفاعل ، لا سيما في المجتمعات التي يرعاها الساسة المتقاطعين مذهبا وفكرا ، لا تعدو أن تكون أسبابها ولها جذور تاريخية تعود الى واقعة تلك السقيفة ، إذ تكمن في كيفية التنسيق والاقتناع بما كان سيحصل عليه المهاجرون من مساحة الرئاسة والإمرة لاعتبارات تتعلق بالعصبية القبلية ، وان المطالبة بتلك الرئاسة إنما هو ترسيخ لما يؤمنون به من الميراث القبلي ، مستثنين من تلك الصفقة ميزات الكفاءة أو مصلحة الرعية . وبذلك فأنهم . أي أصحاب السقيفة . شرعنوا لأنفسهم ما يأت على مقاساتهم ليصبح

ذلك العرف والتقليد بمثابة منهجا يبحث فيه أصحاب تلك الإشكالية أمكانية أنتاج تأريخي يكون موثقا ومقررا ما يبتغوه من محصلة لأحداث تاريخية ترتقي لأهدافهم . وعلى وحي هذا التناول لأهم الأحداث التاريخية التي شكلت بيانا للمسار غير المعلن لتاريخية تلك القبيلة ، فقد وقفنا عند محطات من محطات سيرة القبيلة المراد إعادة كتابة تاريخها . فكان من المحتم على الشيخ الأزهري أن يقف عند أحداث مختلفة التوجهات والرؤى ، بل إنه تعمد ان يبدأ كتابه ببيان العمق التاريخي للقبيلة عبر بيان عدة مضامين تتعلق بسيرة وتاريخية هذا الشيخ . فتحدث عن الجد الأعلى للرسول الأعظم أو ما يوصفه بالمؤسس الأول : قصي بن كلاب ، ومعه تدرجا صوب ما يمكن أن نصفه بالمسيرة التاريخية التي شهدت التناقض والتضارب بين مكونات قريش وغيرها ممن أكدت على ضرورة التنبه لأهمية أعادة وكتابة تاريخ قريش على وفق ما يستدعي هذا المتغير من أدوات . فتحدث عن هاشم وعن عبد المطلب لما لهم من علاقة بالقبيلة والرغبة في التحول الروتيني من لقب القبيلة الى لقب الدولة الذي يتناسب والتحول في بنيوية المجتمع حينذاك ، معولا على أن ما حصل من متغير سياسي واجتماعي جاء كضرورة لتلك الظروف وفضلا عن ذلك ، ولأنه كان مدركا لأهمية العوامل الدينية في المتغيرات التاريخية ، فقد وقف عند ما أشار إليه بالمقدمات التاريخية ، وكأنه يبتغي أن يتواصل في عرضه لموضوعات الكتاب على وفق منهجية متسلسلة تحافظ على وحدة الفكرة التاريخية . فتحدث عن حلف الفضول وأثره في ارتقاء الواقع المعنوي للمسلمين منوها بما برز من شعور بدنو حكومة تمثل قريش القبيلة بوصف هذا الحلف كان بمثابة النواة الحقيقية لقيام حكومة ملأ قريش ، فعرض لتلك الحكومة (الملأ ومفردات قيامها)[١].

---

١ الازهري : قريش من القبيلة الى الدولة المركزية ، بيروت ـ دار الانتشار ١٩٩٨، ص١٣٢

وبغية إعطاء القبيلة صفة التحول الى الدولة ، بما تميزت به من مميزات الدولة ، أشار الى تضمن مجتمع قريش على مختلف الديانات السماوية ومنها اليهودية والنصرانية ، مؤكدا أن التجارة ما بين قريش وبلاد الشام واليمن ، كان سببا رئيسيا في تواجد يهودي ونصراني في وسط المجتمع القرشي . وهو ما أشار إليه القرآن الحكيم برحلتي الشتاء والصيف ، وقد جال بنظره صوب تلك القبائل التي انتشرت فيها النصرانية ومنها قبيلة أياد ، وتميم ، وحنيفة . وهو بذلك يحاول أن يكسب ما ذهب إليه من قيام الدولة التي تلون الانتماء فيها وتعددت أديانها ومللها كما في الصابئة والحنيفية وغيرها[١] .

وفي موضوعة أخرى وقد عدها من الظروف الهامة والخطيرة في نشأة الدولة الجديدة ، هو ما كانت تمر به الدولتان الكبيرتان الفارسية والساسانية من تدهور في بنيتها السياسية والتقاتل على العرش وكثرة المؤامرات ، والفساد المستشري في تلك البلاد ، وهذا التوصيف ، يؤشر حالة من أفول الدول الكبرى ، بما كان يبعث بحالة ارتياح الى الدولة الفتية في شبه الجزيرة العربية ، وهو ما سهل قيام الدولة ألإسلامية من دون اي اعتراضات او تجاوزات لهاتين الدولتين على بروز الدولة ألإسلامية بأبهى صورها في مقابل التدهور وسوء الإدارة بمختلف ملفاتها في تلك الدولتين ، دلالة على الضعف والتدهور[٢] .

وتطرق الشيخ الأزهري الى عامل مهم في قيام الدولة ألإسلامية تمثل بالدور الكبير الذي قام به الأنصارْ في تثبيت كيان الدولة وقيامها ، مستعرضا أهم ما قاموا به من أدوار وما أسهموا به من فعاليات سواء على المستوى العسكري او الاجتماعي او الاقتصادي ، كانت جميعها عاملا رئيسيا في قيام الدولة ألإسلامية ونهوضها .

١ الازهري : قريش من القبيلة الى الدولة المركزية ، ص٢٤٠

٢ المصدر نفسه ، ص٢٤٠ .

وبذلك يكون الشيخ الأزهري قد أنهى كتابه هذا ببيان معالم الدولة ألإسلامية من خلال التعرف بدقة لبنيويتها التي تأسست بمقتضاها تلك الدولة ألإسلامية الفتية مؤشرا وموضحا أهم المقدمات بما فيها الاثنوغرافية والاقتصادية والدينية والسياسية لها .

وقد لاحظنا ونحن نتصفح وريقاته بروية وتأن ، أن فكرة هذا الكتاب تتمحور حول أهمية وتأثير قبيلة قريش الاقتصادية ،فأن الأزهري يخلص الى نتيجة تكمن في أهمية مركزها التجاري الهام إبان تلك الحقبة ، وعلاقتها مع دولتي الغساسنة والمناذرة الدول المتعاونة مع الروم والفرس أكبر دولتين في ذلك الوقت ، وعلى وفق ذلك ، كان لابد من تحول اجتماعي ، يتناسب مع تدفق الأموال من التجارة لسادات قريش . لذا ظهرت في الأفق فكرة دولة قوية تقودها قريش تتكون من القبائل العربية في المنطقة وقد كانت هذه الفكرة حلم يداعب أذهان سادة قريش ومنهم عبد المطلب جد الرسول (ص) . ويشير المؤلف الى ان الحتمية التاريخية هي التي فرضت ذلك لان قريش وقتها بدأت تتحول لمكانة ونفوذ ومال اكبر من مجرد كونها قبيلة كبيرة تتصدر مَنْ حولها من القبائل ، ساعدها على ذلك ان لهجتها كانت مفهومة للجميع وانها كانت مركزا تجاريا لباقي القبائل العربية . وهذا مما لا علاقة له بنفي كون ألإسلام دينا سماويا ولكنه دراسة لما أحيط بنشأته من ظروف تاريخية ودراسة للأسباب التي ساهمت في نشر هذا الدين السماوي إلى كل بقاع الأرض .

وما يجب الأشارة إليه ، ان قراءة الكتب المثيرة للجدل للكّتاب الذين لم يسلموا من الاتهام بالكفر والإلحاد أمثال خليل عبد الكريم و فرج فودة و نصر حامد ابو زيد ، على الرغم من سوقهم لكثير من الأشياء التي لا أجد تقبلا كثيرا لها ، باستثناء ما كانوا عليه من أسلوب كتابة وتناول ممنهج يجذب القارئ لمتابعة مفردات الكتاب ، وهذه بالتأكيد من المزايا الحسنة في منهجية الكاتب .

وان لم أكن مخطئا ، أرى أن هذا الكتاب "مجتمع يثرب" يقرأ الأحداث والوقائع التى عاهدت الصحابة من زاوية أخرى ، قد لا تتفق ورؤية البعض ممن عني بهذه الموضوعات . فعلى سبيل المثال وجدنا الأزهري وقد اعتمد على بعض الأحداث التي لا متفحص لها ، بل أنها مختلقة أكثر من صحة وجودها . ويبدو انه أراد ان يقدم فكرة معينة وهى رفع القداسة عن الصحابة . على أن أقناع القراء بان الصحابة بشر قد يكونوا قد اخطئوا ، وهو أمر مسلم به لا يختلف عليه اثنان ، وهو ما يعطي الحق بان ننتقد ما اقترفوه من خطأ لربما ترتب عليه مخرجات آلت إلى هدمٍ مبرمجٍ لأجزاء من هرم الأمة ألإسلامية وصرحها . وهنا يحق للشيخ الأزهري ان يتساءل : فإذا أسلمنا جدلاً ان هذا النهج هو ما يجب إتباعه مع الصحابة رضوان الله عليهم فما بالكم ببعض ممن رفعهم الناس اليوم لقدسية تشفع عنهم أخطائهم و تمنع أي شخص من انتقادهم؟ !! . وقد وجدنا الأزهري ومع وقوفه أمام تلك الإشكاليات في تاريخ ألإسلام والموقف من رموزه ومن الصحابة حين يصل هذا الموقف الى حد التقديس ، فانه اعتمد المنظار الذي سيعتمده كل كاتب ، رغبة في بيان سلوك الفرد ومدى تبنيه الأسس الصحيحة في التعامل مع من وضح في كتاباته ومنشوراته ، نظرته لذاك المجتمع المثير للجدل هو الأجمل ، فهو منظار عقلاني يجدر تصنيفة واعتماده كمبدأ لقناعات كثيرة ، أولها التأثير على الصورة النمطية لما صنعته الأمة من صنمية الرموز ، ومع ان طرحه كان مفيدا وجيدا لوضوحه ولتعامله الصريح مع الأشياء ، إلا ان حالة التكرار والابتذال المتكرر لبعض المصطلحات قلل من قيمة النص وأهميته .

والى ذلك ، يقف الشيخ خليل عبد الكريم الأزهري عند دراسةٍ تعبر عن رؤية جديدة غير مسبوقة حول فترة أغفل الحديث عنها، أو هي مرت مروراً عابراً في بعض السير، أو انه دار حولها مزاعم من قبل المستشرقين، وهي تلك السنوات الممتدة منذ زواج محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالسيدة خديجة حتى واقعة غار حراء

تلك السنوات التي ظلت متوارية في الظل بخلاف ما سبقها من قطاعات السيرة وما لحقها، رغم انها من أهم وأخطر مراحلها. وقد التزم المؤلف في دراسته بالمنهج التاريخي، ومن خلال ذلك قام بتفنيد كل المزاعم الباطلة التي ساقها المستشرقون وغيرهم في هذا السياق من مثل ان محمداً صلى الله عليه وآله وسلم تعلم القرآن من حداد بمكة يسمى بلعام وفي رواية من عَبْدَيْن صقليين أحدهما يسمى يسار والآخر جبر وثلاثتهم من النصارى، هذه وغيرها من المزاعم أو الترّاهات يقدمها هؤلاء كتعليل لصدوره–أي القرآن الكريم–منه صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد قام المؤلف بتفنيدها جميعاً وكشف زيفها ورفع الحجاب عن فسادها. وفي تلك المرحلة ما بين حقبة الزواج وحتى واقعة غار حراء والتي كانت متوارية بالظل ، بحيث ان القارئ للسيرة المحمدية العطرة ، سيشهد التحول في شخصية الرسول من فتى هاشمي الى صاحب رسالة ومبشر بديانة نافست الديانتين السماويتين . ومما لا شك فيه ان الوقوف على مثل تلك الروايات التي تتحدث عن سنوات لم يكشف عنها النقاب إلا لمما ، قد استنفذ من المؤلف سنوات عدة وتفرغ شبه تام لتنقيب في الدواوين المتعلقة بالسيرة المحمدية الزكية ، بما كان يستدعي جملة مصادر ووثائق لتأكيد هذا الحدث الجلل .

ومما ننكر ان حركة التاريخ وكتابته ولا سيما التاريخ ألإسلامي منه ، قد شهد محاولات تراوحت في موضوعيتها ورصانة وواقعية موجوداتها ، بين الغث وبين السمين وبين العبث والمعقول، مؤلفات شاء كتابها ان يشبعوه روايات تخضع للعواطف أكثر منها للعقلانية في التعاطي مع مسيرة التاريخ ألإسلامي وواقعه وشخوصه وتأثير هؤلاء في مصائر الشعوب من عدمه . وكان من بين العشرات بل المئات من كتب التاريخ ألإسلامي ، يبرز هنا وهناك كاتب أو مؤرخ يفارق المنهجية الدارجة التي ألفها في عهده ، لأنه أدرك عدم جدية صاحبها ، أو انه يعد تناولها قد أصبح تافها لا قيمة له لأنه لا يحاكي الحقيقة في التاريخ بقدر ما هو ،

تكرار ونسخ لموضوعات باتت روتينا دارجا لدى القارئ حين يروم أو يتوجه لقراءة كتاب في التاريخ ألإسلامي ، وبعبارة أدق ، إن هذا الكاتب أراد كما نوهنا بذلك ، مغادرة المنهج الدارج والتعامل مع روايات التاريخ ألإسلامي تعاملا أشد صرامة من حيث محاكاة العلل والأسباب والبحث في دقائق ومحاكمة جزئيات الرواية التاريخية ، لان ذلك بالتأكيد سينتج تاريخا غير خاضع للأهواء والخواطر ، بقدر ما سيكون خاضعا لمحاكاة العقل والتبصر . ولما كان الخوض في بعض موضوعات ألإسلام وشخوصه يعد خط أحمر ، فقد كان هذا مانعا من ولوج بعض الموضوعات ، وبات لدى البعض ممن عني بدراسة التاريخ وكتابته ، ان هذه العقبة لا يمكن مغادرتها إلا بتضحيات ، تصل إلى حد تحمل توجيه تهمة التكفير إليه وما يترتب على ذلك من آثار .

وفي هذا السياق ، انبرى هذا الكاتب أو ذاك ولم يتجاوز عددهم ، أصابع اليد لدراسة التاريخ ألإسلامي على وفق ما يريده هو ويبتغي تقديم مادته التاريخية ، لا كما يريده الشارع ويبتغيه ، فحدث الأمر وحصلت التقاطعات في سيرة التدوين ، ولا نريد الخوض في غمار ببليوغرافيا لهؤلاء ممن انصاع الى رأيه وعقله أكثر من الانزياح وراء ما لقيه من منهجية ، أو السعي الى التبعية في الكتابة . فهناك أمثلة عديدة على مثل هذا التناول ، مع ان البعض منهم مال أكثر الى رفض المنهجية الدارجة في تناول السيرة والمغازي او سير الصحابة والتابعين وغير ذلك ، بل وامتعض من أصحابها ووصفهم بالببغاوات التي تردد ما يقوله الآخرون ، ولجأ الى ما يعتقده اعتماد العقلانية في محاكاة الوقائع التاريخية ، لدرجة انه في اكثر من موضع في كتاباته راح يتجاوز أمورا أعتدنا نحن عامة الناس ان نعدها مقدسة ، فيسقط منها تلك الدلالات ويبقيها جوفاء فارغة تمهيدا لنقضها ، وهو يدعي تصويبها . وهذا اللون من الكتابة خلق من حالة اللاوعي عند البعض ممن عنوا بكتابة التاريخ من غير المسلمين ولا سيما المستشرقين منهم ، حالة من تصيد

الثلمات ، الى درجة انهم راحوا يتمادون في تناولهم لموضوعات يحرص المسلم ان لا يخوض فيها ، لا لقداستها فحسب بقدر ما أنها تثير إشكاليات أوسع وأعمق مما لو تركنا الحال على علاته[١] .

وهذا المنهج يراه الأغلب الأعم من كتّاب التاريخ ألإسلامي ، انه الأسلم والاصوب تعويلا على سذاجة وتقبل المجتمع ألإسلامي له ، وهو ما سيخلق حالة من تردي الفكر وتعثره ، بل وسيضيف الى صعوبة إدراك فكرة التاريخ ألإسلامي ، صعوبة أخرى تنتج لنا تاريخا منفِّرا بدلا من كونه أو لا بد ان يكون جاذبا ، لتكون العبرة منه غاية وليس بهدف، أما الاجتهاد والإتيان باستنتاجات وتحليل لواقعة في التاريخ ألإسلامي ، والوقوف على المسار غير المعلن لحركة التاريخ فقد بات خطيرا ، وله محاذيره لا سيما وان من وقائع التاريخ ألإسلامي ، قد وضعت فيه خطوط حمراء وعلامات استفهام من تحريكها ، بل وتقديس لمسارها ، وصناعة لرموزها . وكل تلك الاستثناءات ، شاء المؤرخ أم لم يشأ ، فإنها ستستثني من مضمون

١ إطلاقا لا ننتقد الكتابات الاستشراقية ، بل انها تعد الممول الرئيس للكثير ممن يكتب عن التاريخ الاسلامي وبأدق جزئياته . ومع ذلك لا ننكر إن الدوائر الاستعمارية قد استفادت كثيرا من تلك الكتابات في اعتمادها مسارا أوصلها الى استعمار البلدان العربية والاسلامية ، كما هو الحال فيما كتبه المستشرق سنوك هرخرونيه (١٨٥٧- ١٩٣٦) وهو مستشرق هولندي معروف حصل على الدكتوراه في الفيلولوجيا السامية عام ١٨٧٩ برسالة عنوانها: "موسم الحج في مكة" وفي عام ١٨٨٤ قام برحلته المشهورة إلى الجزيرة العربية ووصل إلى مكة عام ١٨٨٥ تحت اسم مستعار هو "عبد الغفار" وأقام هناك ستة أشهر كتب بعدها كتابه عن مدينة مكة. وابتداءً من ١٨٨٩ عمل في خدمة إدارة المستعمرات الهولندية في إندونيسيا حيث تعرّف على الإسلام والمسلمين أكثر. وفي عامي ١٩١٤/١٩١٥ ألقى "محاضرات عن الإسلام" في أميركا عرض فيها نشأة الإسلام والتطور الديني، والتطور السياسي للإسلام، وكذلك الإسلام والفكر الحديث.

تناولها الكثير من أدوات الربط التي من شانها ان تفسر لنا الكثير من مبهمات الحوادث التاريخية ، وهذا على الأرجح بل المؤكد ما دفع بجماعة من المؤرخين والمعنيين بكتابة التاريخ ، أن يفارقوا هذا المنهج الذي عدوه أداة تفكيك لفكرة الواقعة التاريخية.

وهذه الفرشة من الحديث عن ألوان الكتابة في التاريخ ألإسلامي ، تفتح أمامنا صفحة من نشاط محموم لشيخ انفرد كما هو الحال لقلة قليلة بنظرة ازاء كتابة التاريخ ألإسلامي ، فانتهج نهجا لا نقول انه مغاير تماما للآخرين ممن عنوا بكتابة التاريخ ألإسلامي ، بقدر ما رسم لنفسه مسارا ، لكثر ما أبتعد عنه الباحثين وممن لهم عناية بكتابة التاريخ ألإسلامي لأنه في تصورهم مجلبة للنحس وجالبة للنكد وجاذبة للنقد والوعيد . وهذا الشخص هو المؤرخ الشيخ الأزهري خليل عبد الكريم . وبالفعل فما ان انتهى من تأليف عدد من كتبه ، حتى تم عزلة عن جوقة المؤرخين وممن عنوا بكتابة التاريخ ، إذ وجدوا انه قد حاد عن الطريق وانساق وراء أهوائه التي أوصلته إلى تجاوز المقدسات .

وما دمنا بصدد هذا السياق من تناول الشيخ الأزهري للتأريخ ألإسلامي ، ففي كتابه المعنون بـ ((قريش من القبيلة الى الدولة المركزية)) وجدنا انه وكما في كتبه سواء السابقة لهذا الكتاب أو اللاحقة له ، وجدناه متمردا على المنهج الدارج في كتابة التاريخ ألإسلامي والذي وصفه بالأسلوب الذي من شانه ان يحجب العقل في ان يمارس دوره في الكتابة ، وانه يتيح للعواطف الفجة والأساطير والماورائيات ، ان تهيمن على عالم كتابة التاريخ ولا سيما منه ألإسلامي . وهو بالتالي أشارة الى من يعنى بكتابة التاريخ العربي والإسلامي ان يعمدوا الى إعادة كتابة التاريخ كتابة موضوعية : ناقدة وهادفة ، ليتسنى لنا الاطلاع على أهداف التاريخ ، كتابة موضوعية تُحّكم العقل فيها ولا تجعل للعواطف الجياشة ان تلعب دورها في تزييف التاريخ وتشويهه .

وفي مقدمة كتابه ناقش إشكالية مسألة ((السقيفة)) إذ وجد حسبما يرى ضرورة الإحاطة بكلية تلك الواقعة التي شكلت بوجودها الإطار الذي راحت تُصنع في فلكه وفي مخابئه كل الحوادث والتوجهات لتتدهور دولة ألإسلام كما فعلت وغدت في مطلع العهد الأموي ومن ثم العباسي وعهد التسلط الأجنبي (البويهي والسلجوقي) ، مرورا بواقعٍ متردٍ من أحداثٍ اسلامويةٍ ، شاعت الأقلام ان تنتهج نهجا غير محايد في التعامل مع مفردات الكثير من التاريخ ألإسلامي حتى بات عرفا لا يمكن التفاوض عليه ، إذ أن ذلك سيكون بمثابة مزايدة على ثوابت ألإسلام المقدسة . وهكذا كان وشاء ان يكون حتى حين ، عندما انبثقت هنا وهناك مبادرات كتابية لتصحيح او على الاقل لتدقيق جزئيات هذه الكتابات ، فكان لكل شيء ثمن .

وقد أختزل الأزهري في مقدمة كتابه هذا الدراما التي حصلت بين الصحابة وما دار من حديث وشد وحل وتأزم بشان مبايعة ابا بكر من دون رضى الإمام علي (ع) ، فالاول يرى في ان قريشا هي الأَولى في الخلافة في حين يرى الثاني انه يمثل امتدادا للرسول وهو من أهل بيته ، في حين نرى ان ابن الخطاب عمر راح أبعد من ذلك حين بادر بمبايعة أبو عبيدة ابن الجراح فور سماعه خبر وفاة الرسول الاعظم (ص) وكذلك ابو بكر الصديق بوصفه من قريش .

وفي شطر أخر من المقدمة وقف الأزهري عند (جمع القرآن) الذي بدأ في عهد الخليفة الاول وانتهى في عهد إمارة مروان بن الحكم على المدينة المنورة . ومن خلال قراءة سطور تلك المقدمة حري لكل قارئ ان يتحسس محاولة الأزهري لبيان التكالب القرشي على الاستحواذ على كل مقدرات الدولة الفتية الفكرية والعينية . ففي استعراضه لسيرة الصحابي الجليل زيد بن ثابت وجهوده الحثيثة في حفظ القرآن الكريم وبما كانت له من مكانة عليا لدى الرسول الأعظم ، فان الأزهري أكد انه ليس بالمقدم على آخرين اقل منه عطاء من أمثال عبد الله بن مسعود وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن الزبير وغيرهما ، لا لشيء سوى أنهم من قريش .

ومع ذلك ، فقد راح شيخنا الأزهري بهمة واضحة للتعريف بأهم الصحابة لا سيما أولئك ممن كان لهم خط ومسار مع الرسول الأعظم (ص) . وعلى الرغم من هذا التنويه ، فانه أثار إشكالية أخرى تتعلق بتوجه عمر بن الخطاب ومن كان يروم التصدي لموضوعة كتابة القرآن ، إذ اشترط ان يكون من قريش وليس من أي نسب آخر[١] . وهذا أيضا كان مانعا من ان يتصدى زيد بن ثابت لأي مسألة تتعلق بالدولة ، لأنه غير قرشي . وقد أسهب الأزهري في التعريف بشخصية زيد بن ثابت ، وبيان مميزاته مؤكدا ان تلك الامتيازات لم تشفع لتضعه في مقدمة المبادرين لأي فعالية . ثم طرح الأزهري تساؤلا مفاده : " ما دام القرآن نزل بلغة العرب ، فلماذا هذا التعنت إلا أن يكتب بلغة قريش ؟! وقد أجاب على تساؤله هذا بالقول : ان عمر بن الخطاب أنكر على عبد الله بن مسعود قراءة القرآن بلهجة أل هذيل مع وجود الرخصة التي حملها الحديث الشريف (ان هذا القرآن انزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منه) وكان ابن الخطاب أحد رواة هذا الحديث ، وقد أمر بحزم ، بضرورة القراءة بلغة قريش حصرا ، حتى لا يكون لها أي منافس ، لا هذيل ولا غيرها ، وليزداد الناس التفافا حولها ، وهذا منزع سياسي لحما ودما)[٢] . وقد اسهب الأزهري في مناقشة وتفنيد هذا الرأي الذي يحصر قراءة القرآن الكريم بلغة قريش مستندا في ذلك على ما أورده ابو بكر السيوطي في كتابه "الإرشاد في القراءات العشر" وكذا الحال فيما ذهب إليه الإمام الواسطي . ويمضي الأزهري في بيان ملامح العدل التي كان عليها الخليفة عمر بن الخطاب ، ويستطرد في سوق الأمثلة على عدله حتى يصل الى قضية خطيرة حين أشكل على الخليفة عدم عدله في اختيار من يخلفه حين رشح ستة أفراد من قريش ومن ضمنهم من لم يرتضيه

---

١ قريش من القبيلة : ص١٥

٢ المصدر نفسه : ص١٧

الرسول ، مستبعدا كل من كان للرسول معه مودة ومحبة وأواصر وثيقة ، بل وأخطر من كل ذلك ، يجد الأزهري ان عمر هو من أسس الى قتل المعارضين للسلطة حين أكد لجماعته قبيل وفاته : يجب ان يأمر بشدخ رأس من لا يوافق على ما يستقر عليه رأي الباقين . مؤكدا ان هذه المقولة لعمر هي التي جذّرت سُنة قتل المعارضين لرأي الباقين ولا تزال سارية المفعول في البلدان ألإسلامية . وفضلا عن ذلك ، فالأزهري ينتقد ايضا أشد الانتقاد إخضاع رأي الأغلبية لستة أفراد من قريش وينحي جانبا حكماء وفقهاء وشيوخ من الأنصارْ لأنهم ليسوا من قريش . ويرى ان في ذلك تأسيس أخر لباب التمزيق للأمة ألإسلامية حين صادر رأي الأغلبية في اختيار خليفتهم وحصرها بمن أصله من قريش حصرا[١] . ولم يكتف الأزهري بهذه الأشارة لتصدع المجتمع ألإسلامي ، بل انه وجد ان اختيار عثمان للخلافة كان بمثابة فاتحة عهد لما عرف في التاريخ ألإسلامي بـ(الفتنة الكبرى) التي أوجدت بالأمة ألإسلامية صدعا ما زالت آثاره حية وفاعلة حتى يومنا هذا[٢] . وقد استعرض أهم المواجهات بين الطرفين حزب التجار من عثمان ومعاوية وغيرهم وبين حزب المستضعفين بقيادة الإمام علي ، ويستمر في هذا النهج المؤسس على بيان جل المواجهات بين هذين الطرفين مرورا بالدولة الأموية وما ورثته الدولة العباسية من تلك الحروب بين هذين الطرفين حين مثلت الخلافة ورئاسة الدولة الهم الأكبر وليس الدين والدولة . وقد انتهى الأزهري في إطلالته تلك عن تأسيس الدولة ألإسلامية الى القول :" ان هذا الكتاب الذي نقدمه بين يدي القارئ ، هو تبيان لإرهاصات قيام دولة قريش [وليس دولة ألإسلام] ولما تحققت

---

١ قريش : ص٢١

٢ المصدر نفسه : ص٢٢

لها الشروط قامت في يثرب ، على يد حفيده محمد بن عبد الله بن عبد المطلب (ص)[١] .

وفي باب كتابه الأول المعنون بـ (المؤسسات الذاتية) يسرد لنا ترجمة مركزة ومفيدة للجد السابع للرسول محمد (ص) وهو قصي الجد . ومن يتابع كلمات تلك اللوحة التي رسمها الشيخ الأزهري لسيرة قصي الجد ، سيتلمس ان هناك علاقة تكاملية بين ما كان يمهد الجد الطريق وبين ما قام به الحفيد لقيام دولته المنشودة ، وهي دولة قريش . واذا دققنا في هذا المشهد فمن غير الممكن ان لا نقف عند إشكاليات ومفارقات ، لا نعلم كيف تسنى لكاتب تلك المسيرة ان لا يتحسسها أو يقف عند أحداثها ؟! .

بداية تصدى الأزهري الى الحديث عن آلية وصول قصي الى تلك المكانة العلية بين اقوام الجزيرة العربية حتى استقر الامر بتمامه له بعد حروب مريرة وصراعات راح ضحيتها العشرات بل المئات والى ذلك استمر الأزهري في الوقوف عند محطات استلام قصي المناصب والمجالس بالتتابع حتى امتلك دار الندوة والسقاية والحجابة والرفادة واللواء ، بل وحاز شرف مكة جميعا . ثم بنى دار الندوة وهي بمثابة المؤسسة الرئيسة للدولة حيث يجتمع الناس ممن له مسألة او طلب عند صاحب الندوة ليقرر شكل الرأي الذي يراه الحاكم . وهو قصي . ليكون بذلك قد أسس لتثبيت جذوره التاريخية وأعطى لنفسه الحق بالتشريع والتنفيذ . وأسهب الأزهري في توصيف القوة المتنامية لقبيلة قريش منوها بمكانتها الاقتصادية ومركزها الدين الهام ، لدرجة ان الدول القائمة وقتذاك كانت تدفع ضريبة (جعالة)[٢] لقبيلة قريش حين مرورها بتلك القبيلة وإلا يكون نهب القافلة أمر منتهٍ منه . وهكذا

---

١ قريش : ص٣٥ .

٢ الجَعَالَةُ : ما يُجْعلُ على العمل من أَجرٍ أَو رِشْوَةٍ

اصبحت قريش ما يشار اليها بالبنان من الناحية الاقتصادية والسياسية والاعتبارية . وفي حياة الرسول (ص) وما صار إليه من ظاهرة مقدسة ومسدد الخطى من الله تعالى ، يكون قد بنا دولته[١] .

وهنا يقف الأزهري مؤكدا ان قيام محمد لدولته ، يعد تنفيذا وتوظيفا لرؤى وتوجهات جده الأعلى قصي ، في الوقت الذي نعلم ان دولة ألإسلام ما قامت إلا وفق معايير ربانية معلومة ورؤى منزهة تسمو فوق مستوى البشر ! . بل نرى من السذاجة بمكان ان نفكر بأي مقاربة بين الدولتين المزعومة دولة قريش ، وبين دولة ألإسلام ! . ولو افترضنا جدلا ان ما يذهب إليه الأزهري من القول والتأكيد على ان ما عمد إليه محمد (ص) من إقامة دولته ، إنما هو عملية استكمال لما بداه جده قصي من قبل ، مرورا بجده هاشم الذي نوه الأزهري بالكثير من حسناته وإصلاحاته الاجتماعية التي أسهمت إلى حد بعيد في وجود أسس دولة رشيدة ، أسهم من بعده في إتمام تلك الإصلاحات الاجتماعية ، ابنه عبد المطلب لتكتمل أسس تلك الدولة على يد الرسول الأعظم (ص) . وما ان أستقر الأمر له (ص) وبات المشرع الأعلى للدولة استعانة بقدرة بارئه ، حتى عمد الى تغيير شامل لبنيوية الدولة القرشية (المزعومة) . بدأ بالداخل فأجرى عليه فلترة بطيئة لتخليص هذا المجتمع من كل ما علق به من شوائب ومن عادات وتقاليد لا ترقى سوى لمن يعيش حياة الجاهلية المقيته . فقد حّرم شرب الخمر والميسر ووأد البنات وأخذ الربا والامتناع عن أكل ما حرم الله ، وحرم قتل النفس البريئة ، وألزم ترسيخ الأخلاق واحترام الأخر وعدم التجاوز على الدول الأخرى واحترام الديانات والمعتقدات وتخصيص عطاءات للفقراء والمعوزين وغير ذلك من فعل الخير وخدمة الناس . والى ذلك ، تطرق الأزهري لموضوعة أخرى من موضوعات بناء الدولة من قبل

---

١ المصدر قريش القبيلة .....: ص٥٧

الرسول (ص) . فتحدث عن زواجه السياسي الذي ربط فيه قبيلة قريش بقبائل وعوائل أخرى[١] .

وتحدث عن ملامح الحكم الذي هيأ له عبد المطلب من خلال قراءة مركزة في سيرته ، منوها إلى الأفكار التي استقاها . كما يدعي الأزهري . من الامبراطورية الرومانية بحكم علاقته الطيبة بقادتها ، مؤكدا ان عبد المطلب لم يأخذ النظرية البيزنطية بحذافيرها ولكنه استخلص منها جوهرها وهو فاعلية الدين في ترسيخ الحكم إذا رفع شعاره ، وتثبيت أعمدة الدولة إذا تسربلت بردائه . ويستطرد الأزهري في بيان ملامح القداسة والأفضلية في شخصية عبد المطلب التي كان لاختلاطه بالساسة الرومان أثر في مقدرته الجمع بين الدين والحكم ، حتى سمي بـ " سادن الكعبة " و "سيد البطحاء" ، بل وذهب ابعد من ذلك حين ذكر ان عبد المطلب يعد أول من عمد الى تزيين باب الكعبة بالذهب من ماله الخاص . وأشار بعد ذلك وإتماما لسيرته الى الحديث عن مظاهر تأله . عبادته . مؤكدا انها كثيرة ومنها اعتكافه في غار حراء أيام رمضان وإطعام المساكين والفقراء . وانه أول من حرّم الخمر في الجاهلية وغير ذلك الكثير من مظاهر الإصلاح الاجتماعي والفكري . وأشار إلى آلية حفره بئر زمزم ، وكيفية اكتسابه للقداسة والرمزية طوال سني حياته . وتحدث عن حياة عبد المطلب الاجتماعية وبنائه لعائلة كريمة ذات أصول شريفة[٢] .

وساق لنا الأزهري العديد من الروايات التاريخية التي تشير او تنوه بدنو النبوة من عبد الطلب او من ذريته مستعرضا محادثات ولقاءات بين عبد المطلب وبعض العرافين الآخرين ممن أشار إلى أن النبوة لا تخرج إلا من صلبه . ووجد الأزهري

---

١ قريش :ص٦١ .

٢ المصدر نفسه : ص٧١ .

إن الإعلان عن تلك النبوءة وبالأخص من قبل سيف بن ذي يزن ، قد أضاف إلى قبيلة قريش شيء من القداسة والمكانة السامية بين القبائل العربية . وأكد الأزهري على استمرار العلاقة بين عبد المطلب وبين الملوك والأمراء والشيوخ من خارج قريش مما استحصل على شهرة ووجاهة بين القبائل ، وهذا الأمر من التفاعل الحي مع الآخرين ممن كان لهم الثقل الأكبر في قيادة قريش ، فقد وثق علاقاته وتوائم معهم . وفي سياق إتمام نشاطات وإسهام عبد المطلب في التأسيس للوحدة بين الأهالي ، عزم على القضاء على الفئوية ورمزية الشخص وساوى بين التاجر اليهودي والعربي . وأسهب فضلا عن ذلك في سرد الروايات والمواقف التي تشير الى كرمه وحسن أخلاقه . واختتم الأزهري هذا المبحث بالحديث المركز عن حملة أبرهة الحبشي على مكة . ومن غريب الأمور ان الأزهري أناط بحكمة وذكاء أبو طالب الذي تمكن من التعامل الصحيح مع تلك الحملة ، أناط به فشل تلك الحملة لا سيما وانه أشار إلى أن ارتفاع درجة حرارة الصحراء وشحة مياه الشرب ، أدت الى فشل تلك الحملة مكتفيا بالأشارة إلى أن العوامل الربانية كانت فاعلة في فشل تلك الحملة من دون ان يصرح بعظمة ما حصل من أمر رباني جسده الله بقوله تعالى : "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ . أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ. وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ . تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (١). وتكريسا لعدم تطرقه لهذا الأمر الرباني فقد أشار الى ان عبد المطلب كان قد نسب هذه الهزيمة لتدخل قوى علوية غيبية كانت تحمي البيت الذي لاذ بحلقته داعيا ربه وحاميها .

وفي مبحث آخر أسماه بحلف الفضول ، تطرق الأزهري الى الفراغ الذي احدثه موت عبد المطلب وبقاء القبيلة من دون رجل يحمل ملامح القيادة . الا انه

---

١ الفيل /١–٥

استدرك هذا الامر وقرر ان "حلف الفضول " كان بمثابة النواة التي تأسست عليها الدولة وشكل حكمها . فتناول بالشرح المفصل هذا الحلف بما في ذلك حديثه عن طبيعة الحلف . منوها بما شهدته هذه القبيلة منذ عهد قصي وهاشم نزولا عند عدة أحلاف اخرى حتى وصلت الى حلف الفضول . وأعطى صورة واضحة المعالم لتلك القبيلة قبيل انعقاد هذا الحلف . وأشار الى أهم ما حصل بين أبناء العم من تقاطع واختلاف حول تملك الرفادة والسقاية وغير ذلك من ملامح القيادة والرياسة . وتحدث عن واقعة وضع الحجر الأسود في مكانه بعد تجديد بنائها ، وكيف حاز الرسول محمد (ص) رضا وإعجاب الكثير من الناس . وبعد حلف " لعقة الدم " المتعلقة بوضع الحجر الأسود ، تطرق الأزهري الى وقائع أخرى بما فيها حرب الفجار ، وواضح ان الأزهري بعرضه لتلك الوقائع كان يبتغي القول ان قريش شعرت بتضعضعها عقب وفاة حكمائها من أمثال هاشم وعبد المطلب ممن سعوا بكل ما يتمكنون من استكمال طرق بناء الدولة التي مهد لها جدهم قصي . بل وتكريسا وإيمانا من الشيخ الأزهري بهذا التوجه ، أشار إلى ما كان يردده الزبير بن عبد المطلب وهو يلاعب محمدا في صغره من أبيات شعر أو كلمات نثر تشير إلى إيمانه بالبعث من القبور ، وبان حفيده محمدا سيتمم بناء الدولة التي أسس لها أجداده .

ولعل من المفيد أن نعرج ولو لأنيهة على بيان حلف الفضول الذي وجده الأزهري مقدمة لقيام دولة محمد (ص) . على ان الواقع لا يقول ذلك ، ويبدو ان ما ذهب إليه الأزهري كان بمثابة محاولة منهم ليتمم به ما بدأه من حديث لتشكيل دولة محمد بداية مما عمد إليه الجد السابع من أعمال ، كانت بمثابة التأسيس للدولة . وما يجب الأشارة أليه في هذا الموضوع ، أن حلف الفضول الذي عقد في دار عبد اللّه بن جدعان القرشيّ، أحد سادات قريش،حيث تعاهدوا باللّه ليكوننّ يداً واحدةً مع المظلوم على الظالم حتّى يرجع إليه حقه، وقد كان ذلك بعد شهر من انتهاء الحربِ بين

كنانة وقيس عيلان، وهي الحرب التي عرفت بحرب الفُجّار، وكان ذلك في شهر ذي القعدة سنة ٥٩٠ م. والجدير بالذكر أن بعضَ القبائلِ القويّة كانت تتطاولُ على قريش في الأشهر الحُرُم، وتهاجمها في ديارها، كما أنَّ لحرب الفجار دوراً هامّاً في زعزعة صفوف الرجال، وفناء الثروات والمال، وقد أجابت جميع بطون قريش، ما ذهب اليه عبد الله بن جدعان ووافقوه على ذلك، وأخذوا على أنفسهم عهداً ألاَّ يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه حتى تردَّ عليه مظلمته، ولقد سُمّي بذلك باعتباره إحياءً لحلفٍ آخرَ سابق في الجاهليّة، كان قد دعا إليه ثلاثة اشتُقت أسماؤهم من الفضل فسمّوا الحلف بالفضول، وهم الفضل بن الحارث، والفضل بن وداعة، والفضل بن فضالة. لقد كان حلفُ الفضول بمثابة دستورٍ إنسانيٍّ نادى بنصرة المظلوم، والدفاع عن الحق، ولقد عد من مفاخر العرب؛ إذ إنَّ هناك خمسَ أفخاذٍ من قريش كانت هي الأطراف الرئيسيّة في الحلف، وهي: بنو هاشم بن عبد مناف. بنو زهرة بن كلاب. بنو المطلب بن عبد مناف. بنو أسد بن عبد العزى. بنو تيم بن مرة. أما موقف الرسول من هذا الحلف ، الذي شهده وكان عمره حينها ٢٠ سنة، فقد أبدى إعجابه واستعداده إلى الدخول بالإسلام لو دعي إليه في هذا الحلف . لقد كان الحلف وما يتضمنّه من مكارم الأخلاق متوافقاً مع ما جاءت به رسالة ألإسلام، حيث كان من أهمَّ البنود التي أرساها النبيّ محمد –صلّى الله عليه وآله وسلّم– العدالة والإنصاف، حيث قال: (أيّها الناسُ إنّما أهلكَ الذين قبلكم أنّهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضّعيف أقاموا عليه الحدّ، وأيم الله لو أنَّ فاطمة بنت محمد لقطعت يدها سرقت لقطعت يدَها) رواه البخاري . ولعل من المفيد أن نعلل قول الأزهري وما ذهب إليه من رسم قصي ومن تبعه من جدود محمد (ص) لقيام دولة عادلة ، وقد أتمها الرسول (ص) في عهده ، بأنه بنى تصوره هذا على أسس العدالة التي ذهب إليه هذا الحلف ومن طبيعة المشتركان في الشعارات التي رفعت أبان عهد

إطلاق حلف الفضول وما ذهب إليه الرسول محمد من بيان لملامح ثورته العظيمة . وبغية الوقوف عند ماهية وتأثيرات هذا الحلف على طبيعة المسلمين وعلى آلية استرداد قريش لمكانتهم العليا وسط القبائل المتناحرة ، فقد أسهب الأزهري في الحديث عن حلف الفضول ومبرراته ومسمياته واهم شخوصه وتأثيراته في المراحل اللاحقة . وتحدث في مبحث أخر عن موضوعة حكومة الملأ (ملأ قريش) ، إذ عّرف بأهم القبائل المتحالفة مع قريش ولا سيما قبيلة "الاحابيش" والبحث في تسمياتها معولا في ذلك على ما ذكره المؤرخون والمعنيون بكتابة السيرة وقد نجد تضاربا في بعض ما ساقه الأزهري من الروايات التاريخية وما توصل إليه ففي الوقت الذي يؤكد أن دولة محمد أو دولة قريش كما يسميها هي امتداد لما أسس له أجداده من أمثال قصي وهاشم وعبد المطلب ، بيد أننا نجد في الصفحة (١١٢) من كتابه هذا يقول ما يناقض ما أشار إليه في البداية بقوله: ((فهنا نجد النبي محمد (ص) مع عداوة (الملأ) له وتعذيبهم لأتباعه أثناء مقامه بمكة ثم خروجهم لحربه في غزوة بدر الكبرى))[١] .

نقول إذا كان ما سعى إليه محمد من بناء لدولة ألإسلام هي بمثابة استمرارية لما بدأه أجداده ، فهذا ما يحتم تطابق المبادئ والقيم التي سار عليها من سبقه الى هذا المسار ليأت هو بعد ذلك ليتمم ما بدأه أسلافه . ولكن ألا نجد تضاربا حين نقرأ ان حكومة الملأ كانت العدو الأول لدولة وأتباع محمد ، كيف ذلك ؟ !

. نعود بعد ذلك الى توصيف الأزهري الهام لرؤيته للجماعة ألإسلامية حينذاك أو حكومة الملأ ، مقرا ومنصفا من كان يستحق الثناء وناقدا لجوانب عدة .وفي معرض تقييمه لمنزلة ومكانة حكومة الملأ يقول عنهم ((ان صورتها لم تبلغ

---

١ قريش :ص١١٢

المستوى السيئ))[١] . وفي سياق نقده لعادات وتقاليد مجتمع قريش ، حاول الأزهري التقريب بين ما عمد إليه قصي بن كلاب من تبني سقاية ورفادة الحجيج وبين ما ذهب إليه الفكر الماركسي من تسيد المادية التاريخية على مسار المجتمع ، نافذا برأي يقول بسحق الطبقة العاملة من خلال استغلال جهودهم المضنية . ولا شك أننا نستغرب من هذه المقاربة . فما من شك ان سقي ورفادة الحجيج في صحراء وبيئة صعبة مثل الجزيرة العربية ، يحتاج الى جهد مضني وعقل جبار يقود هذا الجهد ويوظفه في الطريق الصحيح ، فكان العقل متمثل بعدي بن كلاب ومن ثم أبنائه والجهد بمن كان يعمل في هذا المجال مقابل أجر معين ، حتى صارت سقاية الحجيج ورفادتهم ورعايتهم من الأعمال الصالحة والتي هيأت لقريش ان تحوز مكانة راقية بين القبائل . بل ان الله سبحانه وتعالى قارب بين السقاية والرفادة وبين الأعمال الصالحة في ألإسلام ، بل وأراد سبحانه وتعالى أن يبيّن مكانة الإيمان الحقيقيّة، لتأت سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام بمرحلة تالية من مراحل الإيمان بالله واليوم الآخر وأنها من ضمن ما يشار إليه من مفردات العمل الصالح.

وتواصلا في سعيه بيان ملامح حكومة الملأ وتركيباتها وتوجهاتها ، فقد طرح أكثر من سؤال بهذا الخصوص إذ يقول : ممن تكونت حكومة الملأ . ملأ قريش ؟ وكيف كان شكلها ؟ وما الوصف الذي يمكن ان يطلق عليها ؟ فكانت إجاباته عن تلك التساؤلات بمثابة توضيح لتلك التساؤلات معولا على ما ذهب إليه في هذا الخصوص الدكتور طه حسين وما جاء في العقد الفريد وما أشار إليه الدكتور صالح احمد العلي ، منتهيا إلى القول ((بان الارستقراطية القرشية شكلت حكومة الملأ التي تمكنت بثروتها وجاهها ونفوذها ان تمسك بمقاليد الحكم في المدينة

---

١ المصدر نفسه ص٨٠ .

المقدسة "مكة" ولتكون مقدمة لدولة قريش التي أنشأها في يثرب محمد بن عبد الله (ص) والتي قدر لها ان تسيطر على شبه الجزيرة العربية وهو الحلم الذي راود أجداده : قصي وهاشم وعبد المطلب))[١] .

وزيادة في بيان أهمية حكومة الملأ ، فقد ركز الأزهري على بيان ملامح دار الندوة ووجاهتها مستفيدا في بعض ما تطرق إليه مما أورده ياقوت الحموي والدكتور طه حسين وغيرهم ممن عني بدار الندوة بوصفها محور او بمثابة القصر الرئاسي للدولة[٢].

وهنا يعاود الأزهري بل ويؤكد ما ذهب أليه لأكثر من مرة ، ان حلم أجداد محمد (ص) في تأسيس دولة قريش قد تحقق حين أقام الرسول الأعظم دولته ألإسلامية !! . وليس من الموضوعي ان نكرر رأينا في طرح الشيخ هذا والمغالطات التاريخية والشرعية التي أقحمها في ثنايا سطور كتابه هذا . ولكن من المفيد أن ننوه أن الدولة ألإسلامية لم ولن تكون امتدادا لدولة قريش لاختلاف الرؤى والأفكار ، وهذا هو أهم من الرجال ، لان الرجل بلا توجه أو فكرٍ ناصح ومفيد ، فهو نكرة وغير مفيد . ونعتقد أن القائمين على قبيلة قريش ولا سيما أولئك الذين ناصبوا الرسول وأصحابه العداء والبغضاء والحقوا بهم أعمق الآلام ، لم يتعضوا ولم يتراجعوا عن غيهم ، سوى النزر القليل ، ولا نعتقد ان من نهض من كبوته وإدراكه لنور ربه ، سيبقى موافقا ومخلصا لتوجهات وأفكار الشرك ، التي كانت قبيلة قريش متمسكة بها .

وأسهب الأزهري في إعطاء صورة واضحة لواقع ما اسماه بدولة قريش ، حين ركز على دار الندوة بوصفها مركزا لتلك الدولة مشيرا إلى انها . الندوة . تمثل مكان

---

١ قريش : ص١٢٠

٢ الازهري : قريش من القبيلة الى الدولة المركزية: ص١٢١

ارستقراطيا ، وهو ما يتناسب ومكانة تجار وكبار قادة قريش . لا سيما وأنها " كانت دار مشورة قريش"[1] . وتكريسا لمفهوم وأهمية دار الندوة بوصفها كانت تمثل مركزا بل محورا لكل النشاطات السياسية والاجتماعية والدينية وغيرها ، فقد أشار الأزهري إلى العديد من العادات والتقاليد التي راحوا يمارسونها في تلك الدار مثل ختان الأطفال وشق درع الفتاة ، أي إزالة ما كانت ترديه من ملابس الأطفال لانها بلغت سن الرشد ولا بد إذن ان تتحجب وتستر نفسها ، بمعنى ان دار الندوة بمن فيها من المشايخ يباركون لكل عائلة بلغت أو بلغ أولادها سن الرشد وضرورة ان يتعاملوا معهم بوصفهم باتوا بالغين وعليهم حقوق والتزامات عرفية[2] .

وانتهى إلى القول في وصفه ماهية حكومة الملأ على أنها حكومة صفوة أو نخبة ، مشيرا إلى القبائل والأفراد ممن شكل بوجوده النخبة الحاكمة من يعد من النخب او الصفوة لكي يحظى بمكانة أو الجاه هو التماسك بين أفراد القبيلة وعدم السماح لتقاتل العشائر بينها ، على ان الانتماء الى أصل قريش يعد واحدا من أهم أسباب التماسك والتعايش . ومن ثم تطرق لما عمد إليه الباحثين والمؤرخين من توصيفات لماهية حكومة الملأ ، ومع أنهم لم يتفقوا على رأي إلا أن الواضح أنهم كانوا يرون هذه الحكومة على انها محاولة جادة للتحضر والخروج من ربقة التأخر التي وسمتهم به مرحلة ما قبل ألإسلام .

وينتهي الأزهري بعد طول نقاش وحوار مع الروايات التاريخية التي وقف عليها ، ولا سيما إزاء حكومة الملأ مختزلا مجمل المعلومات بتساؤله : ما الوصف الذي يمكن ان يطلق على حكومة الملأ ؟ وما هو نوع تلك الحكومة ؟ ويقول : لسنا في حاجة الى جهد كبير لنصل إلى أنها حكومة نخبوية أو صفوة أو "أيليت "، في

---

١ : ص١٢١ ، قريش

٢ : المصدر نفسه : ص١٢٧

الوقت الذي أسهب في بيان ملامح تلك الحكومة وطبيعتها ومآلها ، معولا في كثير من الأحيان على ما أورده مؤرخين ومعنيين بكتابة تاريخية تلك المرحلة [١] ..

ـ وفي باب الكتاب الثاني والمعنون بمقدمة الديانات يتحدث عن الديانة اليهودية :

مستعرضا آلية انتشارها كما هو الحال في الديانة المسيحية التي وجدها أوسع من اليهودية في الانتشار ، مؤكدا ان شبه جزيرة العرب ، تعد من الأماكن التي شهدت انتشار هاتين الديانتين ، وكانوا على اطلاع مباشر بهاتين الديانتين ولم يكونوا بمعزل عن العالم وما يجري فيه ، مستدلا على تلك البلدان بما أشار إليه القرآن الكريم من رحلتي الصيف والشتاء لتلك البلدان . وما يريد ان ينتهي إليه الأزهري ان العلاقات التجارية بين العرب في شبه الجزيرة العربية وبين البلاد المسيحية واليهودية ، كان سببا لتداخل تلك الشعوب والاطلاع على مختلف العادات والتقاليد ومن ضمنها الديانات وشعاراتها وقد افرد الأزهري مبحثا لكل واحدة من تلك الديانتين ، فجعل من المبحث حديثا عن اليهودية مؤكدا انها قد ارتبطت بمنطقة يثرب (المدينة فيما بعد) أكثر مما ارتبطت بغيرها من المواقع في منطقة الحجاز ، وقد أسهب الأزهري في البحث لبيان الأسباب التي جعلت من الحجاز ، مركز جذب للديانة التوحيدية السامية الأولى في تلك المنطقة بالذات ، بل وعمد الى مناقشة جل التأثيرات التي أسهمت بشكل مباشر في قيام الدولة ألإسلامية [٢] .

وفي المبحث الثاني ، تطرق الى الحديث عن الديانة النصرانية التي وجد ان انتشارها في الجزيرة العربية ، ذلك الانتشار الواسع جاء بسبب عوامل متعددة منها

١المصدر نفسه ، ص١٢٨_ ١٣٦

٢ قريش : ص١٤١ -١٦١ .

الجغرافية والتاريخية السياسية وكذا الاقتصادية ، وقد ناقش تلك العوامل تباعا لبيان تفاعل تلك العوامل بين الأمتين ومديات تأثيراتها على بلورة علاقة بينهما ، انتهت إلى اندماج في جوانب معينة من التقاليد اليومية وإلغاء مجموعة من عادات وتقاليد المجتمعين ، حين توارث المسلمون عادات وتقاليد صيروها لتتواءم مع الشرع والعقيدة . لا سيما وان العرب في شبه الجزيرة العربية باتوا محاصرين من قبل الأقوام المسيحية مؤكدا ان وجود تلك الأقوام النصرانية المحيطة ببلاد العرب ، حيث باتوا في صراع داخلي مقيت، فكان من مخرجاته هروب أعداد لا بأس فيها من الأهالي الفارين من تلك الحروب طلبا للحرية والاستقرار ومن بينها ارض العرب . فكان وضع الدويلات المسيحية مهيأ لعملية الغزو . ويسوق لنا الأزهري بعض العبارات التي أوردها مؤرخون تشير الى انتشار النصرانية كان مرافقا للغزو الحبشي لمكة . ويلتفت الأزهري الى بيان العوامل المحركة لتاريخ النصرانية وانتشارها السريع ، فوقف عند اثر العوامل الجغرافية ، مؤكدا على الموقع واثره في عملية التغيير ومن ثم تحدث عن العامل السياسي منوها برغبة الدول القائمة وقتذاك بان لا ترى دولة إسلامية تنافسها ، ولا بد من وأدها في مهدها ، وهكذا كانت التحديات الدافعة لوجودٍ نصراني داخل المجتمع ألإسلامي ، أما الجوانب التاريخية المؤثرة فان الأزهري انتهى الى القول: ان فرقة نصرانية موحدة استقرت في غرب الجزيرة العربية هربا من اضطهاد اليهود لهم ، ولكن الشيء الذي حصل ، ان هذه المجموعة تمكنت من اختراق مجتمع قريش حتى آمن بهذه الديانة جماعة من رجالاتها انقطعوا عن المسيحية خارج الجزيرة العربية "ومن الواجب ان نضع في حساباتنا ان النصرانية ديانة تبشيرية ليست منغلقة على أهلها كاليهودية ، وكان ذلك أحد عوامل انتشارها"[١]

---

١ دولة قريش : المصدر السابق ، ١٧١

وحاول الأزهري ومن خلال ثقافته التاريخية والإسلامية ، ان يربط ما بين انتشار المسيحية في بلاد العرب وبين دخول بعض الأعراب في الديانتين السماويتين ، حيث انتشر هذا التوجه استنادا لما كانت تتمتع به مكة من مكانة اقتصادية وباتت سياسية فيما بعد مع قيام الدولة ألإسلامية . ولا يخفى على احد ان الثقافة القريشية كانت بائسة قياسا وما كان للأقوام الأخرى ومنها النصرانية ، الأمر الذي سهل عليها التغلغل الى داخل قبيلة قريش وضواحيها . وتواصلا في استعراض تمدد النصرانية الى القبائل العربية ، استعرض الأزهري وجود صور للعذراء مريم وعيسى المسيح في داخل الكعبة ، وشيوع أسماء أنبياء ورسل ورد ذكرهم في التوراة والإنجيل مما يدل على تأثر قريش بالمسيحية ، منتهيا الى القول ان النصرانية كان لها الحظ الأوفر في الانتشار لأنها ديانة تبشيرية ومستندة إلى مرجعيات سياسية متنفذة ، هما دولة الروم والحبشة الى جانب دويلات الغساسنة والمناذرة . وفضلا عن ذلك ، فقد تحدث عن أهم التوجهات التي وجدها عميقة في تأثيرها بعرب شبه الجزيرة العربية مثل ترسيخ عقيدة التوحيد التي وضعت بذرتها الديانة اليهودية ، الى جانب تكريسها لفكرة النبوة والتبشير بظهور نبي أظل زمانه . وفضلا عن ذلك كان هناك أثر للنصرانية يناهز ان لم يتفوق على اثر اليهودية في الخطاب الديني في جزيرة العرب[١] ، بل ان آلية التوحيد التي تميزت بها الديانتين اليهودية والنصرانية ، هيأت ذهنية العربي لمثل تلك الديانة وقيام الدولة ألإسلامية[٢] . وقد أوضح الأزهري الفرق بين النصارى وبين المسيحيين من ناحية الاعتقاد والقرب من الديانة ألإسلامية[٣] .

---

١ قريش : ص١٨٢ .

٢ المصدر نفسه :ص١٨٣

٣ المصدر نفسه : ص١٩٢

وعلى وفق ما انتشرت النصرانية في شبه الجزيرة العربية وبات أمر واقع ، بوصفهم جزء من هذا المجتمع ، ولان بعض أفراد تلك القبائل العربية الكبيرة ، كان قد اعتنق الديانة النصرانية ، فقد قرر الأزهري الوقوف عند تلك القبائل واستيضاح كيفية اعتناق بعض أبنائها للنصرانية وما مصيرهم بعد قيام الدولة ألإسلامية . وكان من بين تلك القبائل العربية التي عرض الأزهري لها هي قبيلة أياد ، فتطرق لحروب الردة زمن الخليفة ابو بكر الصديق ، والعلاقة بين الارتداد عن ألإسلام واعتناق الكثير من هؤلاء المرتدين للديانة النصرانية . وقد أسهب الأزهري في التطرق لحروب الردة والسبل التي أتيحت للكثير ليعلنوا الردة . أما تميم وهي القبيلة الكبيرة فقد شهدت اعتناق الكثير من أفرادها النصرانية ،فقد كان تبرير ذلك لأنهم كانوا على تماس مباشر لا سيما بعد ان اتصلت قبيلة تميم بمصب الفرات والخليج العربي ، وكان أبناؤها يتنقلون بين شبه الجزيرة العربية وأرض العراق . والى جانب ذلك ، أشار الى شخصية هامة في تاريخ تلك الحقبة وهي شخصية " سجاح"التي ادعت النبوة فيما بعد ، وقد أسهمت تلك القبيلة في حروب الردة ، ولكن الأزهري ينفي ان يكون إسهام هذه الجماعة في حروب الردة سببه هو الامتناع عن دفع الزكاة لحكومة المدينة كما أشار إليه بعض المؤرخين .

أما القبيلة الأخرى فيه فهي ، قبيلة حنيفة إذ وجد ان التنصير فيها فاق القبيلتين الاخريتين ، وتحدث عن أثارها ومواقعها ومواجهتها لقوافل المسلمين ، وانسحب هذا الحديث على أهل اليمامة التي تسرب إليها النصرانية . وكان معظم أهل تلك المنطقة قبيل ألإسلام من بني حنيفة الذين اعتنق بعضهم المسيحية[١] .

---

١ : قريش : ص٢٠١

وتطرق بعد ذلك ، إلى عقيدة الصابئة مستعينا بعدد من المؤرخين والمعنيين بتاريخية تلك الديانة خالصا إلى القول بأنهم : يرجعون الى النبي أدريس . وكان الاختلاف على أشده في جذور هذه الفقرة وصولا الى المؤرخ الطبري .

وتوضيحا أدق لتاريخية شبه الجزيرة العربية ، فقد التفت الأزهري الى ذكر ما كان على تلك الأرض من أديان قديمة كما هو الحال في الديانة الصابئية[١]. فبحث في جذورها التاريخية وأشار الى مليكها . وبحث في الاسم حتى توصل الى انه يعني :. طلع أو ظهر ، نزع أو اشتاق . وما تجدر الأشارة اليه ، فهناك ثمة روايات تشير الى عكس ذلك ، كما في رواية أخرى انه ينفي ان يكون وأصحابه قد عبدوا الكواكب او خضعوا الى الديانة اليهودية او النصرانية . وفي هذا السياق ، أكد ابن حنيفة أنهم لا يعبدون الكواكب بل يعظمونها كما يعظم المسلمون الكعبة ، ومن ذلك فهم يعبدون الله ومن الجائز التزاوج مع نسائهم . وتطرق الأزهري الى ما ذكره الطبري وغيره من المؤرخين والمعنيين بدراسة الأديان والعقائد ، ونظر في معتقداتهم وجزئياتها بما فيها صلاتهم وخمسهم وامتناعهم عن بعض المأكولات وكيفية الخطبة والزواج والتعميد ، منتهيا الى المعنى الذي أورده القرآن الكريم إذ يقول:

" ولكن الذي يفهم ومن خلال القرآن الكريم على ان الصابئة هي جماعة كانت على دين خاص وأنها طائفة مثل اليهود والنصارى ، أما كلمة صابئة ، فهي مصطلح الصابئة ولها مدلول معين"[٢] . ويميل الأزهري الى القول الذي يحشر الصابئة مع زمرة المؤمنين بالتوحيد ، مؤكدا ان دورهم في تصوير التوحيد بمثابة معنى شاملا يتقيد بألفاظ أو تراكيب أو صيغ ضيقة ، فما دام القصد هو الإيمان بالصانع المبدع فان الوسائط واسعة في طريق التوحيد . وينتهي في موضوعة عرضه للصابئة إلى

---

١ الازهري ، قريش ، ٢١١

٢ قريش : ص٢١٦

ذكر سؤال آخر يقول :ما الدليل على وجود الصابئيين في مكة أو منطقة الحجاز وقت ان كانت قريش تخطو خطواتها الواثقة نحو حكم شبه الجزيرة العربية ؟ وقد استند الأزهري الى ما أورده القرآن الكريم من ذكر ولثلاث مرات عن هذه الجماعة دلالة على أهميتهم الواضحة . وقد أشار أكثر من معني بشؤون تاريخ اليمن ، أن في شبه الجزيرة العربية كان هناك جماعات من الصابئة ولا سيما أبان إعلان الرسول محمد لدعوته ألإسلامية . وقد أشار الباحث الى أكثر من نقطة تستدعي التوقف عندها لأنها تشمل أكثر من جانب من جوانب الحياة المجتمعية في منطقة الجزيرة العربية . وقد نوه الأزهري بما ذهب إليه الوثنيون من مطالب تتعلق بمن يستقر في مكة المكرمة . ومن خلال تلك الأشارات والإيماءات والافتراضات لحقيقة وجود النص الصح فالذي لا مرية فيه ، فان الأزهري يؤكد أن هذا الافتراض صح أو لم يصح ، فان وجودهم في قريش كان بمثابة تمازج في الآراء وتداخل في الأعمال ومنشئها . ولعل من أهم ما تذهب إليه تلك المصادر أن الصابئة التي كثرت ونسجت حولها الآراء والقصص والأساطير ، فأنهم في الواقع كانوا موجودين حين إعلان محمد (ص) لدولته . ثم التفت الأزهري الى الحديث عن الحنيفية مؤكدا على ان ظهورها في الجزيرة العربية كان بمثابة تيار ديني متميز أطلق على معتنقيه بـ " الحنفاء" أي أنهم على دين إبراهيم عليه السلام . وقد فصل الأزهري القول في معنى الحنيفية مشيرا إلى ما نوهت به اللغات التي كانت سائدة في تلك المنطقة ، ومستعينا بما أورده كذلك المستشرقين حول أصولها سواء الأصل العبري أو العربي .

وتناول بالحديث سيرة تلك الجماعة وتناميها وتوجهات معتنقيها ، منوها بالظروف التي أدت الى ظهورها مؤكدا ان هذا الظهور كان حتمية تاريخية أوجبته ضرورات ذلك المجتمع ، مستعرضا ومنوها بما أورده بعض المؤرخين من المتغيرات التي استدعت بروز هذه الجماعة ، التي اسهب في الكشف عن مزاياها وخصائصها

وتوجهاتها وكانت بمثابة راعي وموجه للمجتمع ما قبل ألإسلام . وزيادة في توضيح ملامح جماعة الحنيفية ، فقد طرح تساؤلا مفاده : من هم هؤلاء الأحناف ، موضحا اهم ما تميزت به عبادتهم وسلوكياتهم وابتعادهم عن الرذائل وما كانوا عليه من ثقافة ومعرفة بأدبيات الأديان السماوية ، وكان أهم ما يجمعهم مع تلك الاديان هو رفضهم عبادة الأوثان وتماشيا مع بيانه للمستوى الثقافي لهذه الجماعة ، فقد ذكر عدد من شخصياتهم المبدعين ، من شعراء وحكماء . وقد حاول الأزهري سوق أدلة وشواهد تاريخية ، يريد الوصول بها الى ان الرسول (ص) كان من المتحنثين وانه كان من جماعة الحنيفية . ويمضي الأزهري الى الحديث عن جذور الحنيفية، ومتبنياتها وتوجهاتها وسلوكياتها انتهاء برفضها الأوثان وعبادتها[١] .

ويصل بنا البحث في كتاب الأزهري الى الباب الثالث " المقدمات السياسية " وفيه يشير الى اهم القوى الكبرى المعاصرة لبروز الدولة ألإسلامية ، مؤكدا ان ما كان قد دب من ضعف في جسد تينك الدولتين ، كان احد أسباب قيام الدولة ألإسلامية فتناول أولا الدولة الفارسية وما أصابها من وهن في الداخل وما كانت تعانيه من معضلات . معولا في توضيح صورة الدولة الفارسية المزرية ، هو ما رسمه الطبري من صورة مروعة لملوك فارس وطغيانهم وكيفية قتلهم لبعضهم من اجل الاستيلاء على الحكم . واستمر الأزهري في متابعة سلسلة ملوك الفرس ومآسيهم وطغيانهم وصولا الى عهد الانحدار حين انتهى أمر تلك الدولة إلى أمرة يزدجر بن شهريار بن كسرى ، وحينها قوض العرب الإمبراطورية الفارسية وورثوا ملكها . وقد أدلى الأزهري بدلوه في تبرير وتهاوي تلك الإمبراطورية الكبيرة ، ومنها إحالة سقوطها للعامل السياسي والاقتصادي[٢] .

---

١ قريش :ص٢٣٤

٢ قريش :ص٢٥٠ .

ثم التفت إلى الحديث عن الدولة البيزنطية التي شهدت مع ظهور دولة ألإسلام تمزقا داخليا وصراعا مذهبيا أدى الى ضعفها وانهيارها . ومبادرة فكرية ثاقبة من الأزهري لتشخيص موطن الخلل والضعف الذي أدى الى تضعضع تلك الدولة ، بحث أولا في بنيوية الديانة المسيحية وحقيقة قداسة المسيح وما يتعلق بالسيدة مريم العذراء (ع) . وأسهب في تتبع انتشار المسيحية ووصولها الى المقدس وتناول أيضا المذاهب المسيحية فتحدث عن خمسة منها وعن مسألة الهرطقة ومخرجاتها وما عمد إليه الإمبراطور جو ستينيان من اضطهاد أصحاب "مذهب الطبيعة الواحدة"[١] . ووجد الأزهري " ان تلك الشقوق الناجمة عن الاضطهاد بقيت تتسع اتساعا مضطردا فأضعفت روح الولاء نحو القسطنطينية لا سيما في مصر والشام ومهدت الطريق إلى قيام الدولة ألإسلامية وفتحها لبلاد روما[٢] . وإلحاقا بسياسة الاضطهاد البيزنطي للطوائف والأديان غير المسيحية ، عرض الأزهري إلى اضطهاد المسيحيين للسامريين وكذا الحال لليهود في فلسطين[٣] . ولم يسلم الأقباط من استبداد جو ستينيان الذي حرم عليهما كنيستيهما في الإسكندرية ، إلى جانب ما عمد إليه المقوقس الذي عينه جو ستنيان عليها من استبداد وطغيان وقد عاصر هذا الإجراء فتح العرب المسلمين لمصر ، مما أدى إلى ترحيب واسع من الأقباط بمقدمهم لمصر وفتحها . فكان ذلك عامل هام من عوامل زعزعة الدولة البيزنطية

---

١ المونوفيزية أو الطبيعة الواحدة: هي عقيدة مسيحية بأن ليسوع طبيعة واحدة إلهية، وأن طبيعته البشرية امتزجت بهذه الطبيعة. ويمكن أختصار هذه الطبيعة في: "يسوع المسيح، الابن، هو شخص وأقنوم واحد بطبيعة واحدة: الإنسان الإله" متاح على الموقع : https://ar.wikipedia.org/wiki/مونوفيزية

٢ قريش ، ص٢٥٣

٣ المصدر نفسه : ص٢٥٥

وبالتالي أدى الى سقوطها . وتحدث عن آلية ذلك السقوط حين ركز على الصراع المستمر بين الدولتين الفارسية والبيزنطية ، ولا سيما استخدامهما لحليفيهما الغساسنة والمناذرة ، الى جانب[١] الفساد الإداري الذي استشرى في الدولة مع فرض الضرائب المجحفة الذي أثقل كاهل الناس ، في مقابل إثراء أصحاب المنازل والجاه وانتشار الفقر المدقع ، وأكثر من ذلك فساد المؤسسة الدينية وانتشار الرذيلة وعمل المنكر حتى صار علنيا ، مما أدى الى ضعف وتلاشي سطوتها ومقرراتها بين عامة الناس ، او الدولة الرسمية . وكل تلك الأسباب مجتمعة أدت إلى سقوط الدولة أمام تنامي وارتقاء دولة ألإسلام[٢] .

وفي موضوعة المزاج النفسي والظروف الموضوعية ، استعرض الأزهري الدور الكبير الذي أداه الأنصارْ (الأوس والخزرج) في نجاح الدعوة ولا سيما حين استقبالهم المهاجرين ، ومن ثم اشتراكهم في حروب وغزوات الرسول (ص) . واستعرض فضلا عن ذلك ، تردد بعض القبائل مثل قبيلة كندة وبني عامر في بادئ الأمر من تقبل دعوته الا بشروط في مقابل مخاوف الأوس والخزرج من تقبلهم الأمر . وناقش الأزهري مسوغات تقبل الأوس والخزرج للدعوة في مقابل ما كان ينتظرهم من المخاطر ، مؤكدا ان تعلقهم بما ينتظرهم في الآخرة ، وهو ما عززه لديهم وفي مخيالهم ، هو وجود النصارى واليهود في مجتمعهم اذ اكدوا لهم وجود الجنة والنار والعقاب والثواب . ومن ذلك ، يرى الأزهري ان قبولهم الدعوة لم يأت بوازع اداري او سياسي بقدر ما كان يعود الى التأثير النفسي المترتب على كسب الجنة والخلود في الحياة . وقد انتهى الأزهري الى القول :" لقد تضافرت الشخصية العاطفية التي كان يتمتع بها الفرد في الأوس والخزرج والمزاج الجماعي

---

١ المصدر نفسه : ص٢٥٧

٢ المصدر نفسه : ص٢٦٦

"أو المجتمعي" الذي تخلق نتيجة البيئة التي عاشوها والإيحاء الذي وصل إليهم من اليهود أصحاب الكتاب المقدس "التوراة" ، تضافرت كل تلك العوامل على سرعة الاستجابة للرسول(ص) ، الى جانب تطرقه الى الجوانب المادية التي أثرت في نفوس الأنصارْ وتأييدهم للرسول (ص) ونصرته ، وقد أشار الى التفاوت الطبقي الذي كان حاصلا واستمر حتى في عهد ألإسلام . وعرج على ذكر أسماء عدة من الأغنياء وأصحاب المزارع وممن كان يعمل فيها من المزارعين وبأجر زهيد . والى جانب ذلك تحدث بإسهاب مفيد عن مواصفات وخصائص مجتمع الأنصارْ منوها بافتقارهم الى خصلة السياسة التي كانت سببا في ابتعادهم عن الحكم وممارسته واستشهد على ذلك بحادثتين تؤكدان افتقار رجال الأوس والخزرج لممارسة لعبة السياسة ومتبنياتها . ولكي يستقيم الأمر مع بناء الدولة ألإسلامية من كل المستويات ، فقد رجح الأزهري " انه في لحظة تاريخية نادرة التقى محمد (ص) الأوس والخزرج بما لديهم من مزاج نفسي وظروف موضوعية ، لتتكامل شروط النماء والازدهار في يثرب لدولة قريش"[١] .

---

١ قريش : ص٢٧٧ .

وفي باب الكتاب الرابع المعنون
بـ" المقدمات الاجتماعية

أعطى المؤلف صورة جلية وواقعية لتحركات الصحابة على الساحة السياسية والاجتماعية ، وبالتالي الاندماج بعدما يعرف بالنقاهة الحزبية ، وهي ذا فائدة للطرفين .

فقد تطرق الأزهري الى موضوعة القبيلة حين تحدث على فرض ان أصل العرب من تلك التسمية ثم راح يفصل القول في طبيعة معيشتهم وعاداتهم وتقاليدهم وتسمياتهم . ويمضي وكأنه يتفق مع من يذكر ان العرب من أوطأ المستويات معيشة فهم لا يسترزقون ولا يأكلون الا من سيفهم او رمحهم ، بل ويأنفون من العمل في المزارع . وتحدث عن القبيلة بوصفها الوحدة الاجتماعية ومنبع القيم التي كانت سائدة وقتذاك ، وهذا ما يعني حماية القبيلة لأبنائها ممن يواليها ويلتزم بتقاليدها . وتحدث عن التفاوت الطبقي داخل بنيوية القبيلة ، فهناك فقر مدقع وهناك غلاء فاحش ، وشتان ما بين السلوكين . وأضاف إلى تلك الطبقتين ، طبقة ثالثة هي "الموالي" أي الزنيم مشيرا الى معناه الذي يقضي بأنه الشخص الذي ترك أهله وقبيلته ولجأ لقبيلة تحميه ويصطبغ بصبغتها وعاداتها وتقاليدها . وتناول أيضا طبقة " الخلعاء " ممن يتعاطى الخمر والميسر ويمارس الزنا ويتشاجر كثيرا . ويصل في حديثه عن شرائح المجتمع ليقف عند طبقة الصعاليك ، فيذكر : سرعان ما تبلورت طبقة واسعة من تلك الشرائح ، وهم الصعاليك ، حيث أسهب في بيان أصولهم وآلية جلبهم وتوجهاتهم ومخرجاتهم .

وفضلا عن ذلك ، فقد أشار الأزهري الى الموقع الجغرافي لكل قبيلة في الجزيرة العربية ، منوها بماهية حكم القبيلة ومن هو المسؤول عنه فضلا عن بيان اهم ما كان يتميز به الحاكم او الشيخ أو السيد . وراح يفصل القول في تقسيم

المهام مع وجود مجلس يضم نخبة من كبار السن ، يتمتعون بحرية كاملة في اتخاذ قراراتهم وضد أي عنصر او شركة او مؤسسة .

ويتناول الأزهري اهم ما كان يتمتع به شيخ القبيلة من مزايا ومن حقوق تفوق احيانا المعقول ، الا ان تبريرها في اكثر الاحيان يعود للمصلحة العامة التي تستدعي مثل هذه المهام .ويأت على المساحة التي يحكم فيها رأس القبيلة ، على ان له جزء من الغنائم ممن كانت تقع بين ايديهم " ، ليعمد وضمن رسم توضيحي (للاوزاعي) الى بيان آلية الحكم وطبيعة الغنائم واصنافها وعلاقة الخدمة بالأعطيات ، وغير ذلك من الحقوق والواجبات لينتهي الى القول بتماسك القبيلة ابان عهد الرسول (ص) فكانت خير نواة لبناء الدولة ألإسلامية ، مشيرا لأهم الأحداث التي كانت تسير باتجاه تكوين الدولة ألإسلامية ، متوقفا عند أهم تلك الأحداث وهو (عام الوفود) بما كان يعنيه من اعتراف ضمني من قبائل شبه الجزيرة العربية بدولة مكة او دولة ألإسلام ، فتحدث عن بدايات التشكيل واهم الرجال المعنيين به والمؤسسين للدولة الفتية[١] .

وتحدث الأزهري عن التكوين المجتمعي للقبيلة فوقف عند الأنساب والالتزامات العرفية وعاداتهم وتقاليدهم والميراث وتحدث عن المجتمع الحضري مثل مكة بما غلبت عليها صفة التجارة في حين وصف الطائف ويثرب بالمناطق الريفية . وتحدث عن تصنيف المجتمع استنادا لملكياتهم ونفوذهم . وتحدث عن ظاهرة الربا وكيفية التخلص منها ومن مخرجاتها حين حرم ألإسلام التعامل بها . وأسهب في الحديث عن طبقة الفقراء وتواجدهم وأعمالهم ومنزلتهم وعطائهم ، ثم انتقل الى الحديث عن الفقراء المستضعفين وهم عصب الإنتاج في الأنشطة الاقتصادية . ويصل الأزهري الى نتيجة مفادها ((ان الخلاف والعداء والمقاومة التي لقيها

---

١ قريش : ص٢٩٣

الرسول وأتباعه من قبل الارستقراطيات السياسية والاقتصادية في المجتمع المكي القديم هو عداء وخلاف ديني بقدر ما كان خلافا وتناقضا اجتماعيا وطبقيا في الأساس. .. ويقول ان هذه الحقيقة التاريخية يؤكدها انتشار مبادئ الدعوة في أوساط الفئات والطبقات المقهورة من العبيد والموالي وفقراء وصعاليك المجتمع المكي ...))[١] . وهنا يحق لنا ان نناقش الأزهري في طرحه هذا حين فسر حركة تاريخ تلك المرحلة تفسيرا ماديا ، دون الالتفات الى ان حركة تاريخ كل مرحلة من مراحل التاريخ تعتمد على مجموعة عوامل تتفاعل فيما بينها لتنتج لنا حركة تاريخية وصناعة وقائع وأحداث بمجملها تشكل لنا تاريخ امة من الأمم . وليس ببعيد علينا ان موسى وعيسى عليهما السلام لم يبعث بهما ربهما لو لم يصل الحال بالناس الى ذات الوضع الذي مرت به امة العرب وما حولها والذي استدعى بعث الرسول محمد (ص) برسالته . فأحداث التاريخ تتشابه لان هناك ثوابت ومتغيرات ، ولا يمكن ان يقفز تأثير احدهما على الآخر بقدر تأثير عامل الزمن ولعبته .

وفي باب كتابه الخامس والمعنون بالمقدمات الاقتصادية يتطرق الى موضوعة مصادر الثروة وفيه يتحدث عن التطور الذي مر به حال قبيلة قريش الاقتصادية وكيفية بروز الارستقراطية التي اجتازت جل مصادر الثروة ولم تترك لغيرها الا الشئ النزر . والى ذلك تناول بالشرح المفيد مصادر تمويل القبيلة من الغنائم والجعالات والأجور والايلافات وكيفية تقسيمها . وتحدث عن اثر تجارة الفرس والروم واثر ذلك على واردات قريش .وتلك بالتأكيد العوامل الخارجية لتعاظم الاقتصاد في مكة . أما العوامل الداخلية فكان الحج والأسواق ، وقد استعرض أثرهما ومخرجاتهما ونتائجهما على وضع مكة المادي والمعنوي ، لا سيما ما كان

---

١ قريش: ص٣١٣ .

لأسواق الحجاز من أهمية ، فقد أشار الى أسواق " دومة الجندل " و"المشقر" و"صحار" وغيرها من الأسواق[١] .

وفضلا عن ذلك ، أشار الأزهري إلى ان التجارة لم تكن وحدها مصدر ثراء سادة المراكز المدينية ، بل أضيفت إليها الزراعة في الطائف ويثرب واليمامة ، وان تباينت في كل منها حسب المناخ والتربة ومصادر المياه . وقد أسهب الأزهري في تفصيل تلك المعلومات من خلال الحديث بالتعاقب عن تلك المناطق ، فبدأ بالطائف ومن ثم عن يثرب (المدينة المنورة فيما بعد) ، واليمامة . والى جانب ما وجده من مخرجات كبيرة في الجوانب المادية ، وجد ان هذا التطور الاقتصادي ، كان قد عجّل في تفكيك القيم القبلية التي ترسخت لقرون طويلة وارتكزت على العصبية القبلية . وبرزت إلى الوجود قيم جديدة مغايرة تماما لا تتمحور إلا على القواعد المادية والركائز المالية . وأسهب الأزهري في ترجمة سيرة القبائل العربية في الجزيرة العربية ، مستعرضا بطولات رجالاتها ، وحين تحول النزاع والحرب داخل امة العرب ، وصولا الى الحرب مع الدول الإقليمية كما في محاربة البيزنطيين في مصر ، وأشارته لمعركة ذي قار وما كانت ترمز إليه لا سيما اذا ما نظرنا التمايز البيزنطي في ساحة المعركة ، في مقابل جيش المسلمين ، الى جانب الثورة التي نشبت في اليمن ضد أبرهة . ووجد الأزهري ان كل عوامل ظروف التوحيد في مختلف مناحيه ، كانت هي الظروف الموضوعية التي مهدت لنشوء دولة قريش وتأسيسها في "يثرب " على يد الرسول (ص)[٢].

وحين جاء الباب السادس ، ناقش الأزهري موضوعة المقدمات الثقافية ،فتحدث عن الشعر والخطابة ، موضحا معنى الثقافة ومدلولاتها الواسعة بما فيها الاجتماعية

---

١ : المصدر نفسه : ص٣٢٦

٢ قريش : ص٣٤٧.

والاقتصادية والدينية والعلمية والسياسية والأخلاقية "الفنية" التربوية والجمالية (الفنية) واللغوية . وقد اقتصر حديث الأزهري على المنتجات اللغوية ، مستعرضا اللغات التي كان يتكلم بها العرب ما قبل ألإسلام . والى جانب ذلك ، وجد ان ما شهده مجتمع القبيلة من متغيرات اجتماعية واقتصادية انعكست على آلية التعامل بين السكان ، بل وأدى الى ظهور التفاوت الطبقي ، مما خلق مجتمعا متفككا في روابطه حين برزت طبقة ارستقراطية ، في مقابل جموع من الفقراء والجياع قياسا وما كان من قبل . ووجد ان هذا التفكك أشعر الناس بضرورة البناء القومي مما ولد " نوعا من الوعي القومي الجنيني عبر عن نفسه بالنزوع نحو التوحيد ، وإقامة سلطان العرب الذي يتصدى لنفوذ البريطانيين والأحباش والساسانيين "[1] . ووجد ان هذا المتحول في التفكير والفعل للقبيلة ، هيأ إلى الانطلاق خارج حدود الجزيرة العربية ، والدخول في مواجهات مسلحة كبرى ، كان للعرب الغلبة في معركة ذي قار التي هيأت للانتصار الكبير على الفرس في معركة القادسية . ويؤكد الأزهري ان كل تلك الحوادث فضلا عن الثورة الثقافية التي بدأت تظهر بالأفق ، كل تلك العوامل كانت قد مهدت للتوحيد، تعد ظروف موضوعية مهدت لنشوئ دولة قريش (الدولة ألإسلامية) على يد الحفيد والرسول محمد (ص).

وفي حديثه عن المقدمات الثقافية بوصفها احد أهم العوامل التي أدت إلى تهيئة الظروف لإنضاج فكرة بناء الدولة في يثرب . فكان من بين تلك الظواهر ، هي اللغة المشتركة لجميع القبائل . وتحدث عن اثر الأسواق في بلورة فكرة التوحد وما تعنيه من ضرورة التوحيد للغة والمنهج وهذا ما يمكن الوقوف عنده من قول الأزهري : ((يمكن اعتبار سوق عكاظ بمثابة مجمع أدبي لغوي رسمي))[2] . وبما

---

١ المصدر نفسه : ص٣٤٨ .

٢ قريش : ٣٥٣ .

للموضوع من صلة ، أشار الى دور الشعر والشعراء في بناء دولة ألإسلام ، بل انه عد الشاعر وما يقدمه من شعر من أخطر وسائل الإعلام في تلك الأيام[١] .

وفي سياق عرض عوامل قيام الدولة ، أشار الأزهري الى جل العوامل المؤدية الى هذا النهج . ووجد : ((ان صيرورة مكة بوصفها المركز التجاري الأول في منطقة وسط الجزيرة وغربها ، ونصب الأسواق الداخلية على أطرافها ووجود الكعبة فيها وقيام القبائل من الأنحاء كافة بالحج والاعتمار ، كل ذلك كان بمثابة سيادة لغة قريش على بقية اللغات الأخرى وبات للبلاد لغة موحدة واحدة .

وفي محل آخر من تفسيره لعوامل قيام دولة محمد ، وقف عند الشعراء الصعاليك ، مستفيدا من شعرهم بما كان يمثله للآخرين . ولا سيما توصيفه للتفاوت الطبقي الذي برز على أشده فأفرز فقراء وافرز كذلك أغنياء لهم الحق في القول والأمر ، في مقابل إفرازه لطبقة فقراء ومعوزين . ويرى ان هذا التفاوت كان وراء الاستجابة للدعوة التي نادى بها الرسول الأعظم (ص) . وانسحب هذا الكلام على جماعة من الشعراء الحنفيين " فقد كان الشعر أحد أهم وسائل التعبير التي لجأ إليها (الحنفاء) للتعبير عن أفكارهم وآرائهم والدعوة أليها . وقد أورد بعض الأمثلة للأغراض التي تناولها أصحاب "الحنيفية "[٢] .

كتابه : " لتطبيق الشريعة لا للحكم " :

يقوم الكتاب على فكرة واحدة أساسية ان ألإسلام ليس عبادات فقط بل هو أيضًا تشريعات وعقوبات ونظام سياسي ، وهنا الخطورة من وجهة نظره لان المجتمعات العربية وبسبب تخلفها الحضاري لقرون أهملت تطوير جوهر التشريعات والعقوبات

---

١ المصدر نفسه :ص٣٥٥

٢ قريش : ص٣٦٤ .

والنظام السياسي وفق التطور الذي حدث على مر القرون للمجتمعات العربية وللعالم مكتفين بتقديس نصوص السلف من الفقهاء وعلماء الدين القدامى ، فالأزهري يرى ان تطبيق الشريعة بشكلها السلفي الموروث سوف يؤدى إلى أضرار لذا فمن الواجب الارتباط بالجوهر الإنساني السامي والعميق للإسلام وتمثله في كل مسالك الحياة مع الأخذ بالعلوم الحديثة في إدارة شئون المجتمع[١].

وفي هذا الكتاب يسرد الشيخ خليل عبد الكريم ، رؤيته حول السلفية، مفندا بعض الأمور الخاصة بعقيدتهم مثل مسألة الحاكمية، إذ يرى أنها من ابتداع أبو الأعلى المودودي[٢] . وهو بذلك يقدم نقدًا لهذه النظرية ولصاحبها أبو الأعلى ، ويستند في

---

١ المصدر نفسه ، ص٣٧٠ .

٢ أبو الأعلى المودودي أو أبو العلاء المودودي (١٢ رجب ١٣٢١ هـ ٣١ – ذو القعدة ١٣٩٩ هـ) ولد في يوم الجمعة بمدينة جيلى بورة القريبة من أورنج أباد في ولاية حيدر أبادبالهند من أسرة مسلمة محافظة اشتهرت بالتدين والثقافة.لم يعلمه أبوه في المدارس الإنجليزية واكتفى بتعليمه في البيت. درس على أبيه اللغة العربية والقرآن والحديث والفقه وكانت اسرته اسرة علم وفضل. بدأ العمل في الصحافة عام ١٣٣٧ هـ .وأصدر مجلة ترجمان القرآن عام ١٣٥١ هـ .أسس الجماعة الإسلامية في الهند عام ١٣٦٠ هـ وقادها ثلاثين عاما ثم اعتزل الإمارة لأسباب صحية عام ١٣٩٢ هـ وتفرغ للكتابة والتأليف.اعتقل في باكستان ثلاث مرات وحكم عليه بالإعدام عام ١٣٧٣ هـ ثم خفف حكم الإعدام إلى السجن مدى الحياة نتيجة لردود الفعل الغاضبة والاستنكار الذي واجهته الحكومة آنذاك ثم اضطروا بعد ذلك إلى إطلاق سراحه. كما تعرض المودودي لأكثر من محاولة اغتيال. وهو صاحب فكرة ومشروع إنشاء الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، وبعد إنشائها صار عضوا في مجلس الجامعة. وكان عضوا مؤسساً في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي .وله من المؤلفات الكثيرة عدها بعضهم فتجاوزت الستين كتابا. توفي في ٣١ ذو القعدة من عام ١٣٩٩ هـ ودفن في

ذلك إلى نصوص من الكتاب والسنة . وفضلا عن ذلك ، وجدنا انه يتحدث عن فكرة التطبيق المباشر للشريعة بشكل كامل ، متسائلا : هل هي ممكنة ؟ وهل هي صحيحة ، في مقابل التطبيق الجزئي للشريعة ؟ مؤكدا على جانب يراه هشا في سير بعض الصحابة ، ذلك الجانب المتعلق بعلاقاتهم المتعددة بالمرأة ، مشيرا إلى دوافع هذه الهشاشة في سيرتهم ، بأنها تعود إلى ما كان عليه المجتمع القبلي من مفاهيم تقزم من المرأة بحيث يكاد يمسخ وجودها سوى بعض المواقف هنا وهناك ، وهي لا تلغي ما وجده من سلبية النظرة ومخرجات تلك النظرة الى المرأة ، ناقدًا الدوافع التي حركت مثل هذه الفكرة.

ويلتفت الشيخ التفاته غير معهودة من الآخرين ، حين نظر للتاريخ المصري ألإسلامي ، مبديا نقده لحكام مصر ، لأنهم لم يطبقوا الشريعة ألإسلامية قط، وإنما تم استغلال الحكام لرجال الدين لتبرير ما كانوا عليه من تطبيق للشريعة، في حين انه كان من وجهة نظره استبدادًا صريحًا، وغير ذلك من القضايا . ويتعاط الأزهري في مؤلفه هذا مع من ينادي بوجوب تطبيق الشريعة ألإسلامية مبررا توجهات هؤلاء لدوافع عدة ، ربما تجتمع بعضها وربما تتضارب او تتقاطع مع غيرها . ومع ذلك فهو لا يرى في توجه الأشخاص الذين يتمنون تطبيق الشريعة ، بالأمر الغريب بقدر ما يحمل بعض تلك التوجهات من مآخذ ومن قفز على الموضوعية والإرث التاريخي للأمة ، بل ويراه في بعض الأحيان محاولة للالتفاف على خيرات البلاد ، وهذه التوجهات والمتبنيات أوجزها الأزهري بعدة دوافع أشار إليها من خلال ما أسماه بالدافع السياسي ، بما يفهمه من وثوب المنادون بهذا المطلب على السلطة لإنشاء حكومة دينية ثيوقراطية شعارها " الحاكمية لله وحده

ســـــاحة منزلــــه بمدينـــــة لاهــــور الباكســــتانية. متـــاح علـــى الموقـــع :
https://libris.kb.se/katalogisering/nl٠٢xzm٦٤٠٢٧vh٢

وتكون هي ظل الله في الأرض وتحكم بالحق الإلهي ، ولا تسمح بحرية الفكر والأحزاب والصحافة ، بعد ان صنفت نفسها بحزب الله والمعارضة لها بحزب الشيطان[١].

وواضح من تعامل الأزهري مع مفردات الشريعة ألإسلامية وأصولها ، انه يجيز القول بإمكانية ان يقوم هذا الكتاب على فكرة واحدة أساسية . فألإسلام ليس عبادات فقط بل هو أيضًا تشريعات وعقوبات ونظام سياسي، وهنا الخطورة من وجهة نظر الكثير . ومن ضمن ما يقوله الأزهري من الدوافع هو الدافع الاجتماعي حين يجده بمثابة ردة فعل لما يعانيه المسلم والعربي في بلدانهم من هضم وظلم ، فكانوا حسبما يرى الأزهري ، منتظرين ما سيحل بهم من متغير يخرجهم من الجحيم الى النعيم . وعلى هذا الأساس ، كانوا يندفعون إلى تأكيد تطبيق الشريعة استنادا الى أملهم بان ذلك يعني لهم النجاة . ويضيف الأزهري دافعا أخر وجده عاملا مؤثرا في قيمة الإنسان العربي من حيث مقارنته بالإنسان الغربي ، حين وصف العربي بالحالم والعاجز عن تحقيق أماله وتطلعاته في اليقظة ،ليلجأ من ثم الى ان يحلم بما يريد في مخياله اليومي . فالكثير ممن شعروا ويشعرون بما بينهم وبين أقرانهم من الشعوب الأخرى من تباعد في المستويات العلمية والأدبية والعسكرية ، فهم يطمحون في أن يروا على الواقع فضاء جديدا من التنوع المعرفي تكون مخرجاته التفوق في مجال الصناعة العسكرية والمدنية ، وهذا التحول في مجال العلم والعلوم في حياة العربي والمسلم ، يكمن حسب ما يتوقعه هؤلاء بتطبيق الشريعة ألإسلامية . ويمضي الأزهري في تتبع ما يراه من دوافع تكمن وراء تمني البعض لتطبيق الشريعة ألإسلامية ، فكان الدافع الاقتصادي واحدا من تلك الدوافع الهامة في تمني تطبيق الشريعة ألإسلامية ولا سيما أولئك الرأسماليون ممن يتاح

---

١ الأزهري : خليل عبد الكريم ، لتطبيق الشريعة لا للحكم ، د ط ، دت .

لهم مزاولة أي نشاط (غير محرم) ما داموا يدفعون الزكاة منوها بشركات ومؤسسات خدمية تزاول هذا اللون من التعامل المادي . ونوه الأزهري ان تلك النشاطات لا تشمل أو تخدم القاعدة العريضة من جماهير المسلمين ، بقدر ما تلبي شهوات أصحاب الدخول الطفيلية الانفتاحية . ومن بين تلك المؤسسات ينوه الأزهري بمؤسسات من مثل بعض المصارف وشركات توظيف الأموال ممن ترفع شعارات إسلامية تشرعن لنفسها وتجيز التعامل بما تذهب إليها من تداول وتحريك ربوي لتلك الأموال ، وأجد في طرح الأزهري لهذا الموضوع تفسيق لبعض العلماء المسلمين من خلال تأكيده تشريع هؤلاء العلماء لمثل تلك القوانين بإصدارهم فتاوى تجيز هذا التعامل من خلال أعطيات ومكافآت يحصلون عليها مقابل تلك الفتاوى أو أنهم يوجهون بالاعتماد على القطاع الخاص أكثر من الاعتماد على القطاع العام ، وبذلك يهيئون الظرف المناسب للسيطرة على الاقتصاد وتشكيل حكومة دينية ظل الله في الأرض وليس في الإمكان أبدع مما كان .

ومن ضمن تلك الدوافع الهامة هو الدافع الخارجي ، بما يحمله ويمثله من واقع خطير ، تعول عليه الدوائر المعادية لاستغلال الدول الضعيفة . ومن خلال محورين مثلا هذا الدافع أشار الأزهري إلى الشق الأول وهو محاربة الأفكار الاشتراكية بما كان يمثله توجه واضح لماهية ألإسلام من حيث بنيويته المعنية بالعدالة والوقوف ضد الهيمنة والاستبداد . أما الشق الثاني لهذه المعادلة ، فيتمثل بالمحاولات المستمرة للدوائر الاستعمارية لشق وحدة الصف الوطني بين الأقباط وبين العرب[1] .

---

١ ففي عهد التخلف العثماني والمملوكي كان الأقباط يعاملون وكأنهم مواطنون من الدرجة الثانية ، فلا يسمح لهم بتسنم المناصب الحكومية وعلى النسوة إن يلبسن النعل او الحذاء من لونين كل فرد من لون ليسهل تمييزهن عن العربيات ، الى جانب الإذلال المتعمد للرجال في الشارع العام او الخاص . للمزيد ينظر :سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصري في عهد المماليك ، دت.

وهذه الممارسات والتي لا تزال شاخصة في ذاكرة الأقباط لا يمكن ان تمحى مع تغير الأحوال ، ولكن الانكى من ذلك ، فان الدعوة لتطبيق مبادئ الشريعة ألإسلامية على وفق النظرة الضيقة أمام فتاوى شيوخ باعوا ذممهم ، لا يمكن إلا وان تشعل فتنة طائفية لا يعرف عقباها . وبالتالي سيسهل على بني صهيون السيطرة على أمة العرب بسهولة بعد ان فرقتهم شيعا .

ويضيف الأزهري وبكل جرأة أدبية ووضوح لتلك الدوافع ، يضيف الدافع العربي مستذكرا حملة محمد على باشا الكبير بقيادة ابنه إبراهيم على والمعروفة بالحملة الوهابية . وإذا ما مرت مصر بهذا الشكل المتدهور والانحطاط السياسي ، فان المملكة السعودية تعمد الى الأخذ بثأرها من مصر لتكون ذيلا لا ندا له[١] .

وهنا نتفق اتفاقا متضامنا مع ما ذهب إليه الأزهري إزاء النظام السياسي في السعودية ، حين لبس لبوس الدين ليعتمده وسيلة لغاية تتمثل بتضعيف العرب وتتحيفهم وتقزيمهم باسم الدين ، عندما راح يُكفِّرْ ما يشاء من الأنظمة العربية ويسعى بكل ما أوتي من إمكانيات مادية لتذليل أنظمة الدول العربية وإشاعة الفوضى والتفرقة الطائفية بين مكونات شعوبها ، كي تخلق من تلك الدول العربية أذناب مطيعون لها ، وبالتالي الوفاء لمن جاء بهم الى سدة الحكم وحماهم ودافع عنهم ، وهو أمر لا يخفى على الحصيف من العرب والمسلمين . لدرجة ان القضية المحورية للعرب والمسلمين باتت بحكم المنتهية أو تكاد تكون من الماضي فلا حقوق فوق حقوق بني صهيون . وبات الأعلام العالمي يتجه الى ما يحدث حاليا من هدم لكيان الأمة العربية والإسلامية أو ما أسمته الناطقة باسم الحكومة الأميركية بالفوضى الخلاقة ، والتي من شانها أن تؤسس لعالم جديد يكون للكيان الصهيوني اليد الطولى وهي تتوسط دولا أشبه ما صارت إليه بخيال المآتى ، لا

١ الازهري : للشريعة لا للحكم ، ص١٠ .

تهش ولا تنش . وبذلك يحفظ لإسرائيل أمن دولتها ومن ثم السماح لها بالتمدد متى تشاء وكيفما تريد وتشتهي . وليس ببعيد ما حصل لمصر من تفتيت لوحدتها ونخر لقوتها ، حين أوهمت الإخوان المسلمين بان الشعب المصري يبتغي قيام دولة تنتهج الشريعة ألإسلامية في الحكم ، كما هو الحال فيما انتهجته الوهابية المقيتة إزاء الشعب السعودي وجعلت منه أضحوكة أمام الشعوب الأخرى عندما راحوا يرفعون شعار الدين في يد والمجون والإرهاب في اليد الأخرى . وبذلك جعلت من ألإسلام السني ضحية لينكمش أتباعها ، بعد ان التصق به قادة الإرهاب وصناع الموت ، وهو ما أوحى للشعوب الأخرى أن الدين ألإسلامي ليس بدين التسامح والسلام ، بل انه دين القتل وسفك الدماء ، وهو الهدف الذي يسعى إليه الاستكبار الأميركي والصهيوني للحيلولة دون المد ألإسلامي عقب الانتشار الرهيب لمبادئ ألإسلام والإقبال على اعتناقه .

ويخلص الأزهري الى نتيجة ، استشرف فيها مستقبل الأمة العربية ، ذلك المستقبل المهلهل الذي أوجدته له الخيوط الخفية أو ما أطلق عليها بالدوافع الخارجية ، بحيث باتت كل الدوافع التي مررنا به ، مرتبطة بهذا الدافع الخارجي الذي بات خياره تحريك تلك الدوافع انى تتطلب مصلحته إلى جانب تصوير وقولبت ظروف الأمة بحيث تتماها وأهداف أعداء ألإسلام وأعوانهم . على أن الأزهري أوجز موضوعة كتابه بأنه بمثابة إجابة على التساؤل عن حقيقة ما أراد الله من قوله (ومن لم يحكم بما انزل ، فأولئك هم الكافرون . الظالمون . الفاسقون) ، هل أن المقصود هنا هو إقامة الحدود التي وردت على سبيل الحصر في الشرائع السابقة والشريعة ألإسلامية ، أم أن الحكم بمعناه العام كما يذهب إليه السلفيون الجدد وأصحاب تلك الدوافع ، ولا سيما ان البعض منهم كان لديه دافع حسن نيه في حين كان الآخر يحمل نية سوداء وسوء نية وخبث طوية ؟ مؤكدا أن الإجابة عن ذلك السؤال أنما يمثل الموضوعة الرئيسة لكتابه هذا المؤلف من ثلاثة فصول تطرق

في الأول منها الى بيان أسباب نزول تلك الآيات ، موردا عدد من التفسيرات والرؤى التي لا يشك بمصداقية قائليها[1] . وفي الفصل الثاني من الكتاب يتحرى الأزهري آلية تفسير السلف الصالح هذه الآيات بعد أن شعر بوجود مفارقات كثيرة بين ما ذهب إليه السلف الصالح في تفسيرهم لتلك الآيات ، عما ذهب إليه بعض السلفيين الجدد والذي يرى ان طموحات سياسية هي التي تدفعهم لهذا التأويل المغاير لتفسير السلف الصالح[2] .

ووجدنا أن الأزهري يقفز في تسلسل فصول كتابه من الثاني إلى الرابع الذي جاء وهو يحاكم الهضيبي[3] وما ذهب إليه من تفسير الحاكمية . وفي هذا الفصل يقف عند مبررات مبدأ العنف الذي كانت تنتهجه بعض الحركات ألإسلامية وما تذهب إليه من تكفير للحاكم و [والرعية على حد سواء] مشيرا الى سببين أثنين هما : انبهار زعماء تلك الجماعات بنظرية الحاكمية التي تبناها وأشاعها الشهيد سيد قطب[4] متأثرا بأبي الأعلى المودودي الى جانب ما لقيه زعماء وأعضاء تلك

١الأزهري : للشريعة لا للحكم ، ص١٥.

٢ المصدر نفسه : ص٢٠.

٣ المستشار القاضي حسن إسماعيل الهضيبي (١٨٩١ م – ١٩٧٣ م) المرشد الثاني لجماعة الإخوان المسلمون ويصفه الإخوان بأنه المرشد المتحن نظرا لأنه تولى إرشاد الجماعة في أثناء فترة الخلاف مع رجال الثورة وعلى رأسهم الرئيس الراحل جمال عبد الناصر وهي السنوات التي قتل فيها العديد من شباب الإخوان في معتقلات الواحات والسجن الحربي من جراء التعذيب إذ كان النظام يحاول أن يصفي جماعة الإخوان المسلمين بالقوة.

٤ سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي (٩ أكتوبر١٩٠٦ م٢٩ أغسطس م ١٩٦٦

كاتب و شاعر و أديب ومنظر إسلامي مصري، مؤلف كتاب في ظلال القرآن . وعضو سابق في

الجماعات في السجون والمعتقلات عندما قبض عليهم في سنة ١٩٦٥ ، ثم محاكمتهم التي انتهت بإعدام سيد قطب ورفاقه[١] . هذه التبريرات يؤكد الأزهري أنها تقف وراء فوران الشباب وشعورهم بالمرارة ، الأمر الذي ولد عند هذه المجاميع من الشباب الرغبة في اعتماد العنف لتحقيق غاياتهم ، وربما كان لنمط الحاكمية أداة تشجيع وحث على سياسة العنف والتكفير[٢] . أما الفصل الخامس وكان عنوانه " لماذا الحدود"وفيه يقف الأزهري عند أسباب نزول الآيات المتعلقة بكبائر الذنوب . ومن لطائف الشيخ الأزهري انه يحيل من يبتغي الاطلاع على شرح هذه الكبائر الى كتاب "التشريع الجنائي ألإسلامي "للشهيد عبد القادر عودة ، معترفا في الوقت نفسه باستحالة أن يماري في هذه الحدود او القول بأنها قاسية ولم تعد تناسب عصرنا . ويؤكد أن هذه القضية الاجتماعية لا يمكن بمكان الدفاع عنها بكل ما هو متوفر من قوة ، فالشريعة ألإسلامية ثورة دائمة ضد كل أنواع الطغيان ولا سيما طغيان الحكم والمال[٣] . ويشترط الأزهري بمعالجة تلك الجرائم ، بان يخلقوا مجتمعا صالحا خالٍ من الآهات والاهانات وان لا تتفاوت الدخول تفاوتا مخلا بكل

مكتب إرشاد جماعة الإخوان المسلمين ورئيس سابق لقسم نشر الدعوة في الجماعة ورئيس تحرير جريدة الإخوان المسلمين.

١ لتطبيق الشريعة ... لا للحكم : ص٣٥ .

٢ الازهري : للشريعة ، ٤٥ .

٣ لتطبيق الشريعة لا للحكم : ص٤٥

المقاييس[١] ، وتلك هي روح ألإسلام وهذه الحدود لا بد وان تتفق وسنن الله وشريعته[٢] .

ومن الواضح أن الأزهري ، أراد أن يتسلسل بذكر موضوعات مؤلفه هذا لغاية يضمرها في نفسه ، تتمحور حول وعاظ السلاطين ممن أحاطوا بالحاكم المستبد لتزيين صورته ، فأصبحوا أذلاء ، وان مقتلهم بات مشروع موضوع متى ما شاء السيد ان يقتله ، ولا نعني هنا بقتل الجسد بقدر ما هو قتل لروح المبادرة وإذلال للنفس أمام طاغية ومستبد . ولتقريب المعنى ، ساق مثالا وجده متجسدا بما يذهب إليه من مقاربة مع ما يحصل في رجال المنابر في السعودية ، وفي السودان ولم يستثني حتى إيران والباكستان[٣] .

وبعد أن وقف أمام معنى الحدود ومساحة سطوتها داخل المجتمع ألإسلامي ، وجدنا في الفصل الخامس وقد أفادنا بخلاصة شافية لفعل العمل الصالح مع اختلاف الأزمان ، فهو يحذر من إسقاط حالة في زمن متقدم على حالة كانت في الماضي ، وهو أمر مستحيل وغير منطقي لوجود المتغيرات في حياة الإنسان والتي تأت نتيجة اختلاف ظروف الإنسان من مرحلة إلى أخرى ، وهو ما ينسحب على حياة الأفراد ما بين الماضي وبين الحاضر مع بقاء الثوابت معمول بها دون تلاعب أو تمحيص[٤] .

---

١ وكشاهد على هذه الحالة المزرية ، هو ما تعيشه الشعوب العربية من تفاوت بينٍ وواضح بين طبقات المجتمع الواحد .

٢ المصدر نفسه :ص٤٥

٣ المصدر نفسه : ص٥٠

٤ الازهري : المصدر نفسه ،ص٥٤

ومن الأمور التي وقف عندها الأزهري وأشار إليها منتقدا طبيعتها ومستنكرا ان الرسول قد أفتى بها ، فقد أورد أحاديث لعدد من الصحابة تتطرق لمختلف مسائل الحياة وكيفية معالجتها ، ووجدناه يوجه اللوم الى من نقل عنهم هذه الأحاديث ، وعلى وفق سذاجة معانيها وغرابة أحكامها ، كان من الممكن على الشيخ ان يشكك بمصداقية مدونها لا من قيل انه قائلها ، ولا سيما ان الإمام علي(ع) والخليفة عمر وغيره ممن أورد عنهم تلك الأحاديث لا يمكن ان يعمدوا الى مثل هذه الأفعال بحيث يتجاوزا الشرع وما يقوله رسول الله . وواضح ان الشيخ ينطلق في منهجه الناقد هذا من فكرة سيطرت على تفكيره ، نتيجة جنوح بعض الصحابة عن جادة الصواب قصدا في رواية الحديث او عن جهل أصابهم . ومع ذلك فهو يعمم هذه الإشكالية ، حين يرى ان ما ساقه من تلك الأمثلة ، نتلمس فيها المرونة والتسامح في فتاوى الرسول على العكس مما اتصفت به ما أطلقه الصحابة (السلفيون) من جمود وتمسك بالحرفيات[1] .

ووجدنا قفزا أخر في تسلسل الفصول ، فبدلا من ان يتحدث عن الفصل السادس ، نجده يتحدث عن الفصل السابع والذي أعطاه عنوان " جهاز الحكم أو القضاء . وفيه يوجه اللوم إلى الأنظمة العربية الفاسدة ويرى أن ما أصاب المسلمين ودولهم من تأخر ، هو بسبب سلوكية وتوجهات واجتهادات أرباب تلك الدول وتفسيرهم الخاطئ للشريعة ألإسلامية حين فضلوا مصلحتهم على الشرع وحقوق الشعوب الذي كفلته تلك الشريعة السمحاء . وقد أشار الى عدد من أولئك الزعماء ممن أقحموا أنفسهم بأمور الدين والشرعنه ، وما علموا ان هذا السلوك عاد عليهم بالوبال واللعنة بدلا من نصرهم للقضية ونشر ألإسلام ، وكان لجعفر النميري وجمال عبد الناصر والسادات وغيرهم من قادة العرب ، قد اقترفوا هذا الفعل فكانت ردة الفعل

---

١ الشريعة : ص٦١.

أقوى بكثير مما كانوا يتوقعونه ، مؤكدا ان القضاء يعد أساسا جزء من الإمامة العظمى التي يتولاها ولي الأمر ، كإمامة الصلاة وقيادة الجيوش وهذا السلوك قطعا كان في عهد الرسول ولربما في أوائل قيام العهد الراشدي ، إلا ان هذا تحول الى حدث أوسع وأعمق حين تحولت الدولة الى إمبراطورية بعد اتساعها وكثرة إنفاقها . وعندما اتسعت الدولة أكثر مما كانت برزت الحاجة للعودة الى ما أقره الرسول الأعظم من القول : بضرورة درأ الحدود بما يمكن للمسلمين ، فان وجد للمسلم مخرجا فخلو سبيله ، فان الإمام لئن يخطئ في العفو خير له من ان يخطأ بالعقوبة . ووجدنا الأزهري وكأنه يلقي بالكرة في ملعب القضاء لبيان صحة ما يسير عليه القضاء في المجتمعات ألإسلامية من مسار صحيح او من عدمه ، وقد اورد عدة تساؤلات ، وجد ان الإجابة عنها تمثل المصداقية والأسلوب المثالي في تطبيق الشريعة ألإسلامية السمحاء ، فهو القائل في مجال الشهادة مثلا :

. كم من أولئك الأفاضل يعلم :

١_ متى يجوز الحكم بالشاهد الواحد بلا يمين ؟

٢- = = = = = مع اليمين

٣. = = = بالشاهدين من غير يمين ؟

وهكذا يتدرج بالأسئلة حتى يصل الى السؤال الهام :

. ومتى وهل يجوز تحليف الشهود عموما أم ان هناك مواضع لتحليفهم ، وما هي ؟ ويسأل : وهل تقبل شهادة أهل الذمة على بعضهم ؟ وما الحكمة في اشتراط شهادة أربعة شهود في الزنا والاكتفاء بشاهدين في القتل مع ان الأولى أخف من الثانية بما لا يقاس عليه ؟

والأزهري بهذه التساؤلات يبتغي القول ان ألشريعة ألإسلامية تحتاج أحكامها لدراسة متأنية من الذين يقومون بالحكم بها بين الناس ، ليخلص الى القول بضرورة الالتزام بالشرع ورضا الله والضمير في الحكم بين الناس ، منتقدا بشدة من يساوم على قول

الحقيقية وطمسها في مقابل جاه أو قليل سلطان كما حصل فيما ذهب بعض القضاة إبان حكم جعفر النميري للسودان !!!.

ويعترض على ان يكون القضاء في ألإسلام جزء من الإمامة باستثناء هذا الأمر في عهد الرسول والخلفاء الراشدين حتى الثاني ، حين اتسعت الدول ألإسلامية وبدأت تتحول الى إمبراطورية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، إذ أورد أسماء عدد من أولئك القضاة الأفذاذ . والى جانب ذلك ، أوجز الأزهري عدد من المزيات التي لا بد للقاضي ان يكون موصوفا بها بما في ذلك : التقوى والعلم والمعرفة والذكاء والحلم ، مؤكدا ومركزا على صفة التقوى بوصفها الوعاء الذي تنطلق منه كل الصفات الحسنة[1] .

ويطالعنا الشيخ برأي أراه جدليا وبحاجة لمناقشة ، حين جاء فصل كتابه الثامن وهو يحمل عنوان : " طلب التطبيق الفوقي " بمعنى ان الطبقة العليا والبيروقراطية من المجتمع هي أكثر من غيرها من شرائح المجتمع ألإسلامي التي تستغرق في طلب تطبيق الشريعة لا لشيء سوى أنها من الممكن أن تحفظ لهم امتيازاتهم وأموالهم . ولعلي أرى في هذا الأمر غرابة في الطرح ، الجماهير هي الرائدة في مثل تلك المطالب ، لكن الذي لا يتفق مع هذا الرأي أولئك الذين ينادون بضرورة رفع أصواتهم أو القيام بالتحرك الثوري للانقلاب على الواقع المتردي . أقول ان هذه من الثوابت ، الطبقة البيروقراطية تحاول بذل جهد الإمكان العمل من اجل الإبقاء على الوضع كما كان لان ذلك ضمان لمصلحتها ! ولكن في الطرف الأخر ، وممن يفتقر لهذه النعمة المصادرة عنه ، يحاول إحداث التغيير وقلب الموازين ، وهو ما من شأنه أن يشيع نوع من العدالة الاجتماعية بل وسيكون هناك نوع من العدالة المجتمعية التي هي بكل تأكيد ستكون حائلا دون انشطار قاتل في

---

١ الازهري : للشريعة ، ص٧١ .

المجتمع الواحد. وفي واقع الأمر يرى الأزهري ان الجهل في المجتمعات كلما كثر المزايدون على حقوق الشعب ، كلما ازدادت الجماهير جهلا ، وهذا ما يحتم تصويبا جذريا لتك الحالة ، بما يستدعي إرشادا وإصلاحا ومع انه يؤمن ويؤكد ان ولوج هذا الطريق من شانه ان يهيج العواصف الترابية ويكثف الزوابع الرعدية ، فيكون الأمر شاقا ، ومع ذلك فلكل داء دواء ، وهناك من الطرق الحيوية الكفيلة بقلب تلك المعادلة والحظوة بواقع متزن ، ولكن بعد ألتي واللتيا واللتان والتحري وبذل الوسع والجهد وحينها سيدرك المسلم المجاهد ان ما كان حلما بات حقيقة وواقعا ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله وينتهي الأزهري الى القول بان صلاح المجتمع من صلاح الفرد ، ولكن هذا لا يعني ان تفرض السلطة رغبتها وتوجهها السلفي او ما شابه على موظفي الدولة او حتى العامة وان يسيروا على وفق ما يرونه مناسبا للشريعة ألإسلامية حسبما يفهموها ، بل العكس فان إصلاح ذات الأمر لا يمكن أن يأت على وفق أوامر ونواهي بقدر ما يجب أن ندرك أن هناك نواميس كونية وقوانين طبيعية هي التي تفرض التغيير على الإنسان من دون اللجوء الى الأوامر والنواهي ، وهذا ما يراه الأزهري ، ومع ذلك ، لا نريد ان نذهب بعيدا مع رأي الأزهري ونتفق معه في كل ما طرحه من رؤى ، بل كان عليه ان يدرك ان العربي والمسلم ومنذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة ، وهو مجبول على نمط من التعليمات والتوجيهات ، لا يمكن له ان يحيد عنها فيصبح منبوذا مبتورا . ولا يمكن وهذه الحالة وهذا التطبع من الالتزام بالأوامر والنواهي أن يُترك له الأمر باختيار ما يريد ويترك ما لا يريد . فهناك ممنوعات وهناك خطوط وحدود ، واعتقد ان ما يميز الشعوب العربية والإسلامية ، لا سيما بالتماسك الأسري والقيادة الأبوية ،يعود في معظمه إلى هذا السلوك ، فان إفشاء عادات وقيم لم يعتد عليها الفرد ، ويشعر انه مجبول على تقمصها ، فان هذا المتغير في حياته ، سيكون له تأثير سلبي أكثر منه إيجابا ، وبالتالي فان التغيير في بنيوية الفرد العربي والمسلم ، لا

يمكن ان يحدث بين ليلة وضحاها ، بقدر ما يجب ان يكون تدريجيا ، آخذين بنظر الاعتبار ماهية الفرد وطبيعته ومستواه الحضري ، والتصاقه بمجموعة قيمية رصينة لا يمكن الفكاك عنها لمجرد أراد ولي الامر او السلطان ان يكون الامر ، هكذا ! وبالعكس فان هذا الفرض من شانه ان يوّلد حالة من ردة الفعل لا يمكن ان تحسب عقباها أو ان تسير على وفق ما أُريد لها من نجاح في تغيير الواقع . ولنا في ذلك تجربة ، اذا ما عدنا الى التاريخ الوسيط وبالذات الى عهد المبعث النبوي ، نجد ان الرسول المسدد خطاه من الله تعالى ، اقتضى منه أكثر من عقدين من الزمن من الكدح والجهد الشاق وهو القوي الامين كما وصفه الله تعالى بقوله : بسم الله الرحمن الرحيم : ذي قوة عند ذي العرش مكين) .

أما في فصل كتابه التاسع والمعنون بـ"حديث خرافة" يقف الأزهري منتقدا بعض الآراء التي تبناها أصحابها والتي منها ان الشريعة ألإسلامية توقف الأخذ بها بحلول غزوة نابليون لمصر ، وهي كانت فاعلة معتمدة منذ الفتح وحتى غزوة نابليون ! هذا رأي لم يتفق معه الأزهري ، ليتحول في ذات الفصل الى الرد على أصحاب هذا القول مستشهدا بما ذهب إليه العقاد من القول ان : كل حدث تاريخي لا تسنده أدلة علمية وبراهين فهو لا يعتد به . ومن ذلك فانه يذهب الى القول الذي التزمه السلفيون بأن الشريعة ألإسلامية بدأت تتضعضع مع دخول نابليون لمصر . وإنكاره لهذا الرأي مستندا الى شواهد تاريخية لا نعتقد انه أصاب كبد الحقيقة التاريخية في هذا الشأن . فهو يدعي ان تاريخ مصر منذ العهد الطولوني فالإخشيدي والمماليك وغيرهم ، لم يكن الأمر للمصريين ، ولم تكن الشريعة ألإسلامية سائدة في مصر بدلالة ابتعاد التطبيق ألإسلامي على النواحي السياسية والاقتصادية بدلالة وراثة العرش من الأب إلى الابن واكتنازهم الذهب والفضة وتسيدهم على المشهد السياسي للدولة وهذا النهج لم يكن عاما بل يخص الفئة الحاكمة والتي لا تمثل الرعية بشيء سوى القيادة القصرية ، وهذا السلوك صحيح

انه يتنافى والشريعة ألإسلامية وهي ما يدخل في المعاملات ولكن . وكما نوهنا . أنه يخص الفئة الحاكمة . ونعود لنقول : أو هل تأثر الشق الآخر من الشريعة وهو العبادات ، الم تكن المساجد عامرة والآذان قائم والشعيرات مستمرة والتبشير بالإسلام على أشده ، وهذا ما يفضي الى طبيعة السلوك المترتب على العبادات وضوابطها الشرعية . وهذه الحالة تنطبق تماما على كل الدول ألإسلامية التي أعقبت دولة الراشدين ، فلماذا نفصل ما بين الاثنين ، او هل السبب ان القائمين على تلك الدول ليسوا من العرب ، أو لم يكن الدين ألإسلامي دينا امميا ولم يكن مقتصر على العربي او الفارسي او الهندي . كل العهود التي مرت بها مصر منذ الفتح وحتى دخول نابليون تعتمد الشريعة ألإسلامية وتنتهج ذات النهج للدول المتعاقبة ، ولم تتمكن إرادة الأمراء او الحكام من غير العرب أن يزحزحوا قيد أنملة المسلم عن إسلامه سواء كان عربيا او أعجميا . ويذهب الأزهري بعيدا جدا حين يقتبس نصوصا تاريخية من بعض الكتب فيها إسقاط لهوية المسلم وعنوانه من خلال اعتماده لسلوكيات أقرب ما تكون لأفعال الحيوانات حين يأكل بعضهم بعضا . ونحن ندرك أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم ولا يمكن بأي حال من الأحوال ان تتدنى وتنتهي أحاسيسه بحيث يمضي وبسبب الجوع الى اكل لحم أخيه ليسد به رمق الجوع الذي خيم عليه كما هو النص الذي اقتبسه من كتاب " تاريخ الدولة الفاطمية للدكتور حسن إبراهيم ومن كتاب أبن إياس حين يؤكد في كتابه " المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور " ان طائفة من الناس كانوا يجلسون على السقائف فإذا مر بهم أحد من الناس ، ألقوا عليه تلك الحبال ونشلوه بتلك الكلاليب في أسرع وقت ، فإذا صار عندهم ذبحوه في الحال وأكلوه بعظامه . ويمضي الأزهري لاقتباس روايات ، عجبت منه كل العجب ان يعول عليها في توصيف حال المسلمين في عهد من العهود لمجرد ان مروا بحالة فاقة وعوز وجفاف !! . وقد نسي ان الله في محكم كتابه الكريم أكد ان المسلم مهما كان

مقامه لا يمكن ان يصل الى هذا الحد ، بل ان الانسان بحد ذاته مجبول على الامتناع عن مثل تلك السلوكيات كما في قوله تعالى : **أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ ان يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ" وهنا تأتي الآية كناية عن تحريم الغيبة** والنميمة ، وبما ان لحم الإنسان مما تنفر عن أكله الطباع الإنسانية، وتستكرهه الجبلة البشرية، فضلاً عن كونه محرّماً شرعاً " فَكَرِهْتُمُوهُ ".فان الغيبة بهذه المنزلة من التحريم . وهذا بحد ذاته يبطل النصوص التاريخية التي اعتمدها الأزهري ، وكان به وهو الضليع بالفقه ألإسلامي ان لا يتقبل ما يمر به من نصوص وروايات تاريخية على أنها أمر مسلم به ، وأنا بدوري أجد أن مثل تلك الروايات الدخيلة على تاريخ أنقى ما أراد الله من خلقه من البشر ، لا تتعدى محاولات تشويه للتاريخ ألإسلامي ، كحال بعض القصص والروايات الأخرى من أمثال آيات الغرانيق[١] .

وتأكيدا لما نذهب إليه ، فقد حذر العلماء من اعتماد كتاب " بدائع الزهور ..." ، وبينوا ان الغالب عليه الأحاديث الموضوعة، ولعل هذا سر قول المؤلف في آخره (ص– ١٩٣): «وأنا أسأل الواقف عليه أن يصلح شيئا لا يوافق لديه . وقد حذرت من هذا الكتاب اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء (٢٦/١)؛ رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء – الإدارة العامة للطبع – الرياض فقالت جوابا على السؤال الثالث من الفتوى (رقم ٧٨٢) ما نصه: «... وان يتجنب القراءة في الكتب التي ليست مأمونة مثل كتاب "بدائع الزهور في وقائع الدهور"، فان مؤلفه وأمثاله هم الذين يذكرون مثل هذه الافتراءات، والله أعلم.وسئل فضيلة الشيخ ابن باز رحمه الله عن هذا الكتاب (بدائع الزهور في وقائع الدهور (هل ما جاء في هذا الكتاب

---

١ لمزيد عن هذه الروايات الدخيلة والمغرضة نحيل القارئ إلى كتابنا المعنون " من الإيمان إلى الإلحاد ... رحلة لم تنته .. دراسة تحليلية ونقدية لكتاب الشخصية المحمدية ، حل اللغز المقدس ، دمشق ، مكتبة عدنان ، ٢٠١١ .

يعتبر من الصحيح ؟ فأجاب رحمه الله: ((لا يعتمد، هذا الكتاب خرافي لا يعتمد، ولا يعول عليه .((فينبغي ان يعلم ان هذا الكتاب وهو (بدائع الزهور) ليس من الكتب المعتمدة، بل هو حاطب ليل يخلط الحابل بالنابل ، يذكر الغث والسمين والصحيح والباطل، فلا يعتمد عليه، وأخبار بني إسرائيل أخبار قديمة لا يعتمد عليها إلا ما ثبت عن الله وعن رسوله محمد عليه الصلاة والسلام .

وبذلك نجد ان الأزهري لم ينتبه لجودة ورصانة ما ورد في كتاب بدائع الزهور ويسوق لنا ما يسوقه لترصين ما يذهب إليه من الروايات التاريخية استدلالا منه على وجود الشريعة ألإسلامية من عدمه في مصر ما قبل غزو نابليون بونابرت ، ولما كانت المقدمات غير رصينة فالمنتج سيكون قرين به . ومن الواضح ان الروح الشفافة ورقة الخلق التي ترترع عليها شيخنا الأزهري ، جعلت منه ضعيف أمام مواقف لتعذيب أي إنسان ما ، فالدولة باتساعها وتفاوت مقدرات حكامها ومدى استيعاب احدهم لماهية الشريعة عن غيره من الحكام ، وأمام هذا التفاوت ، فمن المستحيل ان يحصل هنا وهناك قفز على الشريعة أو الإفتاء ، بل لكثر ما نجد من الشيوخ ورجال الدين من يشرعن لنفسه طريقة معينة يرى فيها تطبيق للشرع ، على الرغم من عدم اعتياد العين البشرية عليه . وعلى سبيل المثال يذكر الأزهري نقلا عن سعيد عبد الفتاح عاشور عن العقوبات الرهيبة التي ابتدعها سلاطين المماليك والتي لا تمت بصلة الى الشرع بأدنى صلة ، عدا السجن والإعدام ، فهناك التشهير والتجريم حيث يطاف بالشخص على حمار ويضر ب الجرس على رأسه ، ويقول في محل آخر : " وقد قبض على إنسان زعموا انه نبش القبور على الموتى ، وكان يسرق أكفانهم ، فأمر السلطان بسلخ وجهه وهو حي ، فسلخوه من رأسه الى رقبته ثم علقوه على باب النصر واستمر معلقا الى ان مات ". نعم هذا الافتراء كان موجودا منذ قرون في حياة الدولة ألإسلامية والعربية وألان أزداد أضعافا أمام فتاوى ما انزل الله بها من سلطان !! أو هل يجوز ان ننكر وجود الشريعة

ألإسلامية في تاريخانية الدولة ألإسلامية لان فيها من المارقين والخارجين عن العرف وشرع الله ؟! بالتأكيد لا، نعتقد ان هذا غير منطقي ولا يمكن تمريره .
ويلتفت الأزهري الى الحالة الاجتماعية للدولة ألإسلامية ما بين الفتح العربي لمصر ومجيء نابليون ليؤكد انها أشارة لخلو تاريخ الدولة العربية والإسلامية إبان تلك المراحل من الشريعة ألإسلامية مستشهدا بذات الأدلة والقرائن للوضعين السياسي والاقتصادي التي أشار إليهما مسبقا ، منوها بما شهدته الدولة الطولونية ، وبالذات أيام حكم الأمير أحمد بن طولون من تناقضات في إصدار الأحكام والتشريعات . وكذا الحال للدولة الإخشيدية حين اقتبس عن كتاب مختصر كتاب البلدان للهمذاني ابن الفقيه حين ميز المجتمع الى طبقات دنيا ووسطى وعليا . ونحن نسأل شيخنا متى حلت العدالة الاجتماعية في أمة العرب والمسلمين بحيث انطبق الحديث الشريف عليهم ، كلكلم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ؟ ومثلكم كمثل أسنان المشط ؟!!! هذا التفاوت الطبقي موجود منذ ان حلت الساعة وما من مجتمع مهما كانت قيادته وسياستهم تتصف بالديمقراطية وعنوانها العدالة الاجتماعية ، لا يمكن إطلاقا ان يمضي الشعب في حياته بدون تفاوت طبقي لينعكس على التفاوت في مجمل حياة الإنسان . وحينها نكون ملزمين بالقول ان العدالة الاجتماعية ومنذ ان ولد الانسان على الارض ، فهو يفتقر إليها ، وهو سبب الحركة وهو سبب التحول من الينن الى اليان وهو سبب قيام دولة وسقوط أخرى وظهور بطل في التاريخ وقاتل فيه . وهذا هو ديدن الإنسان ولله في خلقه شؤون . وهذا التفاوت وتلك الإيماءات والخلاصات انتهى إليها الأزهري أيضا إبان العهد الفاطمي ، مستشهدا بأدلة هنا وهناك تفيد بتوافق ما يذهب إليه . ومع ذلك وقفنا ونحن لا نتفق مع الشيخ في هذا التوجه ، وقفنا عند روايات ساقتها مصادر وقد عول عليها دون محاكمة نصوصها ، وكأنه أمر مسلم به لا لشيء سوى ان المؤلف له عدد من المؤلفات والتي لا نعلم لربما هي أشنع وأكثر سذاجة من كتابه هذا المعنون بـ "بدائع الزهور " والذي

أسقطنا منه الرصانة والأمانة العلمية بشهادة متخصصين ومؤسسات علمية . وهذا الأمر يستمر عند الأزهري حين حديثه عن الدولة الأيوبية وكذا الحال لدولة المماليك التي تحدث عن حالات تعاطي الخمر والأفيون وانتشار اللواط بين القادة والسلاطين وكذا عامة الناس ، وكل تلك الملامح اقتبس جلها من كتاب " بدائع الزهور " . وحين ينتهي الأزهري من الحديث عن مرحلة سبعة قرون لم يجد فيها من أثر للشريعة ألإسلامية ، ومن المؤكد انه نظر الى الجانب المعتم لتاريخ الدولة العربية والإسلامية إبان تلك المرحلة مسقطا هذا الجانب على الجوانب المضيئة في تاريخ تلك الدول ألإسلامية والعربية ، فدمغها وألغى منها الحسِن من الوجود ، ووجدناه يلتفت الى تاريخ تلك الدول مع اختلاف الأنظمة المتوارثة والمتداولة على الحكم ، منتقدا مساراتها في الحكم وتوجهاتها وفلسفاتها التي وجد أنها لا تنطق عن ألإسلام وشريعة الدين بشيء ، كما هو الحال فيما ذهب إليه أنظمة الخليج العربي وبالذات السعودية من استقطاب لعلماء الدين الكبار ومشاهير الدعاة للعمل في السعودية بمرتبات أسطورية بل ووجد ان هؤلاء وصلوا الى درجة القداسة ولا يمكن لأحد أن يعترضهم . وهنا نقف لنعاتب شيخنا الأزهري على ما ذهب إليه من جعله وعاظ السلاطين من العلماء ورجال الدين ، أو لم يبحث هؤلاء عن الجاه والمال كما هو الحال في يوسف القرضاوي الذي ارتبطت سيرته بالإرهاب وتكفير المسلمين هل يمكن ان نقول انه من العلماء المرموقين والمقدسة أسمائهم . انه نكرة لا تستقبله لا دولته الأم ولا غيرها سوى من ارتبط بالصهيونية ، لأنهم بحاجة إليه ولأمثاله لشرعنة ما من شانه أن يشوه صورة ألإسلام والمسلمين . وفي أخر طوافه ، ينتقد الأزهري انتقادا صارما ومنصفا سياسة ال سعود في أسلمه السياسة وليس تسييسا للإسلام ، لأنهم أوجدوا لمنهجهم هذا طريق لم يرض عنه لا المشرع السماوي او المشرع الوضعي . فناصبوا المفكرين الأفذاذ العداء واحتضنوا الحكام الطغاة ولا سيما أولئك من لبسوا لبوس الدين ألإسلامي وتقمصوا شخصية الرجل

المؤمن . ويصل الأزهري الى صب جام غضبه على من أغلق باب الاجتهاد ، معتبرا أن هذا التوجه كان سببا في تحجر الدين . وهو أمر صحيح ، فالاجتهاد يبتنى على أسس وأصول فكرية خاصة ، حيث تُقسَّم الأحكام إلى ثابتة ومتغيرة في معادلة متناظرة لحاجات الإنسان الثابتة والمتحولة. وحيث ان الديانة ألإسلامية من وجهة نظر ألإسلام هي الديانة الخاتمة للشرائع، فقد أصبح الاجتهاد الذي يستمدّ جذوره التاريخية من القرآن والسنة، هو الوسيلة الوحيدة لتطبيق الأحكام العامة على المسائل المستجدة والحوادث المتغيرة .وما من شك ان شيخنا الأزهري يدرك ان الاجتهاد رغم الاختلاف في تحديد هويته، يُعدّ أحد المفاهيم التي اشتركت فيها كافة المذاهب ألإسلامية. إلا أن تلك المذاهب ألإسلامية وان كانت تمتلك القابلية المتقاربة في تفعيل دور الاجتهاد وتلبية متطلّبات الواقع والعصر، لم تتساوَ عمليّاً في آليّات الاجتهاد، واختلفت في بعض الموضوعات لاسيما في العمل بالقياس المحرّم عند أئمة أهل البيت (ع) ، ومتطلبات العصر الحالي بما يحويه من الاختلاف الكبير مع حقائق العصور المتقدمة، وهو على ما يبدو أقنع الكثيرين بالكفّ عن التقليد وفتح باب الاجتهاد، وبالتخلي عن تلك التي تفرض عليهم المناهج التقليدية في الفقه القديم بما في ذلك القياس، وفرض عليهم التفكير في الاعتناء بوسائل جديدة تمكّنهم من استيعاب الخطاب الجديد؛ إذ ان (الفقه لا الشريعة) ، حاله كحال باقي العلوم، له مبانيه وأسسه الفلسفية والكلامية والاجتماعية و.... ومناهجه لا تخرج عن إطار مناهج العلوم البشرية في التطور والتقدّم . ومن الواضح ان هناك اختلاف في مفهوم الاجتهاد ما بين المذاهب الأربعة التي أغلقت باب الاجتهاد وبين ما ذهب إليه المذهب الشيعي من فتح باب الاجتهاد . ومع ذلك ، فثمة لغط حصل بين العلماء حول ماهية الاجتهاد . فكان في البداية استنباطا من ذات الفقيه ، إلا أن ما استجد من هذا المصطلح فهو لا يسمح للفقيه أن يبرر أي حكم من الأحكام بالاجتهاد ، لان الاجتهاد بالمعنى

الثاني ليس مصدرا للحكم بل هو عملية استنباط للأحكام من مصادرها، فإذا قال الفقيه " هذا اجتهادي " كان معناه أن هذا هو ما أستنبطه من المصادر والأدلة ، فمن حقنا أن نسأله ونطلب منه أن يدلنا على تلك المصادر والأدلة التي أستنبط الحكم منها. وقد مر هذا المعنى الجديد لكلمة الاجتهاد بتطور أيضا، فقد حدده المحقق الحلي[١] في نطاق عمليات الاستنباط التي لا تستند إلى ظواهر النصوص، فكل عملية استنباط لا تستند إلى ظواهر النصوص تسمى اجتهادا دون ما يستند إلى تلك الظواهر. ولعل الدافع إلى هذا التحديد أن استنباط الحكم من ظاهر النص ليس فيه كثير جهد أو عناء علمي ليسمى إجهادا . ثم أتسع نطاق الاجتهاد بعد ذلك فأصبح يشمل عملية استنباط الحكم من ظاهر النص أيضا، لأن الأصوليين بعد هذا لاحظوا بحق أن عملية استنباط الحكم من ظاهر النص تستبطن كثيرا من الجهد العلمي في سبيل معرفة الظهور وتحديده وإثبات حجية الظهور العرفي . ولم يقف توسع الاجتهاد كمصطلح عند هذا الحد، بل شمل في تطور حديث عملية الاستنباط بكل ألوانها، فدخلت في الاجتهاد كل عملية يمارسها الفقيه لتحديد الموقف العملي تجاه الشريعة عن طريق إقامة الدليل على الحكم الشرعي أو على

---

١ المحقق الحلي(٦٠٢ هـ ٦٧٦ – هـ) هو الشيخ جعفر بن الحسن بن يحيى بن الحسن بن سعيد الهذلي الحلي أحد اعلام الحوزة العلمية الشيعية ولد في مدينة الحلة ونشأ بها وقرأ على مشاهير الفقهاء فيها واشتهر باسم((المحقق الحلي)) له أثنتا عشر مؤلفا ، من أشهرها : شرائع الإسلام : وله شروح كثيرة أشهرها جواهر الكلام للشيخ محمد حسن النجفي ومسالك الأفهام للشهيد الثاني . والمختصر النافع : اختصره من كتابه المعروف بشرائع الإسلام وله شروح عديدة أيضاً من أهمها المهذّب البارع لابن فهد الحلّي والتنقيح الرائع للفاضل المقداد السيوري ورياض المسائل للسيّد علي الطباطبائي وجامع المدارك للسيد أحمد الخوانساري . متاح على الموقع : http://data.bnf.fr/ark:/١٢١٤٨/cb١٣٠٠٩٦٢٣٢ وللمزيد ينظر :

تعيين الموقف العملي مباشرة. وهكذا أصبح الاجتهاد يرادف عملية الاستنباط ، كما قال الإمام الصادق (عليه السلام) : ((إنما علينا إلقاء الأصول وعليكم أن تُفرّعوا))[1] .

ـ كتابه :محمــد والصحابة / ج١ من شدو الربابة في معرفة الصحابة:

يندرج هذا الكتاب في سياق عناية الشيخ خليل عبد الكريم بالسيرة النبوية ، وبالذات بصحابة الرسول وتراجمهم معولا على أهم المصادر التي تخصصت بالسيرة النبوية الشريفة الى جانب مجموعة من مصادر التاريخ ألإسلامي . وقد بدأ كتابه بتعريف شامل لمصطلح الصحابة مع أننا في اختلاف واضح معه في تعريف الصحابي الذي كان في تصوره يحمل أكثر من توصيف ، وفي تصورنا إن الحرب التي قامت بين الإمام علي وبين جيش معاوية في حرب صفين كانت منبعا لهذا التوصيف . فجيش الإمام علي (ع) كان يضم المهاجرين والأنصارْ وهم عماد الدولة ألإسلامية وخُلصّها . وحينذاك قيل لمعاوية بن أبي سفيان أذا كان جيش علي بهذه المواصفات فبمن تقاتل وهم يحملون تلك العناوين المقدسة ، وحينها انبرى عمر بن العاص وقال : أما نحن فنقاتلهم بصحبة الرسول ، وأكثر من ذلك راح يكرر : بل ونحن صحابته . والى ذلك قيل ان الصحابي هو من عاصر الرسول ولو لمرة واحدة او عاش معه لسنة واحدة وقيل أيضا انه من عاش وقد عاصر الرسول وأفعاله تتطابق مع أقواله . وبناء على هذا التوصيف سنرى الصورة التي بلورها الشيخ عن الشخص كي يحظى بعنوان الصحابي .

---

[1] الحر ألعاملي : وسائل الشيعة، كتاب القضاء، باب ٦، ح ٥١ و٥٢ ، مؤسسة آل البيت ، ط٣ ، قم ١٤١٤هـ : محمد بن يوسف ألصالحي الشامي : سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (ص) ، تحقيق مصطفى عبد الواحد وآخرون ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، ١٩٩٧ .

فحين راح يصف الصحابي ، فأنه عمد إلى بيان أدوارهم وعلو شأنهم لدى الرسول (ص) مستدلا على ما يذهب إليه بأحاديث أوردها ثقاة عن هذا الموضوع . ولم يغفل الشيخ الأشارة إلى ما وقع من اختلاف حول تسمية الصحابة ومن يستحق ان يكنى بالصحابي ، وقد أشار إلى مجمل ما أورده الأصوليين والمحدثين والفقهاء والعلماء من أقوال وأحاديث حول هذا المصطلح ، وذهب ابعد من ذلك حين أشار إلى المعيارية التي يجب ان تتوفر في الشخص كي يحظى باسم صحابي .

وتناول بأسلوب ناقد ظاهرة ما أطلق عليه بعض الأكاديميين والمعنيين بدراسة التاريخ من خلال " الكتب الصفراء" أو كتب التراث الديني[١] ، وقد سعى جاهدا للرد على تلك الآراء وتفنيدها مؤكدا على أهمية تلك الكتب في الوقوف على كنوز من

١ ان ما يعنيه الازهري من الكتب الصفراء الموصوفة من قبل بعض الأكاديميين ، هي ما تعرف بالصحاحين أي صحيح مسلم وصحيح البخاري . وهذه الكتب تضمنت أحاديث لا ترقى لمستوى ما ينسب الى الرسول الكريم ، بل هي منحولة وغير صحيحة . فعلى الرغم من أن النص القرآني يقضي بعدم جواز البحث في الغيب وبالأخص عدم جواز الخوض في علم الساعة وموعدها، لا سيما وان الرسول (ص) كان قد حدد كيفية جواب السائلين (قُل إنما عِلمُها عِندَ رَبّي ... قُل إنما عِلمُها عِندَ اللّه)، على الرغم من هذا كله، يطالعك كتاب "صحيح مسلم" بكمٍ هائلٍ من الأحاديث التي يزعم أنها منسوبة إلى الرسول محمد وتحمل هذه الأحاديث بالطبع صفة الصحة التامة وتتردد في كثير من الكتب الفقهية الأخرى وبأكثر من صيغة ومن على منابر المساجد وتكاد تسمعها في كل مناسبة. وأحد هذه الأحاديث المنتشرة هو الآتي :

"حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا يعقوب (يعني ابن عبد الرحمن) عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر يا مسلم يا عبد اللّه هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود)". أو لم تستحق تلك الكتب التي تتضمن مثل هذه الروايات عن الرسول بأنها أكثر من أن ننعتها بالكتب الصفراء ، راجع صحيح مسلم/الجزء الثامن .

مفردات التاريخ ألإسلامي وجوانبه المتعددة[1]. ووجد ان تلك الكتب وبيان محتوياتها ومضامينها ، وإن حملت ما يجلب عليها النقد والنقمة أحيانا ، ففيها من الأحاديث والروايات ما من شأنها ان تهيأ صورة واقعية واضحة لشخوص الصحابة الحقيقيين وهم يعاصرون الرسول ويستمعون منه ويصلّون وراءه ويقتدون برأيه وحكمته . وبالتالي فان هؤلاء يمثلون انعكاسا واضحا لطبيعة الحياة وتفاعلاتها متضمنة أقوال وأشارات وتوجيهات الرسول التي كان الصحابة يتلقونها . وكل تلك التفاعلات ، كانت قد أودعت في بطون الموسوعات وكتب التراجم وكتب السيرة والمغازي . وهذه الكتب التي وصفها البعض بالكتب الصفراء ، باتت تشكل تاريخا مدونا لأمة لا يسع التعرف لتاريخها إلا بآلاف من المصادر الأصيلة .

وفي توطئة الكتاب ، ارتأى الأزهري إطلاق تساؤلا يتعلق باسم الصحابي أو الصحابة . ولماذا أطلق عليهم هذا الاسم ولم يأخذ عنوانا أخر ، كان يكون اسم الصديق أو الجليل أو الاخواني أو الحواري وينظر في تبريره لهذا التوجه نظرة لا تخرج عن المألوف أو تغادر الساحة ، مؤكدا أن ما يؤثر في متغيرات الأسماء والمعاني ، عوامل هامة منها على سبيل المثال البيئة التي يعيش فيها صاحب المصطلحات ، فهو يتأثر بالبيئة البدوية او الزراعية الى جانب ان هناك تعريف يحمل دلالاته الخاصة[2] .

وفي سياق عناية الرسول بصحابته بوصفهم من ركائز الدين والأمة الجديدة ، أشار الأزهري الى ان الرسول عمد إلى ترسيخ ظاهرة التنفير ، بما يعني قطع صلاتهم بكل ما كان في زمن العهد الجاهلي وبداية صفحة جديدة من السلوك والعلاقة

---

١ الأزهري : محمد والصحابة ، ص٢٠.

٢ الأزهري : شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة ، السفر الأول ، محمد والصحابة ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٨٨ ، ص١١ .

الحسنة مع الآخرين واحترام حقوق الناس . ومن اجل ذلك لجأ الرسول إلى عدة إجراءات كان من أهم ما أشار إليها الأزهري ، هو عدم جواز وراثة المسلم للكافر ، وتغيير هيئة المسلم بحيث يختلف اختلافا كليا عن هيئة الكافر ، كما هو الحال فيما جاء في الحديث الشريف عن كليب بن الصلت عن أبيه عن جده : انه أتى النبي (ص) فقال : " احلق عنك شعر الكفر "[١] . وكذلك عمد الى تغيير الكثير من أسماء الرجال ، وليس ذلك فحسب ، بل عمد الى محاصرة العادات والتقاليد المتوالية عن العهد الجاهلي . ومن ضمن تلك الإجراءات التي اتخذها الرسول لترويض مجتمعه الجديد على تلك الحياة الملتزمة بالدستور ، هو دين الله الحق وقد تعدت مساع الرسول (ص) التنفير من يهود يثرب ، فحاول جاهدا التأكيد على تغيير ملامح المسلمين بحيث لا يتشبهوا باليهود ، لا سيما ما يتعلق باللحى والشوارب . وانسحب هذا الأمر الى المفاصلة الفكرية بين تلك الجماعتين ، بحيث تعددت إجراءاته شدة أكثر منه للمفاصلة الجسمية .

وفي فصل الكتاب الثاني وقف الشيخ عند جانب هام من موضوعة واردات الدولة ألإسلامية ، فتحدث عن أنواعها بما فيها الغنيمة والفيء والتنفيل ، وقد جاء لكل صنف على حدة ووضح معالمها وكيفية استحقاقها وآلية توزيعها ، ومن هو المستحق لها وما قيمة المبلغ الممنوح .

ولعل من أروع ما أشاد به الشيخ الأزهري من شيء هو السياسة المالية التي تبعها الرسول (ص) في دائرة الغنائم وتوابعها تجاه صحابته ، وبيان الأثر الذي شكله هذا المورد الهام في رفد الدولة بموارد كبيرة . وحين تطرق لموضوعة الأسلاب ، أي سلب المقاتل المسلم لمقتوله فور قتله ، فالواضح انه لم يتوافق وهذا الأسلوب لاعتبارات إنسانية او دينية او ما شابه . وقد نوه بان هذا اللون من جمع الموارد

---

١ المصدر نفسه : ص٥٧ .

أشار إليه كبار الصحابة وأصحاب الصحيح ، فلا مرية إذن في الشك بها . ومع ذلك فما ذهب أليه الرسول من إتاحة المجال أمام المقاتل لسلب حاجاته فور قتله ، من المرجح جدا أنها وسيلة لجأ أليها الرسول لدفع أتباعه بالمضي قدما في مقاتلة المشركين ، الى جانب صبغ هذا التوجه بالجانب المادي المتحقق لاحقا .

ونتيجة لأهمية النفل لموارد الدولة والمقاتلين ، وبوصفها واحدة من عادات وتقاليد المجتمع القبلي قبل ألإسلام ، فان الرسول (ص) كان على يقين تام أنها لن تزول ولا بد من التعامل معها بروية وإدراك صحيحين . وقد كان الخلاف المستمر ، حول الأنفال بين المقاتلين وما تولد عنه من خصومة جاء ذكرها في القرآن الكريم وعلى لسان الكثير من المؤرخين . وأدرك الرسول أهمية الغنائم وما تؤديه من أغراض تعبوية ونفسية للمقاتل المسلم حين يكون له نصيبا فيما حصل عليه بجهوده وتضحياته ، وهذا بالتأكيد كان له حافزا ولغيره لعدم التردد في تلبية روح الجهاد . وبالمقابل سارع الرسول (ص) الى تقسيم الغنائم ونفح الأنفال عقب المعركة مباشرة وفي ميدانها قبل أن يكر راجعا لتهدأ نفسه وأنفس صحبه . وأشار الأزهري إلى أقوال العلماء في توثيق ذلك ، إلى جانب ذكره لأمثلة عدة تشير إلى تلك الموضوعات[١] .

وتحدث الأزهري عن منح الرسول للنساء السبايا لعلية القوم ، مؤكدا انه (ص) كان حاذقا في توجهه هذا لأنه كان مدركا أن هؤلاء يعتاشون ويمارسون هذا اللون من الحظوة بالنساء السبايا نتيجة الغزو بين القبائل قبل ألإسلام . وفي بيانه لحنكة الرسول في إدارة الدولة واحتواء المواقف والتوفيق بين المواقف المختلفة ، ساق لنا

١ الازهري : محمد والصحابة ، ص١٣٢ .

شواهد على إجراءات أتخذها إزاء قضايا ومواقف حرجة انتهت الى حلول مناسبة . وتحدث عن فيء الرسول وما حصل من لبِس في المعنى بين الفيء والصفى[١] . وواضح ان الشيخ الأزهري أستشعر أهمية تفاعل الرسول وتعاطيه في علاقته مع أصحابه وأتباعه ، العلاقة كانت سببا في بناء الدولة بالوجهة الصحيحة . وقد استشهد بأدلة وأمثلة جسدتها ، لا سيما استقطابه (ص) لرؤساء القبائل والأمراء وغيرهم من الرجال الهامين من أمثال " فرات الثعلبي " من خلال الأعطيات والاقتطاعات المقدمة لهم . والى جانب تلك الإجراءات التي لجأ إليها هو تكليف بعض الصحابة بعمل"تأليف القلوب " ، وهو أحد مصارف الزكاة . وتتبع مسار تمويل المؤتلفة قلوبهم وصولا لما تم تخصيصه لهم من الزكاة ومن الغنائم والفئ . وقد أسهب الأزهري في بيان التعريفات الخاصة بالمؤتلفة قلوبهم ، موردا أكثر من تعريف ورؤية لماهية هذه الجماعة ، مع ذكره لأسماء رجال من الصحابة ممن حصلوا على الاقطاعات الكبيرة والتي انتهت بأن يكون من كبار الأثرياء ، كما هو الحال فيما حصل عليه عبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وغيرهم الكثير . وعلى كل حال ، فان ما يبتغي الأزهري الوصول إليه ، أن التنغيم والتنفيل والنفح والمنح والعطاء ، وان تباينت صورها وتعددت أشكالها واختلفت هيئاتها ، كانت أسلحة ماضية بيد الرسول (ص) لتطويع الصحابة وتطبيعهم وصبغهم بالصبغة التي تخيلها وهو يحارب صناديد قريش ورؤساء العرب في سبيل نشر الدين الذي بشر به وترسيخ قواعد الدولة التي أقامها في يثرب / المدينة ، أولئك ممن لهم مكانة علية في المجتمع . ويبدو واضحا أن الرسول (ص) كان مدركا لهذه الخاصية عند الإنسان ، وإنها تلعب دورا هاما في تحفيز الشخص على المضي قدما في نشاطه تماشيا وطمعا ورغبة في أن يرى نفسه مميزا بين الآخرين . وقد

---

١ ما اختاره رئيس القبيلة او الزعيم من الغنيمة قبل التقسيم .

أشار الشيخ الأزهري الى هذه الخاصية عند الرسول من خلال توثيقه لظاهرة ممارسة إهداء الألقاب لجماعة من القادة والوجهاء ، وهو عرف درج عليه الناس ما قبل ألإسلام وصولا إلى ما بعد ألإسلام ، ومع انه لم يتوقف او تتلاشى ملامحه في المراحل التاريخية اللاحقة وصولا لما نحن فيه ، تبقى تلك الرغبة ملاصقة للإنسان لا يمكن الافتراق عنها ، وهي نزوة ورغبة غريزية عنده .

ووجد الأزهري ، أن الرسول الأعظم (ص) كان يمتلك مواصفات القائد الأب ، بدليل حضوره الدائم في الأماكن العامة واطلاعه على طبيعة تعامل الناس مع بعضهم ، وأثر المكانة الاجتماعية في حيازة الشخصية لأهمية الحياة عند الشعوب . ومن ذلك ، يرى ان الرسول اعتمد هذا النهج لتقريب بعض القيادات الاجتماعية ومن أصحاب السلطة والمال ، إذ أغدق عليهم بالألقاب ، رغبة منه في جلبهم الى ألإسلام[١] . وأكثر من ذلك ، فان إغداقه على هؤلاء بالألقاب كان من شأنه تحقيق مردود سياسي واضح . ومع ان هناك مشتركات بين التلقيب وبين المديح ، فان الرسول أكثرَ من الألقاب وأغدق على أشخاص بها وأكثرَ من المديح والإطراء على آخرين ، فان التلقيب لم ينل أكثرية على مديح الرسول بل إن تلك الألقاب انحصرت بثلة من أصحاب محمد (ص) بما فيهم الخلفاء الراشدين والأصحاب والتابعين والوزراء ،وقد حصل كل واحد من الخلفاء الأربعة على عدد كبير من ألقاب الإطراء . ولا سيما إغداق الرسول (ص) بالألقاب على أبو بكر الصديق . ويرى الشيخ الأزهري ان هذا التلقيب من قبل الرسول لأبو بكر ، كان قد خلق في داخله دافعا قويا لمواصلة الرسالة بعد وفاة الرسول . وهذا الأمر من التلقيب وتأثيره على المعني بالتلقيب ، كان قد انسحب على عمر بن الخطاب ، إذ يرى الشيخ أن الألقاب التي أغدقها الرسول عليه ، يكون قد قابلها بمزيد من الإخلاص حتى انه

---

١ الأزهري : محمد والصحابة ، ص١١٤ .

من شدة تفانيه قتل خاله[١] في إحدى المعارك . أما الخليفة الثالث ، عثمان بن عفان ، فهو الآخر من الصحابة ممن أغدق عليهم الرسول الألقاب الدالات ، حتى قيل أن عثمان قد حصل على أكثر من صك للغفران من الرسول ، استنادا لما قدمه من أموال لحل أزمات متعددة لاقت جيش المسلمين في أكثر من واقعة . وتطرق الأزهري للألقاب التي منحها الرسول للإمام علي بن ابي طالب (ع) . ومع علمنا ان الشيخ الأزهري حياديا في طرحه ، ولكن أحيانا يغفل المؤرخ أو الباحث بعض الأمور التي بوجودها تكسب مسار حركة التاريخ توجها آخر يختلف عما إذا أغفلت تلك الحقائق . وبصدد ما زاد الرسول من الألقاب الممنوحة للإمام علي (ع) عن غيره من الصحابة ، فأن الشيخ الأزهري يبرر هذا التمايز بمنح الألقاب للأمام علي يعود الى المشتركات بينه وبين الإمام علي من ناحية الأم أو الأب ، وبالتالي فهو كان ربيب الرسول (ص) وأحبهم إليه وانه والد حفيديه . وهنا لا بد من القول ان الشيخ الأزهري لم يقف عند حقيقة هذا الأمر ، إنما جانبه حين أشار الى ان الرسول قد مال للإمام علي استنادا لصلة الرحم بينهما ، غير آبه بواقعية الأمر ، وعلّة إغداق الرسول للألقاب على الإمام ؟ ويكفي ان نشير لواقعة واحدة للإمام علي (ع) وموقفه المبهر من مواجهة عمر بن ود العامري في موقعة خيبر ، وإذا كان عمر الإمام بحدود العشرين او قليلا تزيد في مواجهة صنديد يعادل ١٠٠٠ رجل وما آل إليه الأمر من صرع الإمام لهذا المقاتل الشديد المراس الذي بمقتله تبددت قوة الأحزاب وفشل مخططهم في القضاء على دولة ألإسلام . وعليه فأمام هذا المنجز العظيم وهذا الفداء الكبير ، يحار المرء بما يستحقه هذا الرجل من لقب يتناسب وهذا الفعل العظيم ؟ ألا يحق للرسول (ص) أن يكثر ويغدق من الألقاب

---

١ الملقب بـ " أبي مرتضى " توفي وترك أربعة بنات بنات وطفل صغير ، بعد أن شعر بدنو الشهادة منه فبادر إليها مستقبلا .

على أمير المؤمنين علي (ع) ، حتى تتجاوز تلك الألقاب ما منحه للخلفاء من بعده . ومع أننا أشكلنا على الشيخ عدم تعليله لزيادة الألقاب على الإمام علي (ع) فقد وجدنا بعد وريقات قليلة وقد أكثر من ذكر الأحاديث والروايات التي تقول بأحقية الإمام في الخلافة مستشهدا بما ورد في روايات وأحاديث رجال ثقاة من القوم من أمثال يعقوب بن عبد الرحمن بن أبي حازم وكذلك ما قاله القاسم بن جندب وما ورد عن أنس بن مالك وعن سعيد بن المسيب وغيرهم الكثير ، بحيث وثقت رواياتهم هذه الأحقية للإمام علي (ع) من خلال الأشارة إلى بطولاته ومواقفه في وقت المحنة . وانتهى الأزهري إلى القول : ((وخلاصة القول : إذا كان عثمان قدم لمحمد أموالا جسيمة تعينه في أمر دينه وتدبير دولته ، فإن عليا قاتل قتالا صادقا وأظهر إقداما وشجاعة في وجه أعداء دين محمد ودولته . ويقول : لقد استراحت نفس عليا لأنه أثبت لنفسه قبل الآخرين انه كفئ للألقاب التي صبها عليه محمد صبا ، مؤكدا أن تلك الألقاب الفخمة كانت من البواعث لدفعه (ع) للظهور والتشئ على أرض الواقع بهيأة أذهلت معاصريه وكانت مفخرة لبنيه وأحفاده وشيعته[١] .

والى ذلك أشار الشيخ الأزهري إلى ما حصده العشرة المبشرون بالجنة من ألقاب أغدقها عليهم الرسول الأعظم (ص) . وإزاء ذلك قال ((كان نصيب العشرة المبشرين بالجنة مناسبا)) فهم قرشيون وأهل شورى محمد الذين خلفوا "ملأ قريش" الحاكم مكة وقت ظهور المسلمين ومن السابقين الأوليين في الإيمان بالدين الذي دعا إليه . وقد حُسبت لهم مواقف محمودة في تأييده ونصرته ، فالألقاب التي أغدقها عليهم ، كانت بمثابة تحية منه إليهم ، بل وتشكرا عما بذلوه ومدعاة لمواصلة الدعم .

١ للمزيد ينظر كتاب الأزهري : إلا الإمام علي ، مصدر سابق .

وخلاصة القول ، فإن الشيخ الأزهري كان قد وضع من خلال هذه المنح نهجا جديدا للمقاتل المسلم وعن ذلك ... يقول : (لقد كانت تلك لمحات سريعة من صور التأثر والتأثير المتبادلين لألقاب محمد على بقية العشرة المبشرين بالجنة بما تؤكد حصافة الرسول (ص) وقدرته الفذة في إدارة جماعته[١] .

ويؤكد الشيخ الأزهري براعة الرسول وعبقريته في ابتداعه لمسألة التلقيب وتأثيراتها الإيجابية فهو يقول : على قدر ما قرئنا من سير الأنبياء والزعماء والقادة والمصلحين ، لم نرَ واحدا منهم التفت إلى أداة التلقيب التي تثمر مفعولا أشبه بالسحر الحلال ، وأغدق على حوارييه ونصرائه وشيعته وتابعيه كماً وافرا من ألقاب المدح ونعوت الإطراء وصفات التقدير مثلما فعل الرسول (ص) مع صحابته ، وهو بلا شك كان ملهما في ذلك بقدر ما كان موفقا غاية التوفيق .

وفي مبحث أخر اسمه التغيير ، فان الأزهري وقف عند معنى هذا المصطلح وعمد الى بيان آلياته ، وانتقى من الروايات لتقريب المعنى والمغزى ، ما عمد إليه الرسول من تحديد حياة المسلمين بمرحلتين ما قبل وما بعد ألإسلام ، ووجد ضرورة نسيان مرحلة الجاهلية بكل ترهاتها ومعانيها ومعالمها التي كانت بالضد مما جاء به ألإسلام وقتذاك . وعرض الشيخ لأهم ما وضعه الرسول من إجراءات كان يبتغي منها الحصول على حالة التغيير ، من مثل تغيير أسماء الأشخاص رجالا ونسوة وأسماء الأماكن والبلاد التي كانوا يستقرون فيها أو التي يغبرونها . وقد أورد الأزهري الكثير من الأمثلة عن هذه الحالة من التغيير سواء ما أصابت الرجال ومنهم وجهاء الدولة وقادتها وانتهى إلى القول بشأن حادثة قبيلة بني قحافة حين قتل أفرادها العشرات من أهالي القرية لعدم رغبتهم تغيير أسماء ما لديهم من الأشياء ، وهذا الأمر يعود إلى محورين ، ديني : أي إعلان الانفصال عن دين

---

١ المصدر نفسه : ص٢٢٧ .

محمد وإذاعة ذلك في شبه الجزيرة ، والمحور الثاني ، سياسي ، أي عدم الاعتراف بالدولة القرشية وما يترتب عليها من آثار سلبية . وقد أشار إلى عدة أحداث وقعت بين من عمد الى إتلاف الأصنام وبين من كان يدافع عنها . والى ذلك أورد الأزهري أمثلة على تغيير أسماء النسوة إلى غيرها استحسنها ولاة أمورهن ، على ان الرسول (ص) كان مدركا أن الإنسان في العهد الجاهلي كانت تسيطر عليه عادات وتقاليد جاهلية انعكست على شتى مناح الحياة ، على أن التغيير الذي أحدثه الرسول في تغيير أسماء الأشخاص والأماكن والشوارع والجبال والأسواق ، بما يبعث في نفسية الإنسان الأمل في الحياة[1] .

١ الأزهري : الا أمير المؤمنين ، ص١٨٤ .

المبحث المعنون بـ" الثمرة المرجوة ، الطاعة المطلقة "

أراد الشيخ الأزهري بيان تلك الطاعة المطلقة التي أولاها الصحابة والآخرين للرسول وتلبية أوامره لأنهم وجدوها حق لا بد منه . وقد أختزل هذا المعنى بذكره لروايات تتحدث عن تلبية رجال لدعوة القتال وهم في جحور زوجاتهم ، أو في ليلة دخلتهم . مستطردا في حديثه هذا حول ذكر حالات كثيرة ساقها تدلل على مدى تعلق المسلمين ولا سيما صحبة الرسول (ص) بأوامره ونواهيه وتوجيهاته الى درجة تصل الى حد الطاعة العمياء ، وهذا بالتأكد نعمة من نعم الله أسبغها على هؤلاء مشتركين الرسول وصحبه ، فكلاهما مستفيد وكلاهما ناصح للآخر ، سواء في شأن الدنيا أو الآخرة . فالرسول لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ، ومن ذلك ما يفد منه من نصائح وتوجيهات فهي بمثابة تعليمات ربانية لا شائبة فيها ، ثم من يتبعها فهو الناجي . وقد انعكست هذه الطاعة والانقياد التام للرسول (صل) على طبيعة إيمان هؤلاء ، إذ باتوا جماعة عقائدية لا يمسكهم سوى مشتركات العقيدة ، فقد وصل الأمر إلى أن يقتل المرء أخيه او ولده لا لشئ سوى انه من المشركين ، وهناك شواهد عديدة على هذه الحالات . وأشار الأزهري لتأكيد ما ذهب إليه الى روايات أوردها مؤرخون ثقاة في كتبهم تذهب كما هو الحال فيما جاء به الواقدي وأبو إسحاق وأبو هريرة والطبراني . ولم يقتصر أمر الانقياد لأوامر الرسول (ص) على الرجال فحسب ، بل تعدى ذلك ليشمل النساء ، وقد أشار الأزهري إلى أمثلة توضح ذلك ، وتؤكد انصياع النساء المؤمنات لنصحه ورؤاه .

وفي نهاية كتابه ، خلص الأزهري الى تقديم خلاصة مفيدة لموضوعات هذا الكتاب ، إذ أختزلها بكليتها ، بفجاجتها ومساوئها وحسناتها وما شكلته من ثقل على البعض ، بشخصية عبد الله بن عمر بن الخطاب . الذي كان مثالا حيا للطاعة المطلقة للرسول في شتى ميادين الحياة . لينتهي الأزهري الى القول : انه

أيا ما كانت الدوافع والأسباب لتلك الطاعة ، فهي بالتالي قد حققت على ارض الواقع نتيجة يعز نظيرها ، على أن تلك الطاعة كانت بمثابة الثمرة الناضجة للخطة البارعة التي رسمها الرسول (ص) ونفذها بمهارة فائقة[١] .

ـ كتابه :شدو الربابة / ج٢ الصحابة والصحابة :

وفيه يحاول الأزهري ان يكتب تاريخية الصحابة بحيث يتعاط وبصورة واقعية مع كل حيثيات تلك الشخصيات ، يتعامل معهم ليس بوصفهم من الصحابة فحسب ، بل أنهم قبل كل شيء من البشر ، والبشر معرض للخطأ والصواب . بمعنى ان نعمد إلى تحليل صارم للسلوكيات والأنشطة المتعلقة بالصحابة بعيدا عن العواطف الفجة او المشاعر الفضفاضة لنكون أمام تجربة فريدة من تشخيص السلوك وكتابة سيرة متتالية تأخذ بنظر الاعتبار تسلسل الروايات وعدم تخصصها بجانب من جوانب التاريخ دون غيره ، بل نجدها تؤطر كل مسارات الحياة بشتى جوانبها ومستوياتها ، لتعطي بعد ذلك فرشة واسعة ومتماسكة من سيرة هذا الصحابي أو ذاك ، متخلين عن النهج السابق الذي يعتمد رواية او غيرها ساقها صاحبها دون التمعن بمدى صحتها او واقعيتها ، تمكن من العثور عليها ، فوسع من فنائها وأعطى لها حيزا أوسع ، لتكون مهيأة لاستقرائها بوصفها تجربة بشرية تخضع لعواطف الإنسان وتجرداته ، وهوسه وأهوائه ، وبذلك نتمكن من الوقوف عند ماهية البيئة التي تخلقت في باطنها تلك النصوص ، أذا ما علمنا ان البيئة وإكراهاتها هي التي ألزمت ان تُخرج لنا تلك النصوص التي أفصحت في نهاية الأمر انها لم تكن بأكثر من أشارات ورؤى تقولبت في دواخلها غاية هذا البحث .

---

١ الأزهري : إلا أمير المؤمنين ، ص٢٢٥ .

ويتواصل الأزهري في توصيفه وبمرارة ما وصل إليه المجتمع العربي من تفكك وهزالة ، وما كان عليه الصحابي في بداية الامر ، وما صار إليه . فعمد الى البحث في حياتهم الشخصية من الزواج والتمتع والعلاقات مع الآخرين والسلوك اليومي ومدى الالتزام بثوابت ألإسلام من عدمه . وهذا ما يصفه بالتراث ، ونحن بأمس الحاجة للاطلاع عليه ليكون عبرة للآخرين . ومن ناحية أخرى التأكيد على ان الصحابة معرضين للوقوع بالخطأ ، حال الآخرين . على ان المعادلة بين ان يكون صحابيا وبين أن يكون أنسانا عاديا ، هو مقدار التزام الشخص بثوابت دينه من عدمه . وهذا الأمر لا يختلف فيه اثنان ، فلم يطرق مسامعنا أو تخطه أناملنا من كتاب أو ما شابه من الدراسات في تراث الشعوب والأمم وقد وقف عند الجانب الطبيعي (الناسوتي)[١] عند الصحابة . وقد برر الشيخ تصرفات هؤلاء الى وضع معين يتمحور حول أمرين ، هما المال والسلطة. وقد أعطى أمثلة تحقق ما ذهب إليه ، من أن المال والسلطة يحددان مسار الإنسان ، وكذا الصحابي . فأشار إلى ما حصل للصحابي أبو عبد الله بن العباس وأبو ذر الغفاري والإمام الحسن (ع) وأسامة بن زيد من أذى على يد الصحابة الآخرين .

وهنا فان الأزهري لا يرى إطلاقا بان السلف كان صالحا ، بل كان مصدرا للعبث في عقول الناس ومدعاة لسخريتهم . فيقول عن هؤلاء الصحابة الأوائل: ((إن السلطة والمال بمختلف ضروبها والجاه والنفوذ لعبت لعبتها في تصدع الثورة أو السماح بذلك))[٢].

وهي أشارة من الشيخ الأزهري إلى جملة ممن يعتقد أنهم من الصحابة بيد أنهم نحو نحوا لا يستقيم وشخصية الصحابي ، كما في أشارته إلى معاوية بن أبي

---

١ الطبيعة البشرية .

٢ الأزهري : الشدو(٢) ، ص١٥ .

سفيان ويزيد بن معاوية وغيرهم الكثير[1] . وهنا فهو يبتغي أن لا تكون كل الروايات الواردة في كتب التاريخ مسلم بصحتها ، بل ينبغي الوقوف عندها وتحري صحتها ومصادرها ، فهو القائل : ((لان السلف من مصنفي الكتب التاريخية مثل البلاذري والمسعودي والطبري والدينوري واليعقوبي ونصر بن مزاحم والمقريزي وابن خلدون ... ألخ أبرئوا ذمتهم وأرضوا ضميرهم وسطروا ما وصل الى علمهم من أخبار ووقائع ونوازل وأحداث ، بيد أننا لا ننكر أن عددا من أولئك المؤرخين كانت عينه على السلطة الحاكمة ، وحرصا على رضاها ، ولكن مع ذلك فأن موسوعاتهم حفلت بالعديد مما ساعد على تصور أحوال السلف تصويرا بالغ الدقة شديد الأحكام ، ومع ذلك فقد يحتاج القارئ الى عين يقظة للقراءة وعقل ناقد عند الإطلاع ، وان لا يجنح نحو الجانب التفخيمي والإطراء الممل والتبجيل والتهويل مما سيفقد اي نص قيمته العلمية . وفي ذات السياق راح الأزهري ، يشيد ويؤيد الباحث في التاريخ أن يذهب إلى كتب الحديث والسنة واستخلاص الكثير من روايات التاريخ ، ولا سيما منه في التاريخ الاجتماعي الذي يعد انعكاسا بينا لماهية تلك العادات والتقاليد والتي ستوضح بصورة جلية وواضحة ماهية تلك المرحلة التي انتشرت فيها تلك العادات وانصهرت بتقاليدهم ، وباتت جزء من حياتهم اليومية[2]

وكأني اقرأ ما يبتغيه الأزهري من سوقه لروايات إذا ما تتبعها القارئ سيجد البون الشاسع بين إحداها والأخرى ، بحيث يتبدى لك المتغير الواضح في مسار تاريخية بعض الصحابة مما يتناقض كليا وما أوصى به الرسول (ص) . وهنا يضع الأمر بين تفسيرين أما أن الروايات التي تحدثت عن بعض أقوال الرسول غير موجودة او أنها منحولة ، أو ان ما حدث لاحقا بحيث تناقضت وما ذهب إليه الرسول من

---

١ المصدر نفسه ، ص١٤

٢ الشدو (٢) ، ص١٦ .

وصايا ، هي روايات غير صحيحة . وعلى سبيل المثال ، أشار الأزهري إلى أن الذين شهدوا بدرا كان الرسول قد أعطاهم صكا بالغفران والبراءة من النار ، ولكن طلحة بن عبيد الله واعتمادا على جاهه وثراه الطائل وانه مولى لعامر ، لم يعبأ بهذا التاريخ الناصع البياض الذي يحمله أبن فهيرة على كتفيه ، الأمر الذي دعا محمدا إلى أن يلفت نظر طلحة إلى أن عامرا يساويه في رتبة شهود غزوة بدر الكبرى . ويقول أن هذا الخبر يثير إشكالا : كيف تسنى للصحاب المبشرين بالجنة والمغفورة لهم خطاياهم والحاصلين على صكوك البراءة من دخوّل نار جهنم أن يتسابوا ويتشاتموا ويقع بعضهم في حق الآخر ، بل كيف سلّوا السيوف في وجوه بعضهم كما هو الحال ما حدث بين الإمام علي (ع) وطلحة والزبير ؟ وقد أسهب الأزهري كثيرا في نبش العشرات من الروايات التي تؤكد عكس ما هو متوقع من علاقة المبشرين بالجنة بعضهم ببعض وكذا الحال في عباداتهم وسلوكياتهم وتصرفاتهم . ومن سياق ما ذهب إليه الشيخ الأزهري من تقديمه لمبحث عرف بالمسبة . وفيه أماط اللثام عن وجهه وكشف عن المستور من العلاقات التي شابها الكثير مما يتنافى ما كان يجب أن يكون بين الصحابة ممن أوصى الرسول بهم في مجتمع لم يألف من قبل غير حياة البداوة والتصحر ، كيف نفسر هذا التناقض بين ما كان وما حصل . وكما اشرنا ان إحدى الروايات المنقولة عن سيرة هؤلاء لم تكن صحيحة ، فتغيرت معها الأحكام ونتائج الحدث التاريخي .

وكما هو مضمون العنوان يشير الى ظاهرة السب بين الطرفين ، فإن الأزهري أورد العشرات من الروايات التي تؤكد على ظاهرة المسبة الحاصلة بين الصحابة وأبنائهم وبين الصحابة أنفسهم . وكذلك أورد العديد من الروايات التي أثارت جدلا بين المسلمين وأدبياتهم كما في مقتلة الجذيميين من قبل خالد بن الوليد وموقف الخلافة منه ، ومحاولات تبرئته ألى جانب حالات أخرى تموضعت حول مزايدة بعض المصادر التاريخية على قول الحقيقة التاريخية ، لأسباب مذهبية أو أثنية أو

طائفية . بل وصل الامر إلى أن تصل حالة المعاداة بين الصحابة الى حد القهر والإذلال. وقد أستدل الأزهري على تلك الحالة بعدد من الشواهد لعل أقساها ما كان يتعلق بمصير الصحابي الجليل أبا ذر الغفاري . فقد ساق لنا رواية تقول : أن الصحابي أبا ذر الغفاري كان دائم الحرص على قول الحق مهما كلفه ذلك من ثمن فلما رأى ممارسات عثمان وقد خالف فيها الشرع والسنة ، ومنها أنه صاحب أبا بكر وعمر في المال العام ، فلقي معارضة من ابا ذر ، وما أن وصل هذا النقد الى مسامع الخليفة عثمان حتى بادر هذا الأخير الى نفيه الى الشام ، فلقي معاوية فيها يسير على ذات النهج فعاود انتقاده ، مما حدا بمعاوية الى إرجاعه الى المدينة ، وما أن استقر فيها حتى عاود نقده اللاذع لعثمان الذي لم يتوانى ان يأمر بإخراجه وان يوصي بإيصاله الى منطقة الربذة حيث كان مكان ناءٍ من لبنان ، لا حياة له فيها ، وبالفعل توفي هناك حيث لا يعرفه أحد.

وقد انتهى الشيخ الأزهري الى تبرير لهذا المنحى غير المنطقي بقوله : إن هذا الذي حدث من السباب بين الصحابة يثير العديد من الأسئلة : ١. هل كان الوفاق هو السطح الظاهري وفي الصدور والقلوب ما فيها .

٢. أم أن تعاليم محمد السامية لم تتغلغل في وجدانهم بصورة عميقة .

٣. أم هي النشأة الأولى على القتال والغزو وسفك الدماء لأهون الأسباب

٤.. أم انه الخلاف على السلطة وغنائم البلاد المغزوة وخيراتها لأنها جاءت بصورة أذهلتهم .

٥. أم انه التحول بدعوة محمد من دين لهداية البشر الى سلطة للقهر والغلبة ، وإذا شئت قلت المبالغة في هذا الشق والاهتمام به دون الشق والاهتمام به دون الشق

الآخر ، لأن هذا التحول بدأ مبكرا للغاية وان بقي متوازنا مع جانب الهداية والإرشاد[١] .

وزيادة في توكيد ما ذهب إليه من التناحر والتسابق بين الصحابة حول بعض المنافع الدنيوية فقد تحتم على الباحث في هكذا موضوعات ، أن يكون مدركا وواعيا بأن مضمون النص التاريخي ، هو نتاج حي لطبيعة البيئة التي تخلق فيها هذا الموضوع . فقد أشار الى هفوات وأخطاء قام بها الصحابة بما يجد ان هذا المسار من مختلف التجاوزات للصحابة ، يضعنا في موقف حرج ومعقد ، بل أننا ومن أجل الوقوف على حقيقة تلك الأفعال التي تضمنتها الروايات التاريخية ، سنكون غير منصفين ما إذا تعاملنا معها تعاملا عاطفيا منحازا ، لا سيما وإن القداسة في أحيان كثيرة ستكون حجر عثرة في مسار البحث عن الحقيقة في التاريخ ، ولا سيما إذا ما كان ديدن البحث في النصوص المقدسة أو تلك التي تصل الى درجة القداسة . وما أشار إليه الأزهري واستشهد به وما أومأ إليه من تصرفات الصحابة ، يضعنا أمام خيارين ، إما أن نتعامل مع نص الأحاديث النبوية الشريفة بتجرد تام ، ونحاكم النص كما هو الحال في النصوص الموضوعة الأخرى ، أو أن نجعل مما ورد في النص من معلومات ومن كشف لأمور تتعلق بجوانب الحياة والعلاقات ، وكأنها من ثوابت الدين لا يمكن التلاعب بها ، انتهاء بالقول : ان النص لا يحتمل التأويل .

وفي مبحث أخر تحت عنوان " **نلج باب القتل** " أشارة من الشيخ الى محاولة قام بعض الصحابة إلى قتل بعضهم بعضا ، وكأنها نتيجة حتمية لما كانوا عليه من تعامل بعضهم مع بعض من السب واللعن والتنافس ، فكانت هذه الفعلة من أبشع ما يوصف به صحابي كان قد شهد مع الرسول أيامه وسمع كلامه وتوجيهاته

---

١ الشدو(٢) ، ص٤٤

. وقد أشار الأزهري الى الوقائع التي شهدت مقتل الصحابة على يد أقرانهم المسلمين ومن الصحابة بالذات متجاوزا ما تم قتلهم في واقعتي صفين والجمل من الصحابة المفضلين عند الرسول . فأورد أسماء عدد منهم من أمثال " مالك بن نويرة اليربوعي التميمي"[١] الذي قتله خالد بن الوليد ، وأكثر من ذلك ارتكابه فاحشة الزنا مع زوجه أم تميم في أرض المعركة !!!.

وهنا تستوقفني هذه الواقعة كما في وقائع أخرى ، هي تساؤل عمن يمكن أن نقول الصحابي ، الذي اخذ من صحبته للرسول (ص) السلوك القويم والتزم بأوامره وانتهى بنواهيه ، أم انه مجرد عاصر الرسول فاستوجب أن نلقبه بالصحابي ؟ فإذا كان الأمر كذلك ، أو هل من شيم وأخلاق الصحابي أن يكون قاتلا وزانيا ؟ كما هو الحال عند خالد بن الوليد ؟ أو أن البعض ومنه الشيخ الأزهري وبسوقه لهذه الرواية ، يبتغي القول بإن الصحابة هم مثل حال البشر الآخرين يصيبون ويخطأون وهنا نعترض على هذا التوجه بتسمية بعض الأشخاص بالصحابي وهو بهذا المستوى المتدني من الأخلاق ومن ذلك نرى أن معنى الصحابي لا يستحقه سوى من عصم نفسه قدر الإمكان من الأخطاء ، فلا يمكن إطلاقا أن يوصف صحابي للرسول وهو رجل زاني أو قاتل ، فهو من رجال تلك الحقبة ، وله أجر ما فعل ، ولكن يبقى ان نقول ما أشار إليه جل وعلا في محكم كتابه الكريم : **((أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ))**[٢]

---

١ سيد من سادات قبيلة تميم في عهد النبي محمد. هو مالك بن نويرة بن حمزة بن شداد بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم بن مر بن إد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

٢ الزمر/ ٩

وبعد الحديث عن مقتل مالك بن نويره ، يأت الحديث عن مقتل صحابي أخر بيد صحابي أيضا . ويروي الأزهري بمرارة مقتل عثمان وما صار إليه مصيره بعد مقتله حين التشيع والدفن ، مؤكدا انه حُرم من أبسط ما يجب أن يحظى به المسلم من الصلاة عليه حين الدفن ودون أن يحظى بصلاة الجنازة التي ينالها أقل المسلمين شأنا ولم يجدوا مكانا يدفنونه فيه إلا (حُش كوكب)[١] .

وبعد ذلك يسترسل الأزهري بمناقشة حيثيات هذه الواقعة لينتهي إلى القول بأن مقتله كان بمثابة فتنة دبرها أيضا رجال من الصحابة قاموا بالتخطيط لها والرسم بأحكام على مسارها وتنفيذها[٢] . وأشار إلى الأشخاص الأربعة الذين كان لهم الدور الأكبر في مقتل عثمان وهم : محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر بن أبي قحافة وعمر بن الحمق الخزاعي وعبد الرحمن بن عُديس ، ومن ثم راح يترجم لهؤلاء الرجال الأربعة من منطلق أنهم من الصحابة الأفاضل . ومع هذه الإيماءة يرسم لنا الشيخ الأزهري صورة مروعة لسيرة هؤلاء الصحابة ممن لم تسلم لا نفوسهم ولا نفوس غيرهم من غدرهم ، فهو يكثر على أبن حذيفة ما قام به بحق من تكفل بتربيته ومعيشته ، فيأت على قتل من تولى رعايته بالأمس ، وفي الجانب الآخر يعطينا الأزهري صورة مطابقة للقول :" وبشر القاتل بالقتل " حين يعمد صحابي ثالث وكان من أقرب الناس الى القاتل الغادر ، فيأمر رجاله بمطاردته وقتله حتى لو كان في جحر ضب ، فينفذون أمره ويجهزون على الغريم وهو معتصم بأحد الجبال . ويتواصل في عرض تراجم الأشخاص الأربعة ليقف عند الصحابي محمد بن أبي بكر بن أبي قحافة ويتساءل : كيف لهذا الصحابي الجليل ربيب أبو الحسنين ، كيف تسنى له اقتراف هذه المقتلة التي تؤدي به الى

---

١ مكان قضاء الحاجة في البستان .

٢ الشدو (٢)،ص٦٦

نار جهنم . وزيادة في ضبابية الصورة التي رسمها الشيخ الأزهري لأولئك الصحابة وسيرهم ، وصل الأمر الى مقتل محمد بن أبي بكر وعلى يد صحابي آخر ، إذ تذكر الروايات التاريخية " أن الصحابي عمرو بن العاص ومعه الصحابي معاوية أبن حديج قاما بعد قتل الصحابي محمد بن ابي بكر بحرق جثته ومن ثم وضعها في جوف حمار ميت . ويتواصل الأزهري في عرض فضائع بعض الصحابة . وفي لجة استهجانه لهذا السلوك من قبل هؤلاء القوم ، راح يبحث في علل هذا الجنوح حتى انتهى إلى البحث في علل هذا الجنوح في طبيعة أسرته ، فوقف عند سيرة والدة محمد بن أبي حذيفة " سهيلة بنت سهيل بن عمرو القرشية من بني عامر بن لؤي ووجد أنها كانت قد تزوجت من أربعة رجال وانتهت إلى زواجها من عبد الرحمن بن عوف الذي كان قد تزوج عشرون امرأة ، وأمام ذلك يستنتج ان محمد بن حذيفة عاش في نشأته الأولى وهو محروم من حنان الأسرة مما ولد في داخله عقدة اجتماعية . ويسري هذا الأمر من البحث على والدة محمد بن ابو بكر ،أسماء بنت ابي عميس الخثعمية ، إذ تزوجت هي الأخرى خمسة رجال كان آخرهم الإمام علي بن أبي طالب أم محمد الذي عاش في كنف الإمام بيد أنه كان يشعر بالغربة ويدرك ما لأمه من الأزواج ومن الأولاد . ويرى الشيخ الأزهري أن هذه البيئة التي ترعرع فيها المحمدين ، قد خلقت في نفوسهما روح العدوانية والشراسة . ويتواصل الأزهري في الترجمة لقتلة عثمان ليشير إلى عمرو بن الجموح الخزاعي . ويستطرق في نقده اللاذع لهؤلاء الصحابة ممن عاصروا الرسول وأخذوا عنه واستمعوا إليه في كثير من مواضع الحياة وشؤونها ، ورغم كل ذلك يقول أنهم قتله من النوع الأشد حين قتلوا صهر الرسول وخليفة المسلمين وكان عمرو بن الجموح ممن شهد مع الإمام كل وقائعه . ويلتفت الأزهري إلى زاوية حساسة في التاريخ ألإسلامي وهي ما أثارته بعض المصادر من مسؤولية الإمام علي (ع) عن مقتل عثمان ، وهذا الأمر يبرره لجوء قتلة عثمان إلى معسكر الإمام علي بعد

واقعة القتل والاندماج في شيعته ، مما رسخ القول بمسؤولية الإمام عن مقتل عثمان . ويبرر الأزهري قبول الإمام لانضمام هؤلاء إلى معسكره لان الإمام في حينها كان قد وقع بين شقي الرحى : عائشة والزبير وطلحة من جهة ومعاوية وعمرو بن العاص من جهة أخرى ، وهو ما برر له قبول أنصار إضافيين إليه . ويعود الأزهري إلى بحثه في طبائع الصحابة وسلوكياتهم ليصل إلى مقتلة عمرو الخزاعي الذي كانت أبشع من مقتلة قبله عثمان . ويستمر بالبحث في قتلة عثمان ليصل إلى الرابع فيهم وهو عبد الرحمن بن عديس البلوي ممن بايع الرسول (ص) في بيعة الرضوان أي تحت الشجرة ونزلت بحقهم آية كريمة . ويقول الأزهري منتقدا شخصية هذا الرجل من أنه جمع بين نقيضين صحابته للرسول وقتله العمد لصهر هذا الرسول ، وجاء قتله عمد وجزاؤه نار جهنم[١] .

ويختتم الأزهري بحثه هذه المسألة بالقول أن معاوية تمكن من قتل هؤلاء الصحابة أربعتهم ثأرا لمقتل عثمان وتحملهم لجريمة يحاسب عليها الشرع والقانون . وما بعد القتل كان للأزهري جولة أخرى في البحث في شخوص آخرين يندرجوا ضمن حادثة المقتل وما بعدها بما فها تأخير دفنه أو منع مواراته في مقبرة لائقة وغير ذلك مما يراها لا تتفق ومستوى خلق الصحابة . ومن بين هؤلاء أسلم الساعدي وغيره من الأنصارْ ليصل إلى تبرير رفض غالبية الأنصارْ دفن عثمان لأنهم كانوا ناقمين على تسلط قريش على مقاليد الحكم منذ سقيفة بني ساعده وتهميشهم وعدم اشتراكهم في الحكم او مراكز القيادة والاستئثار بكل الخيرات والمنافع وشعورهم بالدونية مع أنهم فاقوا في تضحياتهم غيرهم ، وغير ذلك من الأمور التي خلقت في تفكير هؤلاء الأنصارْ من الصحابة أنهم مسحوقين أمام طغيان رجال قريش .

---

١ الشدو (٢) ، ص٨٢ .

ويلتفت الأزهري إلى سياسة معاوية إزاء أصحاب الإمام علي (ع) وتصفيتهم واحدا تلو الآخر وكان منهم الصحابي الجليل حجر بن عدي وغيرهم ، ليقول : وأي شريعة تسمح للصحابي ويقصد به معاوية ان يقتل صحابي آخر . وينتقل الى مقتلةٍ أخرى أبشع وأشنع من سابقاتها هي مقتل الإمام الحسن بوساطة زوجته جعده بنت الأشعث[١] الرجل الذي ارتد عن ألإسلام بعد وفاة الرسول (ص) ومع ذلك فان الأزهري يطلق عليه اسم الصحابي . ويّحمل معاوية هذا الإثم بسم الإمام الحسن ، لأنه وجد فيه منافسا له في الحكم ! وحين وجد في عبد الرحمن بن خالد بن الوليد منافسا لبيعة ابنه يزيد ، أقدم عليه وقتله من خلال دس طبيب معاوية إليه السم ، وبعد ذلك يعمد الى قتل الطبيب نفسه لتموت معه جريمته . وتلك فاحشة من فواحش ما عمد إليه معاوية (الصحابي) بحق الأئمة والصحابيين الأجلاء .

وعلاوة على ذلك يسرد علينا الأزهري سيرة (بسر بن أرطأة) الرجل الطاغي الذي عاث فسادا في مدينة الرسول بحثا عن مناوئ معاوية وممن يقف في طريق بيعته . ومع ذلك ينعته شيخنا بـ(الصحابي) الذي قتل من الصحابيين العدد الكبير من

---

١ جعدة بنت الأشعث بن قيس بن معدي كرب هي زوجة الإمام المجتبى الحسن بن علي بن أبي طالب(عليهما السلام) وهي أميرة وكان أبوها أمير قبيلة كندة وفد على الرسول محمد في ثمانين راكب و أسلموا. وفي هذا السياق ذكر أبو الفرج الأصفهاني: أرسل معاوية إلى ابنة الأشعث إني مزوجك بيزيد ابني، على أن تسمّي الحسن بن علي، وبعث إليها بمائة ألف درهم، فقبلت وسمت الحسن، فسوغها المال ولم يزوجها منه . وقال ابن أبي الحديد المعتزلي : دس إليه– أي الحسن (ع)– معاوية سما على يد جعدة بنت الأشعث بن قيس وقال لها: إن قتلتيه بالسمّ فلك مائة ألف وأزوجك يزيد ابني فلما مات وفى لها بالمال ولم يزوجها من يزيد، قال: أخشى أن تصنع بابني كما صنعت بابن رسول الله . وقد تزوجت برجلين بعد قتلها للامام الحسن (ع) ، للمزيد ينظر : الأصفهاني ، مقاتل الطالبيين ، النجف الاشرف ، العراق ، المكتبةُ الحيدرية، ١٣٨٥ هـ .٠

غير الأبرياء من عامة الناس وسبي النساء وعرضهن في سوق النخاسة وقتل الأطفال وغير ذلك مما تندى له الجبين من أبخس الأفعال التي لا يعمد إليها سوى من لا دين ولا وازع له .

وهنا لا بد لنا من وقفة إزاء طرح الأزهري وفورته ورد فعله وتألمه مما وجده في بطون الكتب بحيث جسد ببساطة ووضوح أخلاقيات حملها البعض مما تتنافى وما يجب أن يكون عليه الرجال من الصحابة لاعتبارات ومقاساة عدة ، أهمها أن هؤلاء الرجال كانوا من اقرب الناس إلى الرسول ، وكان وعلى وفق ذلك شركاء له في إدارة الدولة بعد أن يشير عليهم ويأمرهم بما أراد الله جل وعلا . وبالتالي يفترض أن يكونوا من علية القوم وارفعهم خلقا ونبلا ؟ ولكن الشيء الذي وجدناه خلاف ذلك تماما ، فما بين القتل والتجاوز وشرب الخمر وممارسة المجون ، والاستئثار بالسلطة وقتل الأبرياء والمعوزين ، كل تلك العاهات الاجتماعية ، لا يفصل بينها وبين اعتيادهم عليها سوى لحظة الشيطان المرافقة لهم أبدا .

ووقفت حائرا متسائلا مدندنا مع نفسي إزاء ما ذهب إليه الأزهري : إذن ما الذي حدا بالذي بدا ... بالأمس كان صحابة الرسول ، هم أول من باشروا في خدمة الدين ودولته ! واليوم هم أول من عاث فيها الفساد بجهالة . وكان الأزهري مصيبا حين عاد لتعليل وتبرير ما عمد إليه هؤلاء من أفعال مشينة إلى بيئتهم وسلسلة نسبهم وآبائهم ، وقد وجد ان معظم هؤلاء ممن كان يعاني من وحشة الدار والغربة وفقدانه حنان الأسرة ورعايتها له ، مما انعكس سلبا بل وبأسلوب سادي في معظم أفعالهم وتحركاتهم من اجل السلطة والجاه . ويحق لنا هنا تأكيد اختلافنا مع الأزهري لنناقشه حول مصطلح (الصحابي) وما هي معيارية أن يكني بها أشخاص مارقين خارجين عن السلطة والأعراف ودين الله القويم ، وإذا ما اخترنا نموذج من بين تلك الشخصيات التي وصفها بالصحابة وقد أسرفا في فعل الفاحشة والقيام بجرم القتل والإبعاد والاستحواذ ، فليس أقرب من هو إلى هذه الصفات بقريب سوى

بسري بن أرطقة ومعاوية بن أبي سفيان وكلاهما يكنيهم بالصحابي!! وأول ما ابتغي سماعه من الأزهري هو التوصيف المنطقي والصحيح لمنزلة الصحابي ...فمن هم الصحابة في رأيه؟

أولاً : الصحابة والمال :

يعطي الأزهري توصيفا دقيقا وواقعيا لأصحاب الرسول وأتباعه ممن أطلق عليهم القرآن الكريم تسمية "الأراذل" . فهم من اسحق الناس وأكثرهم عوزا وفقرا ، يكدحون كدحا كي يحصلوا على لقمة عيش نزرة ، وكثر العزاب لأنهم لا يقوون على دفع المهر لأهل الزوجة ، وأكثر من ذلك هو كيف يمكن للمتزوج أن يعيل زوجته وعياله !!، حقا كانت فاقة لا مثيل لها قد مر بها أتباع الرسول وأعوانه . ولكن الأمر يتغير ،والمسار يبدأ بالصعود بما يتعلق بأحوال هؤلاء الأنصارْ ، فما أن دخلت الدولة ألإسلامية في حروب ضد المشركين والدول الأخرى حتى تنفس الكثير منهم وبالأخص القادة الأكبر الصعداء ، فقد كثرت أموالهم واقتنوا العقار والمزارع والإقطاع ، ونسوا ما كان بالأمس من شظف العيش ... وتلك هي طبيعة الأشياء في تغير مستمر.

حقا أتلمس وأنا في لجة متابعة ما كتبه الأزهري من متغير هؤلاء ، من شظف العيش إلى رخاءه ، انه لا يمقت ان يتحصل المرء ولا سيما الصحابي على المال ووفرته وكثرة اقتناءه للعقارات والزيجات والجواري ، فالمهم أن لا يحيد عن جادة الصواب ، وان يستمر في نهجه المؤسس على الصراط المستقيم وهذا أمر جيد وحصيف ، فالثروة المتحصل عليها عبر طريق شرعي رصين ، مباركة وستفور ، وهنا يؤكد الأزهري هذا المذهب حين وصف الصحابة ممن سار مسارا قويما ، ولم

يحد عن جادة الصواب ، فأنهم حصلوا على الدنيا وثواب الآخرة ، وهو الفوز العظيم[١] .

وبغية ترصين ما ذهب إليه من هذا المتغير ، ارتأى أن يستعرض مسارات بعض الصحابة التي توضح لنا هذا المتغير الذي ما ارتبط بصاحبه إلا من أجل فائدة الدنيا وبلوغ ثواب وأجر الآخرة . فتحدث عن أسماء بنت أبي بكر وآلية زواج الزبير بن العوام منها ، وبين ليلة وضحاها وإذا بالزبير وعائلته يعدون من أثرياء قريش وأسيادها . وهذا المتغير في الأحوال ، جرى على الصحابي الجليل عبد الله بن عمر ، فمن مبيته في المسجد لعدم وجود مأوى له يؤويه ، نجده وقد تجاوز هذا الألم بعد أن صارت الأموال والثراء يسعى بين يديه سعيا . وتحدث عن مؤن المقاتلين في أثناء حروبهم بداية بالغزوات ، إذ كانوا يقتاتون على أكل الجراد ، وتطور الأمر إلى أكل النمل ، وإذا لم يخرج معهم محمد (ص) إلى الغزو ، فسوف لن يصطحبوا معه قزانات الطبخ ، ويكتفوا بما سيجدونه من نبات الأرض وغير ذلك من بساطة العيش وخشونته . وقبل أن نسترسل في بسط أيدينا على هذا الموضوع ونسترسل في التأكيد على الجانب المادي لهذا المسار ، كان علينا أن ندرك أن جماعة محاربة شديدة المراس ، قوية الشكيمة ، تقاتل من دون مؤونة مؤّمنة ، بل تعتمد على ما سيتعثر عليه من طيبات الأرض . وهذه الظاهرة بصرف النظر عن أي تأويلات أو اقتناص حالة ضعف أو اضطراب نفسية المعني بالدولة ، فإنها دلالة كافية راسخة ، على أن هؤلاء السادة من أمراء القبائل وأسيادها ومن شهد مأساة العيش لديهم ، يمكن أن نطلق عليهم رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه " فما وصلوا إليه من الثراء والجاه ، هو أمر حتمي وفق مسارات الأحداث وتعاطيهم معها . وراح الأزهري يرسم لنا صورة مغايرة ، أو هي تمثل

---

١ الشدو(٢)، ص١١٧ .

الجانب الثاني او الصوب الاخر من حياة الصحابة في دنياهم وهو التغير من القحط الى الميسرة وتنعم كبار الصحابة بالجاه والثروة والحكم والأمر والنهي ، وبالتأكيد كانت تلك المسارات تسير بهدي وتوجيه وأمام مرأى الرسول (ص) لا يعترض عليها ولا ينتقدها ما دام صاحبها ملتزم لا يحيد . وقد استشهد بذكر عدد من أحوال الصحاب لترصين ما ذهب إليه في هذا المتغير ، فأشار إلى من كانت ثرواته الشخصية تتزايد يوميا من أمثال عبد الله بن عمر وعبد الله بن مسعود وسعد بن أبي وقاص ، وغيرهم بالعشرات بل بالمئات . وهذا الأمر سحبه ليذكر أيضا من شملهم هذا المتغير من أمثال أنس بن مالك والحسن بن علي (ع) وأبو هريرة ومحمد بن الحنفية وأبن أبو عباس وأبو قتاده ، لينتهي الى القول بأن هؤلاء كانوا قد لبسوا مطارف الخز وجباب الخزّ وبرانس الخزّ[1] .

ويقف الأزهري وفي سياق تناوله هذه الموضوعات التي توضح لنا مسار المتغيرات في حياة الصحابة الكبار ، على أن بيان مفردات هذا التغيير ومخرجاته ، تؤكد السياقات الصحيحة لمسار الحياة العادية ، أنها تبدأ بخشونة الحياة ثم ما تلبث أن تتغير استنادا لبذل المساعي والجهد والتضحية وما الى ذلك من عوامل التغيير والارتقاء وبالتالي تبدل الأحوال من شظفها الى ترفها . ومع ذلك ، فهو لا يسلم بصحة ما ذهبت إليه بعض الروايات التاريخية والتي تصور عوز وكدح عمر بن الخطاب وفاقته ، وما ان اعتلى سدة الحكم حتى غدا من ملوك الأرض وأثريائها . وهذا لا يدعو إلىئ الخلط ودمج الأوراق ، بحيث نسقط حالة من كان معوزا قبل قيام الدولة ألإسلامية ، وصار بعد قيامها من الأثرياء ، لا نريد ان نسقط هذه الحال على حال صحابة لم يمروا بفاقة وعوز من أمثال عمر بن الخطاب ، ومن أجل ان لا يحيد المعنى او يتخلخل ، فقد تطرق الى بيان حالة عمر قبل وبعد

---

١ الشدو (٢) ، ص١١٧ .

خلافته . ففي المرحلة التي سبقت خلافته ، كان دائم العطاء متصدقا على الفقراء ، منوها بالعشرات من الأمثلة التي تؤكد ذلك . وأشاح الأزهري بعد ذلك بنظره ، ليعبر صوب ذلك المعبر والذي مثل ما بعد الخلافة ، وما جناه من الملايين من الفتوح والحركات ألإسلامية . وقد استدل على فورة أموال عمر ، ومدى التغيير الذي حصل من جراء تلك الغزوات وحركات الفتوح ، انه وفي أثناء زواجه ببنت علي ام كلثوم وما كان قد أغدق فيه من الأموال . ولكي يقطع الشك باليقين من حقيقة ثروة عمر الطائلة ، أكد ان دلالة ثراء المرء ورفاهيته ، هو عدد زيجاته ومستوياتهم الاجتماعية . فأشار الى تسعة من النسوة ممن ارتبطن به برباط الزواج.

ويتحدث عن امتيازات تحققت لبعض الصحابة استنادا لمعيارية ، لا أعتقد ان الأزهري مقتنع بها شديد الاقتناع ، وهو حصول الصحابي على كم من الفوائد والاعطيات استنادا لقربه من الرسول ولعلمه وشجاعته ومواقفه وهكذا بالتدريج حتى يصل لآخر شخص في قائمة المنتظرين ، فيحصل على اقل عطاء أو فائدة من تلك المتغيرات[١] .

وأورد الأزهري أسماء عدد من الصحابة ممن تكدست لديهم الأموال من أمثال عمرو بن العاص ، والإمام علي بن أبي طالب ، وقد استدرك هذا الأمر ليؤكد ان الإمام علي لم يكن من البرغماتيين او المتلصصين او ممن يتلذذ بأهواء الدنيا وملذاتها ، إلا انه ومن خلال تعداد زيجاته وعدد أولاده ، كل تلك الأشارات تشير قطعا الى ان حاله بعد استقرار الدولة قد تغير كحال الكثير من الناس . وقد استدرك الأزهري على ما ساقه من المعلومات التي أرجح انه لم يقتنع بها فأراد ان يصحح ما رواه ، إذ قال : " وقد رأينا في فصله (البداية) ان أبن أبي طالب كان يعمل بيديه بأجر زهيد وانه كان يربط الحجر على بطنه من الجوع ، ولما بلغ

١

فاطمة بإن الرسول محمد (ص) عزم على تزويجها منه اعترضت بحجة انه (فقير آل طالب) ، ومع أننا نشكك بهذه الرواية استنادا لما طفقت عليه السيدة فاطمة من خلق ألإسلام الذي تعلمته من أبيها ، فكيف تسنى لها ، ترفض أو تعترض على أمر أتاها من نبي الله وهو بالتالي أمر من الله جل وعلا[١].

ويصل الأزهري الى الصحابي عبد الله بن العباس عبد المطلب ، المكنى بحبر الخامة وشيخ ألإسلام وهو بالتالي من الصحابة الأجلاء ، وكعادته ، راح الأزهري يبحث في مكامن الكتب وبطون المؤلفات ويتحرى عن أدق الجزئيات عن الصحابة وأتباعهم . فيقف عند رواية ساقها لنا ، وانا وللوهلة الأولى ساورني الشك بصحتها ، وهي تقضي بمعاقبة عبد الله بن عباس لرجل لم يحصل اتفاق بينهما حول عمل يتعلق ببيع وشراء أرض زراعية . ويقول ان ابن عباس أمر بجلده مائة جلده . وهذا ما يتنافى قطعا ومبادئ الدين ألإسلامي الحنيف . ويأخذ الأزهري ، على ابن عباس انه بفعله هذا ينضم إلى الطبقة الرفيعة المستوى والتي من شأنها ان تأمر وتنهى وتنأى بنفسها عن قضايا الناس وهمومهم ، الأمر الذي عزز من توجه بن العباس في معاقبة هذا الرجل الذي يبدو انه أغاظ ابن العباس حين ذكر له ان ثمن ضيعته تلك لا تساوي الكثير ، لا سيما بعد ان تبين ان هذا الرجل كان قد عرض على عبد الله بن العباس ما قيمته أدنى بكثير من سعرها الحقيقي ، وهذا الواقع هو ما أراد الأزهري ان يتوصل إليه بخصوص هذا الصحابي الجليل الذي أعطى حسب رأيه لنفسه جواز معاقبة الآخرين وانزال ما يشاء من العقوبة . ويصل الأزهري في بحثه الى شخصية سعد بن أبي وقاص الذي روى عنه مفارقة حين أشار الى ان صباه وقبل ان يدخل المعترك الحربي وخاض غمار الحروب ، كان وأسرته يفترشون الارض ويقتاتون على شجر الشوك ، وبين ليلية وضحاها ، أمتلك

---

١ الشدو (٢) ، ص١٤٢ .

ابن الو قاص عقارا فارها مغطى بالعقيق واسع الشرفات ، والفناء مما احتاج الى العبيد والحشم والخدم ، وينسى بعد ذلك تلك الأيام العجاف . ويصل الى ذكر الصحابي يعلي بن منية أو يعلي بن أمية التميمي ، من الصحابة الذين ساروا مع عائشة ضد الإمام في واقعة الجمل ، وبعد هزيمتهم انضم الى صفوف الإمام علي ضد معاوية ، وحارب معه في صفين . وقد جمع ثروة طائلة من جراء الفتوحات والنهب والسلب . ويذكر كذلك خّباب بن الأرت ، وهو عبد اشتراه سباع الخزاعي ووهبه لأم مروة . وقد تغيرت أحواله المالية كما هو الحال عند الصحابة الآخرين ممن سبق ذكرهم . وأشار كذلك ، إلى الصحابي أنس بن مالك بن النضر والصحابي سعيد بن زيد بن عمرو ، وقد جرى عليهم ما جرى لغيرهم من أمر التبدل في الأحوال .

ويصل الأزهري الى البحث في نوع أخر من الصحابة ممن وصفهم ببالغوا الثراء أو ما أسماهم بالمليونيرات واختار من بينهم الشيخ المخضرم عبد الرحمن بن عوف الذي ما طفق ان يفارق لبس الحرير من الأقمشة ولا سيما الألبسة الجاهزة . فتحدث عن ثروته الطائلة وأشار الى أراضيه الزراعية ومشاتله وبيوته الكثيرة . وأعاد الأزهري بعضا من هذا الثراء للصحابة الى ما عمد إليه الخلفاء ومنهم بالذات الثاني والثالث من بذخهم على القادة والحكام من دون رقيب أو حسيب او الرجوع الى استشارة او قانون . وأشار الأزهري الى جملة التبريرات التي ساقها بعض الفقهاء لتبرير ما ذهب إليه الخليفتين من البذخ على الصحابة ولا سيما منهم لاستاذ لاستاذ لاستاذ من أمثال عبد الرحمن بن عوف وأمثاله . والى جانب ذلك ، أشار الأزهري الى ما أورده فقهاء آخرون من عدم شرعية ما عمد إليه الخليفتين من البذخ بالأموال على بعض الصحابة ، لان تلك الأموال هي أموال المسلمين ومن بيت المال وليس من بيت الخليفة الخاص . وفي لجة ما أثيرت من تساؤلات تتحرى أسباب لجوء الخليفتين لهذا السلوك ، يمهد الأزهري لإجابته عن تلك

التساؤلات من أن التحولات الاقتصادية في المجتمع ، وما استوجبت من تغيرات في الأفكار والتوجهات ، كانت سببا بعدم التمترس خلف النصوص وعدم لزوميتها في تشريعات كهذه[١] .

وفي مبحث أخر (مواقف الصحابة في عهد محمد) يصف الأزهري حال الصحابة وموقفهم من الغنائم وتوجههم الكبير عليها ، مؤكدا ان تلك الظاهرة ، كانت موجود قبل جئ ألإسلام ، فقد اعتادوا حالة السلب والنهب حين غزواتهم للأقوام الاخرى ، وكانت قد استمرت معهم هذه الحالة حتى مجيء ألإسلام . وأشار الى الجهود الجبارة التي بذلها الرسول (ص) من اجل الوقوف دون استفحال هذه الظاهرة بين المسلمين من المقاتلين ، وقد أشار الى بعض المواقف التي كان عليها ممن استولوا على العسكر والسلب ، وكيفية التمسك بتلك الأسلاب دون غيرهم من المقاتلين . وأشار الى أكثر من حالة لتمسك المقاتلين بأسلاب قتلاهم ، لدرجة ان بعض المقاتلين المسلمين لم يتوانى في ان يقتل من هو اقرب الى ان يستسلم ، بدافع الحصول على أسلابه ، وهذا يعني أن الدافع المادي لدى البعض من المسلمين كان وراء تلك الاندفاعات لدخول المعارك والغزوات . ومع ذلك ، فقد أعاد هزيمة جيش المسلمين في موقعة احد ، أعادها الى تهافت المسلمين على أن يحظوا بوافر من الأسلاب وانشغالهم بتلك ألأسلاب كانت قد هيأت الفرصة لجيش قريش ان تعيد الكرة وتنتفض على المسلمين وتهزمهم شر هزيمة ، لا سيما بعد ان تخلى الرماة عن مواقعهم طمعا في مشاركة الآخرين في السلب والنهب . ويميل الأزهري فتبريره هزيمة المسلمين في واقعة أحد إلى حنكة المشركين ، حين أشاعوا أخبارا عن كثرة ما حملوه معهم من مواد وإغراض تصلح لتكون خير سلب للمسلمين ، وقد تظاهروا حين بدء المعركة أنهم تركوا الأسلاب خلفهم وبصورة تلفت

١ الشدو (٢) ، ص٢١٦

الأنظار ، وقد انطلت الحيلة على المهاجمين فوقعوا في الفخ[1] . ويستطرد الأزهري في حديثه عن ظاهرة الاستلاب وما آلت إليه من تطور الرغبة في الجهاد الى حالة الاسترزاق ! وحينها يفقد المسلم صفة من صفات المسلم الحق ، ويبقى ديدنه الحصول على الأسلاب ولا شيء غيره . وهذا وكما لا يتقاطع معه أحد ، أمر صحيح . فالتوجه المادي في أي عمل أو نشاط ، أذا ما زاد عن الأطر المحددة له ، فانه بلا شك سيؤدي الى نتيجة عكسية . وهو ما وقع في واقعة أحد ، حين كان المسلمون قاب قوسين أو أدنى من الانتصار ، إلا أن الرغبة في السلب ، قد فاقت رغبتهم في تحقيق النصر وما يعنيه ، فكانت تلك النهاية الكارثية على المسلمين .

ويأت الأزهري الى البحث في مرحلة التحدي للمسلمين وهي مرحلة ما بعد الرسول (ص)، مستعرضا ما مرت به تلك المرحلة من بناء الدولة بداية بما حصلت من معارك ومن كان المتصدي لتلك المعارك ، منوها بأثر العامة والطبقة التي أسماها بالمثقفة من المستنيرين من أمثال عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف . وأشار الى المسار البياني لزحف الجيوش ألإسلامية نحو مبتغاها في قيام الدولة ألإسلامية . وعزا الأزهري هذا التفوق والتقدم السريع لنباهة محمد (ص) ونظرته الثاقبة في تأمل الأشياء وترتيب الأمور . ولا سيما بعد ما حقق مبدأ انتقال مركز الثورة الى يثرب ، ومنها تمكن من فرض سيطرته على كامل شبه الجزيرة العربية ، فبات الآمر الناهي . وبعد ان ترسخت قدم دولته على يثرب ، وجد ضرورة نقل الثورة الى خارج الحدود ، وهي الخطوة التي رأت استحسان أصحابه وقادته فكان النجاح حليفها كما هو الحال في الخطوات السابقة .

---

١ الأزهري : الشدو(٢) ، ص١٢٨

وبلوعة واضحة يشير الأزهري الى شهداء ألإسلام الأوائل من أمثال سمية أم ياسر ومقتل مصعب بن عمير وما كان قد لحق بهما من عيش الكفاف والعوز ، وما ان تحققت للإسلام أهدافه ، حتى تقاسم البعض كيكة النصر وتقلدوا مقاليد الحكم ممن لم يكن لهم من مشاركة أو دخول للسجون المظلمة ! وهكذا ترى هذه الحياة في متغيراتها طبائع أبنائها التي تكون انعكاسا دائما لمبانيها . ويقف الأزهري عند بيت من بيوم المسلمين ، أسس حزبا أخذ على عاتقه مسالة الوصول الى الحكم ويمثل معارضة مدعومة من أطراف معينة وبالتحديد يمثل يمين الثورة ، في حين شكل الإمام علي وجماعته يسار الثورة حين لم يناصروه بالشكل الذي يرغب ان يكون فيه . وقد انضم لجماعة معاوية من الضعفاء والمساكين ، وحين انتصر بهم ، وتسيد الموقف ، فان هذا لا يعني نهاية دولة محمد بقدر ما كان للنصوص الثابتة القرآن والحديث والتعاليم ، الدور الأكبر في الحيلولة دون أي انهزام . وعودا على بدء .

واستكمالا لماهية عنوان هذا البحث ، فقد انتقى الأزهري شخصيتان للحديث عنهما كنموذج لما بعد محمد (ص) وهما عثمان بن عوف ومعاوية بن ابي سفيان ، فتحدث عن حياتهما واختار مراحل هامة منها ، ولا سميا تلك التي تمكنوا فيها من الاستحواذ على اكبر قدر ممكن من الموارد والثروات . وبدأ الحديث بذكر المبررات التي جعلت عثمان ابان خلافته يفتح المجال للصحابة ان يحصلوا على الضيع والمزارع والاموال ، مبررا ذلك ان الخليفة عمر كان قد وقف حائلا دون تحقيقهم ذلك ، بل انه لجأ الى عنصر التسلط في اقرار سياسته التي لا ترقى لسياسة صحابة الرسول (ص)[1] . وفي هذا السياق من سياسة الخليفة عمر ، فقد أسهب الأزهري في بيان مواقف متسلطة لعمر بن الخطاب إبان خلافته . ووجد أن سياسة

---

١ الشدو(٢) ، ص٢٤٦ .

هذا الخليفة عادت عليه بالسلب ، مؤكدا ان من حال دون انسياحهم في الدولة ألإسلامية من المهاجرين ، وما ذاقوه من المحن وشظف العيش ، كان وراء حدوث الكثير من الفتن والحوادث ضد الدولة ، وعلى الأقل إن هؤلاء الصحابة لو قيض لهم الانتشار في أرجاء الإمبراطورية ، لكانوا عونا له في الكشف عن جملة السلبيات والتجاوزات التي تراكمت فكانت نتائجها غير مرضية . وبالتالي يرى الأزهري أن الخليفة عمر بن الخطاب يتحمل جزءا من تبعة جعل بعض الصحابة يسيرون بالاتجاه غير الصحيح من التعامل مع الآخرين[١].

وقد انتقى من بين الشخوص الذين وجدهم قد أساؤوا استخدام بيت المال من الصحابة ، أختار عثمان بن عفان ومعاوية بن أبي سفيان . فتحدث عن كيفية تسنم عثمان الخلافة ، وآلية اختياره مع إن الأفضل كان موجودا ولم يتم اختياره وهو الإمام علي (ع) ، مؤكدا ان استغلال عثمان للظرف الذي صنعته سياسة عمر بن الخطاب أزاء المهاجرين والصحابة ممن فدوا ألإسلام ، وعدم فسح المجال لهم بالثراء او الانسياح في ارض الإمبراطورية ألإسلامية ، وقبع ألصحابه بحدود يثرب ، وعدم تملكهم الضيع والأراضي في الممتلكات الأخرى ، إلى جانب أن عمر جعل إرادة الحاكم فوق أرادة النصوص التي وصلت الى درجة القداسة . بل وان الأزهري يشير الى أهم الخطوات التي لم يفلح بها الخليفة عمر بن الخطاب في ترتيبه لأوضاع المهاجرين وبعض الصحابة ، وعدم السماح لهم بالانزياح في أراضي الإمبراطورية ألإسلامية ليكونوا عينا للخليفة حول اي تحرك ملحوظ ضد الدولة . ومع انه أدرك تلك الحقائق متأخرا ، فقد وجد الأزهري تعثر سياسة الخليفة عمر في حبسه بعض الصحابة ، ومن ثم إفلاتهم زمن عثمان مما أدى إلى العمل من اجل تعويض ما فاتهم في وقت راح عثمان يغدق على حاشيته ، مما تسبب في

---

١ الشدو(٢)، ص٢٤٩ .

ثوران هؤلاء الصحابة والثورة عليه ومقتله . ولعل من الأمور الأخرى المسببة لفتنة عثمان ، هو التأويلات الكثيرة التي قيلت لاختيار عبد الرحمن بن عوف ، لعثمان خليفة وتركه عليا في لجنة الستة ، مع انه الأفضل والأنسب . مؤكدا ان رفض عليا لشروط ابن عوف في إتباع سنة الشيخين في الحكم ، مع قبول عثمان على تلك الآلية ، هو السبب في ميل ابن عوف لاختيار عثمان خليفة للمسلمين ، مع ان نهج ابن عوف وكذا الحال للشيخين لا يستقيم ونهج الإمام علي (ع) . ولعل من الأمور الهامة في اختيار عثمان للخلافة هو اندحار كتلة اليسار او ما تعرف بجماعة الحرس القديم ، وبروز كتلة اليمين المتمثل بخط البيت الأموي . وما ان تقلد عثمان مقاليد السلطة واستقر الأمر له ، حتى بادر لجلب مستشارين له وحكام يُقيمِّون عمله ويشرعنون له القول والفعل ، حسبما تقتضي الحال . فتمترس من خلفه حنفنة من المنتفعين والوصوليين الانتهازيين ممن أدخلوه بآرائهم غير الموفقة ، بدوامة من المعاملات السيئة الصيت من خلال توجهاتهم وأمراضهم النفسية وحبهم المفرط لجمع المال . وقد وقف الأزهري عند سيرة أربعة من أولئك المستشارين له ، فوجد ما وجد من الأفعال المشينة والمرفوضة والقيادة غير الشرعية ، فكان من بينهم الحكم بن أبي العاص ومروان بن الحكم والوليد بن عقبة بن أبي معيط شارب المخمور حتى في صلاته . وقد اقتنع عثمان بهؤلاء وأغدق عليهم وعلى غيرهم من أتباعه وذويه ، وكله كان من بيت المال وليس من حسابه الخاص مما ألب الناس عليه لا سيما أولئك ممن عاشوا الفاقة والحرمان . ووجد الأزهري ان عثمان كان قد سوغ لنفسه أفعاله من خلال تسويقه لتلك الأفعال وسياسته ، ومنها انه يسوق النصوص لتبرير أفعاله وان راوي الحديث عن أفعاله هو ابو موسى الأشعري وهو من إتباع عثمان ، والى ذلك فقد برر عثمان عزله لعبد الله بن أرقم ومعيقيب عن الاشراف على بيت المال لكبر سنهما . أما زيد بن ثابت الذي ولاه مهمة الاشراف على بيت المال ، فقد كان الشخص المسؤول عن

اللجنة التي كتبت المصحف المعروف بمصحف عثمان[١]. وفضلا عن ذلك ، فقد وقف الأزهري عند السياسة المالية التي اتبعها عثمان إزاء أتباعه وأقاربه مما ألبت عليه الكثير من الجماعات التي وجدت في نفسها غبنا كبيرا قد وقع من جراء تلك السياسة ، ولرب مثال واحد من إغداق عثمان على أصحابه من خزينة الدولة هو إعطاء مروان بن الحكم مبلغ مهول وصل الى مليار دينار . وليس ذلك فحسب ، بل ان عثمان راح يستبدل الولاة والقادة وغيرهم ممن كانوا في العهد الذي سبقه ويحل محلهم من أتباعه وأقاربه وأنصاره ، وبالتالي تبدأ مرحلة الاتفاق على واردات الخراج والجزية لتجد طريقها سالكا نحو جيوب الخليفة وأتباعه (٢٩٥) . ويشير الأزهري الى سلوك إداري غير صحيح كان عثمان يلجأ إليه ، تمثل بإغداقه الأموال أيضا على العبيد وعلى أبناء القادة والأمراء ، وقد وصل به الحد في الإغداق عليهم من جيبه الخاص ، وأكثر من ذلك ، فقد أغدق كذلك على أشخاص خانوه ، فأجزل لهم العطاء . وهذه السلوكية من إدارة المؤسسة ومحاولة الارتقاء بها وقتذاك ، كان بحاجة الى تغيير شامل للهيئة الإدارية وإعادة النظر في برامجها ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب . وأشار الأزهري إلى ملاحظة جديرة بالاهتمام تتعلق بماهية شخصية عثمان المهنية ، أو هل هو رجل الساعة ؟ ان عثمان كان ضحية جماعة تؤآزره ، وبالتالي هو في حكمه الى اقرب الى شيخ القبيلة منه الى الملك . ومن جهة أخرى فانه كان قد أصر على اتخاذ صفة الملوكية من خلال نظرته الى المال حين لم يفرق بين ماله الخاص وبي مال المسلمين العام وراح يغدق ويتصرف انى يشاء من دون الالتزام بأي نص من النصوص ، وكان من تداعيات هذا السلوك ، أن عدّ مبررا لما اخلفه من حكام الدولة ألإسلامية للتصرف الشخصي بمال المسلمين متخذين فكرة ان عثمان وهو

---

١ الشدو(٢) ، ص٢٩٤.

ثالث الخلفاء الراشدين ، كان قد أعتمد هذا الأسلوب في التعامل مع بيت المال ، فما بالنا نحن من ننظر إلى حياتهم بوصفها استمرارية لما أراد الرسول ان تكون.
ويأت الأزهري إلى النموذج الأخر من المعادلة وهو معاوية بن أبي سفيان الذي وصفه بالطليق ومن المؤلفة قلوبهم ، والذي انتهى به الى الحال الى ان يكون أميرا على الشام . ويستطرد الشيخ الأزهري في إظهار مساوئ معاوية وسوء فعاله والتي لا ترتقي ومكانة أمير المؤمنين وخليفة المسلمين ، منوها بما كانت عليه أمه هند آكلة الأكباد ، ومنتهيا الى القول بان معاوية بمثابة كناية عما تصير إليه الثورات الشعبية في مسارها حين يستخلف فوائدها من لم يؤسس لها او يشترك في تفجيرها ، وخير ما ينطبق عليه هذا الوصف هو الجبان كما يذهب الى ذلك حين قال : ان المخططون للثورة فلاسفة والمنفذون لها أبطال والمستفيدون منها جبناء . وهذا التوصيف للفئة الثالثة من مكونات الثورة هو ما حظي به معاوية من شيخنا الأزهري وباستحقاق متناه . وما دام هو بصدد الحديث عن شخص معاوية بوصفه نموذجا اتخذه للحديث عن موقف الصحابة من المال ، يقول ما معناه : ان موقف معاوية من المال يقدم لنا لوحة بالغة الغرابة والتعقيد معا ، ولكن دائما وربما بطريق الحتم واللزوم ان مما يساعد على تجلية صورة المترجم له الذاتية ، هو ذكر طرف من سيرته الأولى بخاصة تلك المتعلقة بالذي يجري بحثه ، لان هذا يسلط الأضواء الكاشفة على نفسيته ، مما سيساعد على تحليل البواعث التي دفعته الى إتيان الأفعال التي مارسها فيما بعد ، معولاً في توضيح ما ذهب إليه من خلال تطرقه لروايتين اعتمدتهما المصادر القيمة ، وما كشفت عن أهميتهما وعاد الشيخ الى ذاكرة الكتب فاستخلص منها حديث للرسول عن معاوية إذ قال عنه : صعلوك لا مال له . وقد تساءل الأزهري كيف يكون معاوية صعلوكا وقد صار أحد بناة الإمبراطورية العربية ألإسلامية بلا جدال ؟!. وينفذ الأزهري من خلال توصيف الرسول لشخص معاوية بانه قليل المال ملتفتا الى ان الصعلكة أمر ثانوي ولكن

الافتقار الى المال كان السبب الرئيسي لجنوح معاوية وارتكابه الاثام من اجل ان يصبح ثريا ويشق طريقه نحو ترأس الامبراطورية حيث استمر حكمه لعقود من الزمن . ويربط الأزهري بين صباه حين كان يبحث عن لقمة يسد بها جوعه وكانت الحاجة الماسة لديه للمال والنهم للطعام والاحساس بالجوع دوما ، هذا الثالوث مطبوعا بالصعلكة ، يعد موضوعا لا نظير له[١] .

والى ذلك ، فقد اسهب الأزهري في استعراض مواقف معاوية من المال ، إذ وجدها مواقف متشابكة معقدة أختلطت فيها الصعلكة مع النهم والحاجة الى الاقتناء والاحتياز مع الاضطرار الى البذل وإطعام الاخرين إما شراءً لضمائرهم داخل أفواههم أو تملقا واسترضاءً لهم . وسنكتفي بعرض موقف واحد لمعاوية ، يغنينا عن كشف كل مواقفه واكثرها فحشا ودناءة . فقد ذكر الأزهري : ومن أجل ان يصير المال العام نهبا مستباحا لمعاوية يفعل فيه ما يشاء دون رقيب أو حسيب سماه (مال الله) ولكن ترى ما السبب؟ !! ذلك لانه ظل الله على الارض ومن يغدو المال طوع مشيئته – لأنه مال الله ، وإقدام معاوية على تغير الاسم من (مال المسلمين) الى (مال الله) كان قد أفزع الصحابي أبا ذر الغفاري الذي انتصب لمعاوية يحاوره ويعارضه ويناوئه حتى أرسله معاوية الى عثمان الذي بادر بإرساله الى الربذة حيث مات شريدا طريدا غريبا معوزا . ومن ثم انطلق معاوية بعد ان استقر الأمر إليه ببعثرة بيت المال بين نزواته وإغداقه على أصحابه وذويه . وقد أورد الأزهري عدد من الأمثلة تشير وتؤكد الفساد المالي والإداري من دون ان يتجرأ أحد على مواجهته سواء في الجهر او العلن . واستدراكا لمعان ومظاهر الفساد التي قام بها معاوية ، فقد عرج على علاقته بعمر بن العاص الذي ولاه ولاية مصر في مقابل ولاءه وطاعته ، لينتهي الأزهري الى القول : لقد قرن معاوية بين استمتاع

---

١ الشدو(٢) ، ص٣١٧ .

ابن العاص بمصر ، وبين لزومه طاعة سيده الذي نفحه مصر ، مما لا يقبل الشك في ان معاوية اشترى ولاء ابن العاص مقابل الضيعة التي تسمى مصر . ومع ذلك فان معاوية ومن أخس أفعاله هو عدم الوفاء بأي وعد او كلام يقرره ، بدليل ان عمر بن العاص ما ان شارف على الوفاة حتى قام معاوية بتصفية أمواله كلها متناسيا مواثيقه ووعوده . واستطرد الأزهري في عرض الأمثلة والشواهد التي توضح ان معاوية لا يهمه في مواقفه سوى مصلحته الخاصة . فجاء الى مقارنة بينه وبين الإمام علي الذي لم يتمسك بالخلافة امام معاوية مؤكدا ان استقامة الإمام علي وحرصه على دماء المسلمين وعدم سماحه بشيوع الرذيلة مقابل ضياع الحسنة ، كل ذلك أدى ألى ان يحظى الإمام بتاريخ ومكانة عالية في قلوب المسلمين شيعة وسنة . وكان من القضايا الهامة والحساسة التي ناقشها الأزهري بما تشير الى سوء سلوكية معاوية ، هي مسألة ملك فدك ، وكيفية تلاعبه بها واعطاء حق البتول الى مروان بن الحكم الذي بدوره وهبها لولديه عبد الملك وعبد العزيز .

ويلتفت الأزهري مرة أخرى لابراز مساوئ معاوية وسلوكه الشائن ازاء ثوابت ألإسلام . وعن ذلك يقول : سننتقل بعد ذلك الى مجال آخر ، إذ كان معاوية قد استعمل فيه المال لتحويل خصومه وشانئيه الى انصار وأعوان أو على الاقل سل السخيمة من صدورهم وتحييدهم وقد تجلى ذلك واضحا في صراعه مع الإمام علي (ع) . ويُرجع كثير من المحللين تخاذل عدد وفير من جنود علي (ع) والانشقاقات التي حدثت في صفوف جيشه الى منائح (منح) معاوية الجزيلة ، بل ان هناك ما يؤكد وجود طابور خامس في كل من البصرة والكوفة العراقَيين وكان يعمل لحساب معاوية الذي كان يرفده بسخاء[1] .

---

١ الشدو(٢) ، ص٣٣٤ .

ويتطرق الأزهري الى البحث في شخوص رافقوا الرسول وناصروه ايام اعلان دولته ، ويتسائل هل ان مواقف هؤلاء كانت بمحض الايمان بما جاء به محمد ، أم ان هناك مصالح وأغراض وطموحات أخرى أدت دورها ولكن بشكل غير متساوٍ وغير متناسب . وبغية الاجابة عن تساؤلاته تلك ، ارتأى ان يقف عند شخصية عقيل بن أبي طالب ويتحرى مواقفه وسلوكياته . فتحدث عن سيرته ومواقفه ، مستثنيا الحديث عن كل المواقف سوى حادثة اختلافه مع شقيقه الإمام علي حين لم يجب طلبه بأخذ مبلغ اربعين الف درهم لسد ديونه ، ومن ثم التفات عقيل الى معاوية الذي وجدها فرصة مثلى لخطف هذه الشخصية القوية والمؤثرة الى جانبه ضد الإمام علي . والتفت الأزهري الى مثال أخر من امثلة استقطاب معاوية للصحابة الى جانبه ضد الإمام علي (ع) ، ببذخ اموال المسلمين عليه ، فتحدث عن الحتاب بن يزيد وجاريه بن قدامه والاحنف بن قيس إذ تمكن ببذخ المال عليهم من تحويل ولائهم من الإمام علي الى معاوية . وليس ذلك فحسب انما انسحب الامر ايضا على الصحابي عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب الذي انتهى به المطاف بان مال الى معاوية وطرا من الزمن ، وباع دينه مقابل مال لعبت به وأغرته ، لينتهي الأزهري الى القول عنه : ولا زالت فرق التبجيل تسمي عبد الله بن العباس (حبر الامة) ولو ان الامة أقتدت بحبرها الجليل أو بجليلها الحبر ، لما بقي في خزائن المال العام على طول دول العالم ألإسلامي وعرضها دانق[1] .

وتحدث عن عائشة وموقف معاوية منها ، حين عمد الى التقرب منها استنادا لما تشكله من ثقل اجتماعي وسياسي وقد أهداها قلادة من الذهب قومت بمائة الف درهم ، وهو بذلك يضع له خطة إستراتيجية تمتد لسنوات عدة وسط تكتلات

---

١ الدانق يعني سدس الدرهم ، وعادة ما يضرب به المثل للدلالة على القلة ، للمزيد ينظر الشيخ الشرباصي ، المعجم الاقتصادي الإسلامي .

وشخوص لم يحبذوا تسنم معاوية السلطة ، ومن الواضح ان معاوية قد أحسن الاستفادة من تجارب الماضي حين أدرك ما تمثله عائشة وما يعني عدم اصطفافها معه . وقد انتهى الأزهري في بحثه الى مقارنة بين من امتنع عن تسديد دين أخيه من بيت المال ويعني الإمام علي (ع) ، وبين من راح يمنح الهدايا لمن يشاء وبغير حساب ورقيب .

وفي مبحث الصحابة والنكاح ، تطرق الأزهري الى بيان الظروف التي جعلت من الرجل مزواجا دون تحديد لعدد ما يرومه من النساء . وأشار الى ان مرحلة ما قبل ألإسلام كانت معيارية الوجاهة والغنى والعز ترتبط باقتران الشخص بعدد الزيجات ، فكلما ازدادت ثروة الشخص ازدادت معه زوجاته وخليلاته ، حتى مجيء ألإسلام وتحديد عدد الزوجات بأربعة فقط . وقد تطرق الأزهري إلى الإفصاح عن زوجات معاوية بن ابي سفيان . وامتد بحثه الى بيان النساء ممن تزوجن خمسة واربعة وغير ذلك ، بحيث اكتسبن ألقابا منها المخمسات والمربعات ، وهذا عرف كان موجودا ما قبل ألإسلام ، واستمر ما بعد ألإسلام ولكن بحلةٍ جديدةٍ اقل سخونة وأقل تفاعلا . ولم يبق الامر على حاله من الزواج ، انما حصل اتجاه آخر حين حصلت الحروب ووقعت الأسيرات بأيدي المسلمين . إذ تحولن الى جواري ، أضيفت الى عدد الزيجات . ومن الواضح ان الأزهري كان مدركا لبيان الجوانب الاجتماعية وتأثيراتها بالأسرة . واستنادا لأهمية ما شكلته المرأة من أهمية خطيرة في مجرى تاريخ الأمم ،فقد تحدث عن ما عرف بقانون وراثة النسوان وما شكله من قضية مثيرة للجدل تمثلت بأمور فقهية وأخرى تاريخية وفكرية . معولا في إثارة هذه المسألة ومناقشتها من خلال الاستشهاد بردود علمية وفقهية أطلقها شخوص معنيين بتلك الموضوعة من أمثال الدكتور زناتي . وأشار الى أهمية هذه القضية وما ستشكله من تمتين الروابط بين الأبناء مشتركين . وفي مجال تبرير الأزهري لتعدد الزيجات ، أو للمرأة وتعدد الأزواج ، بأنه يعود الى إدراك الشخص أهمية بناء

عائلة متكاملة ، وهذا ما جعل من الإلحاح على الزواج ورؤية العين ، شيء واقع لا محال وان كل ما حصل هو مرتبط بحركة المجتمع . وحول هذه التقاليد ومنها التعددية وما يتعلق بزواج المرأة المتعدد وغير ذلك من الإرث العربي القديم قال :((ان مجال الزواج ثري وخصب وحافل بالإخبار والوقائع التي تنطق بذواتها ان الصحاب والصواحب بشر لهم نوازعهم وطبائعهم وغرائزهم ودوافعهم مثل غيرهم من ذرية آدم ، وفضلا عن ذلك فان ابناء وبنات مجتمعهم كانت تحكمهم أنساقه وأعرافه ونظمه وإكراهاته وموجباته وانهم لم يستطيعوا منها فكاكا ...))[١] . ومن ذلك يرى ان ما حصل من عادات وتقاليد ولا سيما تعدد الزوجات والأزواج ، إنما هو عائد لطبيعة المجتمع وتقبله لتلك العادات وقتذاك .

والتفت الأزهري الى العشرة المبشرين بالجنة وراح يبحث في سيرة هؤلاء ولا سيما تعدد زيجاتهم وآلية ذلك ، وقد بدأ البحث بسيرة الخليفة الاول أبو بكر وأشار الى انه تزوج اربعة زوجات فيما تزوج الخليفة الثاني عمرو بن الخطاب تسعة زوجات وكذا العدد عند عثمان بن عفان والإمام علي (ع) . وأحصى عدد زيجات طلحة بن عبيد الله ، أذ وجد انه تزوج تسعة فيما وصل عدد زوجات الزبير بن العوام الى ستة ، بينما كان عبد الرحمن بن عوف قد تزوج عشرون أمرأة ، وتزوج سعد بن أبي وقاص أحدى عشر زوجه وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل مؤكدا انه لم يتسنى معرفة عدد زوجاته ، ولكن الروايات التاريخية تشير الى ان عدد أولاده قد وصل الى أحدى وثلاثون أبنا . وهي أشارة إلى انه لم يتزوج اقل من أربعة الى خمسة وليس بأقل من ذلك . ولم يفلت من هذا العرف سوى أبو عبيد ة الجراح الذي اقتنع بزوجة واحدة والتفت الى استقرار أحواله وابتعاده عن مماحكات

---

١ الشدو(٢) ، ص٣٣٥

الاختلاط بالمجتمع وتقبل سلبياته ، متى ما وجدت[١] . وبهذا الخصوص يؤكد المتصارع بين إخوته ان تعدد الزوجات لا يرتبط حصرا بثراء الرجل بل بقناعته من عدمه ، بل والأرجح ان معياريته ترتبط باحترام القطط التي ترى ان صاحبها يهيأ لها كل شيء . وتحدث عن قاعدة الاربع زوجات ، التي أقرها ألإسلام . وما ان سمع صحابي بنقد الأربع حتى بادر الى تطليق واحدة منها ، ليتقدم لزوجة غيرها كتعويضية عما راح . وحين اقر ان لدى الصحابة ولعا في تعدد الزوجات ولكن في سياق متعادل ولا يحق للأخر ان ينافس أقرانه متى ما كان في ضمن الصفقة . وقد أشار الأزهري الى حالات متعددة أوقفنا فيها على تلك المنافسة بين الصحابة وغيرهم حول الحصول على امرأة ، لدرجة ان يتقدم أكثر من رجل ويبقى الخيار لها . وأشار كذلك لظاهرة تعدد زواج الصويحبات ، وقد أشار الى اشهر ما يعتقده من تجسيد لهذا الموقف ، وهي سبيعة بنت الحارث الأسلمية . بل انه عمد الى التطرق لمسار بعض الصويبحات ممن يرومن الزواج ، حتى صار للبعض خمسة ازواج وسميت بالمخمسية . أما الصنف الاخر فهن المرعبيات القصيرات ، واستشهد الأزهري لتوثيق تلك العادات بذكر ما ذهبت إليه عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل وأسماء بنت عميس بنت الخثعمية ، منوها بأسماء أزواجهن . وقد ناقش سر هذا التعدد من الزوجات مؤكدا انه بمثابة امتداد لعادات وتقاليد المجتمع ككل ، بحيث لا يانف الرجل من ان يتزوج أمرأة كانت قد تزوجت قبله عدد من الرجال ، وهذا الامر ينسحب ايضا على النساء . ويرى الأزهري ان هذا العرف والتقليد متوارث لديهم حتى صار من ثوابت حياتهم . وهذا التوصيف للنساء ذوات الخمسة

---

١ المصدر نفسه ، ٣٦٦ .

بعول انسحب أيضا على ذوات الأربعة بعول والمثلثات . فأشار الى بعضهن وذكر أسماؤهن ، الى جانب ذكر من تزوجنهم من الرجال[١] .

وأشار الأزهري الى بنيوية الجماعة الصحابية ، سواء الرجال او النساء ، مستعينا بنبذه مختصرة عن حياتهم واهم نشاطاتهم ، ومؤكدا ان المرأة القائدة تختلف لديه عن باقي النسوان . وبغية الإشادة بالمرأة ومكانتها الاجتماعية ، ارتأى الأزهري ان يلفت النظر الى ركن من أركان الحياة الاجتماعية لتلك المرحلة ، بل ومن الاركان المؤثرة في الحياة اليومية وهو شكل وترتيب ملابس المرأة بما فيها المرط أو الوزرة والدرع والقميص والخمار والخمار المصبوغ والخميصة وثوب عصب والمعصفر والممشقة والأزرار والرداء والسروال ، وبعد ذلك ، وقف عند الحلي ومفردات الزينة التي كانت النسوة يستخدمنه للتزين ، مثل الشنف او القرط والخلخال والقلادة والسخاب والمسكة والسوار والاوضاح[٢] .

ومع عرضه لهذه الجوانب المبهجة والملفتة للنظر ، فانه وقف عند الجانب السلبي من علاقة الرجل بأزواجه ، ومنه عادة الضرب والتهجم على النسوة واستخدام العنف ضدها لينتهي في كتابه هذا الى القول)) :ان تعاضد الزمان والمكان على تخليق المجتمع الذي عاش فيه الصحابي في لحظة تاريخية نادرة ، وهو أعلان الرسول لثورته التي غيرت تاريخية المنطقة بالكلية ونقلتها نقلة لم يكن يتخيلها أحد ولا حتى هم انفسهم . فان الذي لا يختلف عليه اثنان ، ان المبادئ والقيم السامية التي نادى بها الرسول (ص) . لم تتح لها . الفرصة لمحو بصمات الزمان والمكان اللذين ذكرنا . من سلوكيات الصحاب والصواحب التي تبينت في بعضٍ من هذا السفر الثاني انشاء الله .

---

١ الشدو(٢) ، ص٣٩٥

٢ المصدر نفسه : ص٤٣٩ .

السفر الثالث : الصحابة والمجتمع :ـ

في الجزء الثالث من هذا السفر الكبير والمعنون بالصحابة والمجتمع ، وقف الشيخ الأزهري ، موقف الشاهد المترقب ، لروايات تطرقت الى بيان المسار التاريخي لتحول الرسول الأعظم من مكة الى المدينة ، مع بيان اهم المحطات التي شكلت تدرجا في تقبل الرسالة المحمدية ، ولعل من اهم ما تصدى له الشيخ الأزهري هنا هو انتقاده لروايات لم تسوقها المصادر والصحاح ، ووقائع لم تحدث أطلاقا ، صاغها كما يقول الأزهري المؤرخون المحدثون ، قطعا هي بمثابة علاقة ضبابية حصلت ما بين الصحابة وبين المجتمع ، بل ان تلك العلاقة قد شابها قسط لا بأس به من اللغط ومحاولة إملاء فراغ أوجدته تلك الجماعات المجادلة والمتمترسة خلف السطور تخشى الولوج الى رحم النقاش والمجادلة، ليتسنى لها ملأ تلك الثغرات وبالتالي فانها ستشكل معرقلا أمام انسيابية الرواية الصحيحة التي لم يشأ صاحبها بعد حين ان يجعلها تنساق خلف التكتلات او التحزبات والفئوية القاصرة .
وقد انتقى الشيخ بعض الروايات المعنية بموضوعة هذا السفر ، وهي روايات وللأسف ربما حرفت معانيها وعلى الارجح حتى مبانيها ، كما في ورود معلومة لطالما كررناها وتناقلتها المصادر التاريخية من أمثال وسائل النشر ، ووسائل الطباعة وهي الرواية المألوفة عند أكثرية المسلمين حول استقبال الرسول حين مجيئه الى يثرب إذ يقول : ((انما على وجه القطع واليقين لم يستقبل محمد (ص) عند قدومه يثرب بالأهازيج والزغاريد ، ولم تهرع إلولائد (الولدان) والفتيات للترحيب به ، وهن ينشدن ((طلع البدر علينا من ثنيات الوداع)) مؤكدا عدم ترديد هذه الانشودة حين مجيء الرسول الى يثرب وما آلت إليه الامور لاحقا[١] .

---

١ الشدو (٣) ، ص٨ .

ويستطرد الأزهري في حديثه عن رحلة الرسول من مكة ووصوله الى المدينة ، وما حصل من متغيرات بنيوية لهذه المدينة حال وصوله لها ، فقد تغير اسمها واصطف الاكثرية الى جانبه (ص) باستثناء اليهود ممن تقبلوا الامر الواقع ، ومنهم من راح يحيك الدسائس ، ناهيك عما تمخض من هذا المتغير البنيوي للمدينة من بروز معارضة للتغيير الجديد ، وهذه المعارضة هي ما وصفها الأزهري بالمعارضة السياسية والتي وجدها تغلب على المعارضة الدينية لان سبب وقوفهم بوجه الرسول (ص) هو عدم رضاهم من ان يستحوذ نفر من المهاجرين على مقدرات الدولة التي يديرها محمد . وعلى وفق ما وجد رأس المعارضة ابو عبد الله بن ابيّ بن سلول العوفي ، من إصرار الرسول على المضي برسالته ، وان اكثرية جماعته قد انضموا الى دولة الدين الجديد ، فقد عز عليه ان يبقى وحيدا فقرر على مضض الدخول الى ألإسلام ، ليبقى عينا تحيك الفتن والمؤامرات من داخل مجتمع المدينة المسلم . أما الشخص المعارض الاخر أبو عامر بن عمرو بن صيفي بن النعماني وهو من الأوس ويكنى بالراهب ، فقد بقي معارضا ومفارقا للإسلام حتى لقبه الرسول بالفاسق وليس الراهب (١٢)

وأمام هذه الصورة المتشابكة والمعقدة من الاهواء والتوجهات ، بدأ الرسول (ص) مشواره في التأسيس لدولته الكبرى ، فبدأ بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصارْ مستدلا على ذلك بعرض لعدد من تلك النشاطات العقلانية التي كانت أساسا صحيحا للدولة ألإسلامية الكبرى . وفي سياق تطرق الأزهري لإلية الرسول التي اتبعها في المؤاخاة بين الأنصارْ والمهاجرين ، وجدنا ثمة أشارات لحكمة الرسول (ص) ودلالات على أخلاق وسلوكيات انبياء ورسل ، فلا فرق لديه في التعامل مع الآخرين ، فلا فرق بين هاشمي وبين رجل من بني تميم او خفاجة ، ما دام الجميع يعمل من اجل سيادة الدين والدولة . وعلى الرغم هذا الإحساس وهذا التصميم كان قائما عند الرسول ، فانه لم يسقط حالته تلك على نفوس المهاجرين أو الأنصارْ

ممن يظن بتفوقه على الأخر ، بل انه نظر بحكمة بارعة وأخذ بنظر الاعتبار التفاوت الاجتماعي والسياسي بين الأشخاص وبين القبائل عن بعضها . وعلى فرض ان هناك من أغنياء المدينة ومترفيها ، وهناك أيضا من فقرائها ، فانه راح يخطب ويرتجل منتقدا تلك الحالة . فعمد الى مؤاخاة بين عثمان وبين وجهاء المدينة من أمثال مصعب بن عمير وبين عمه الحمزة وبين زيد مولاه . ، بل وبين عثمان بن عفان وأوس بن ثابت والأول من بني أمية والأخر من بني النجار . وغير ذلك من الشخوص الذين وجد في المؤاخاة بينهم يعني صقل وتماسك لجدار دولته الجديدة . وأورد الرسول (ص) أمثلة عديدة على حالات المؤاخاة التي عمد إليها الرسول لغرض حماية لدولته الفتية ، وسرعان ما تغلبت هواجس أخرى ومنها الوضع المالي والوضع النفسي ، ولم يكن بغافل عنها بل تعاطى معها بكل واقعية ، وتمكن من تجاوزها باتباع تلك الوسيلة المحكمة من التآخي[١] .

وبعد تلك الفرشة من المعلومات حول سياسة المؤاخاة ، وقف عند الباب الأول من كتابه هذا ليشرح وبشكل وافٍ هذه الجزئية من الأدوات التي لجأ إليها الرسول (ص) في سبيل التغلب على معرقلات بناء الدولة الجديدة . وضمن عنوانه الإستراتيجية ، وفيه يشير الأزهري الى ان الرسول على الرغم من المواقف التي قاموا بها وما قدموه من تنازلات وتضحيات ، فانه لم يتعامل معهم وكان حالهم وموقفهم من المسلمين ، أمر مسلم به ، بل كان حذرا في كل خطواته ، لا سيما وان المهاجرين او النازحين الى يثرب من مكة لم يتعرفوا بشكل جيد ولم يندمجوا بعد بالمجتمع اليثربي ، ولم يعتاد أفعالهم والوقوف بشكل نهائي على نواياهم . ويبدو ان هذه الهواجس والأحاسيس ان لم تكن من الثوابت ، قد أدت بالرسول ان يتريث في اعتماد أي مقاتل في حروبه ضد قريش حتى غزوة بدر . وقد أشار الأزهري إلى

---

١ لاشدو(٣)، ص١٥

عدد من المجاميع المقاتلة التي بعثها الرسول للحروب ، وكانت تخلو نهائيا من أي عنصر من الأنصارْ ، وهو بذلك يجعل الاختبار لهم ميزان تقبلهم في أطار مشروع الدولة . وأكثر من تلك الدلائل على اعتماده على المهاجرين في تغطية متطلبات الحرب ، انه لم يولِّ واحدا من الأنصارْ على مدينتهم حين يغادرها غازيا بل كان يولي أحد المهاجرين كما هو الحال في غزوة بواط وغيرها من الغزوات التي أشار إليها الأزهري ، والتي بلغت ثمانية غزوات ، مؤكدا ان هذه السياسة من دمج عناصر المهاجرين بأهل يثرب ، كان لها مغزى بل وانها بمثابة إستراتيجية عميقة الغور حققت عدة أهداف أشار إليها الأزهري تباعا ، لينتهي الى القول)): ان المؤاخاة لعبت دورا مؤثرا في تمويل المهاجرين أو النازحين إذ هم المستفيدون من التوارث دون الاثاربة أو الأنصارْ ، الأمر الذي يقطع بان المؤاخاة كانت خطة موفقة غاية التوفيق تضاف الى أدلة الثبوت المتراكمة التي تقطع بعبقرية الرسول (ص) [1] . وقد أسهب الأزهري في مناقشة ما ذهب إليه ابن تيمية في عدم سعي الرسول للمؤاخاة بين المهاجرين وبعض المهاجرين ، مؤكدا ان أبن تيمية قد انفرد بنفيه المؤاخاة بين المهاجرين والأنصارْ لان مصادر موثقة أوردتها مع سندها فيها منها ابن هشام . والى ذلك ، حصل جدل في ماهية معنى الحلف وقربه من المؤاخاة وقد أشار الأزهري إلى معاني هذه المصطلحات " الحلف والمؤاخاة " مناقشا آراء ابن تيمية في ذلك وموضحا ضعف سنده في هذا الطرح من خلال أدلة استدل بها[2] .

وفي مبحث لاحق أسماه الأزهري بـ " المهاجرون والأنصارْ أو النازحون والمقيمون أو القادمون والمستوطنين : ومن خلال تساؤلا طرحه يقول : هل أعطت المؤاخاة

---

١ ص٢٤

٢ للمزيد عن تلك الأدلة التي وقف عندها الرسول (ص) ، ينظر الصفحة (٣٠) من الكتاب هذا.

ثمرتها ؟ ليبدأ بكلمات معبرة يريد منها القول)) ان المجتمعات لا تتغير بالخطب المؤثرة التي ترتجف منها القلوب وتسح لها العيون دمعا سخينا ولا بالنصائح الغالية والحكم البليغة ولا بالنوايا الحسنة ... بل بتغيير الواقع المادي ، بخاصة للبنى التحتية ولظروفها المعاشية ولأحوالها الحياتية ولبيئتها ووسطها .))[١] . وقد أورد الأزهري رواية وجدها موثوقة ، تعكس وجهة نظر الواقع المعاش وقتذاك ، وتنبأ بما كانت عليه حقيقة المؤاخاة بين الأنصارْ والمهاجرين ، إذ تقول تلك الرواية (قال الصحابي عمار بن ياسر : كان مسجد الأنصارْ يسلّمون فيه هذه الجماعة تسليمتين في حين كان مسجد المهاجرين يسلمون فيه تسليمه واحدة ، وهذا واقعا يبعث في النفس تساؤلا لا يحتمل أكثر من جواب واحد.)٣٢ . ومن ذلك يبدو ان الأزهري قد تبنى رأيا حول ماهية العلاقة التي كانت قائمة بين الجماعتين . منوها بان اتخاذ كل جماعة لمسجد يصلي فيه أتباعهم على حدة ، يؤكد ان روح التفاهم والتماسك والاندماج وذوبان كل فرد في مجتمع الأخر ، أمر لم يحصل إطلاقا . ويبرر الأزهري وهو صائب فيما ذهب إليه ، بان الرسول (ص) كان مدركا كل الإدراك ، واقع الجماعتين ، ومتبنياتهم ورؤاهم ، وتمسك كل جماعة بعاداته وتقاليده ، الأمر الذي لم يسمح فيه لنفسه ان يقف حائلا دون سريان عادات وتقاليد كل جماعة من دون ان يعكر صفوها ، أذا ما انتقد حالة او رفض شعيرة او تقليد . وقد اتخذ سبيل التوفيق بين المتضادات من العادات والتقاليد ، ومن الأعراف سواء الدينية او العشائرية . ووقف الأزهري عند مظاهر معينة من التاريخ ألإسلامي العتيد ، تنم بل وتدلل كثيرا على ان الصحابة لم يكونوا بأي حال من الأحوال بأحسن حال منذ لحظة انعقاد القمة أو ما تعرف بواقعة السقيفة بين الصحابة عقب وفاة الرسول الأعظم (ص) . وقد أورد العديد من الإشكالات التي رافقت هذا

---

١ شدو الربابة / ج٣، ص٣٢ .

الاجتماع ، ولعل أهمها هو التقاطع ما بين الأنصارْ وبين المهاجرين لدرجة ان أطلقت بعض التهديدات ما بينهم ، بل إن الأزهري أعطى صورة مقلقة لطبيعة العلاقة بين الجماعتين ، لينتهي إلى القول إزاء علاقتهما ببعضيهما ((إن ما نشب بين الفريقين (النازحين وأهل البلد) من شقاق بلغ حد التهديد ، يقطع بان المؤاخاة لم تكن ذات أثر كبير في صهر الفريقين أو حتى دمجهما وان ساعدت كثيرا في قيام دولة قريش ... وبين البداية : الصلاة في مسجد مستقل ... والختام وقائع يوم سقيفة بني سعد ...))[١] . وقد ساق الأزهري روايات عديدة تشير إلى واقع تلك المؤاخاة ، وموضحا ماهية العلاقة بكل دقتها ما بين الجماعتين[٢] . وكان من بين تلك الاختلافات تجري أما حول الأسلاب او الغنائم أو حتى الأعطيات الثابتة ، وما كان للأنصار وما كان للمهاجرين من تلك الأعطيات .

وفي مبحث مستقل أسماه الأزهري بـ (التنافس بين الأنصارْ والمهاجرين) أورد عدد من التحليلات والاستنتاجات كان محورها قراءة في تاريخية تلك الجماعتين منذ ايام ما قبل ألإسلام مرورا بقيام دولة ألإسلام ، ووجد أن هناك أسباب وعلل تتعلق بعضها بآلية تقسيم الأعطيات وأسباب أخرى أنتجت حالة من التنافس بل والتناحر وصل في بعض الأحيان إلى محاولة سل السيف على الأخر .وقد أشار إلى ثمانية أسباب ، وجد أنها تمثل روح الأسباب وجوهرها ، والتي أدت إلى شيوع تلك الحالة من تجاوزٍ لقيمٍ جاهد الرسول بثها في نفوس أصحابه .

وفي مبحث آخر أسمه : ضرورة تقديم قريش ، أراد الأزهري بيان مكانة قريش وأهميتها ليس على المستوى الاجتماعي والاقتصادي ، بل على المستوى القيمي ، وهذا ما أشار إليه وأكده ضمن ما أورده من الأحاديث التي نقلها ثقاة عن الرسول

---

١ شدو الربابة / ج٣: ص٣٧ .

٢ ينظر المصدر نفسه ، ص٣٧ وما بعدها .

(ص) ، وفيه تأكيد على تلك المنزلة والوجاهة . ومع هذه التوصية والإرادة الربانية ومؤثرات النبي ، فان الهدوء والسلم بين المهاجرين والأنصارْ لم يجد له مرتعا ، فكانت المواجهة وللأسف ، المواجهة المسلحة التي دعا أليها عمر بن الخطاب انه سيلحق بالجانب الرسمي من تلك المعادلة ، وحاول التأثير للحصول على أذن بتصفية عبد الله بن سلول وهو أمر رفضه الرسول ، بل تمكن من التفاوض مع أطراف مؤثرين في المشهد السياسي ، وامتصوا نقمة الطرفين بأسلوب دبلوماسي ، لتنتهي تلك الغمة بسلام وقد كادت ان تزهق أرواح الوطن الواحد[١]

والى ذلك ، أورد الأزهري رواية أخرى ، تسير بهذا الاتجاه ، حين أشار إلى أسماء عدد من الأنصارْ عن غزوة تبوك من دون عذر ، وهو ما يرمي إليه الأزهري ، بوصف ذلك تعبير عن وهن العلاقة بين الأنصارْ وبين المهاجرين . لينتهي الى بيان المشادة الكلامية والخلاف الذي حصل بين الطرفين حول تولي الخلافة . فالأنصارْ رشحوا سعد بن عبادة ، فيما رشح المهاجرون ابو بكر الصديق . حتى وصل الأمر من الخلاف بأن توعد الحباب للنازحين بإجلائهم عن أثرب كما أجلى محمد (ص) اليهود . وتعزيزا لما ذهب إليه الأزهري من قول بغليان العلاقة بين الجماعتين ، ذكر أن هذه الصورة التي رسمها الطبري لأحداث اجتماع سقيفة بني ساعدة وما دار بين المهاجرين والمقيمين العرب (أهل يثرب) ، لم يعد يتسع المجال لذرة من شكٍ في ان العلاقة بين الجماعتين كانت بالهيأة التي رسمها او أشار إليها الأزهري[٢] .

ولم يقتصر أمر الخلاف والتجسس على الرجال من الجماعتين ، بل تعدى ذلك الى النساء الاثربيات كذلك ، والمكيات ، وقد ذكر وقوع عدة من تلك المشاحنات

---

١ الشدو (٣) ، ص٤٥ .

٢ الشدو (٣): ص٦٤ .

والمماحكاة ، لدرجة ان تلك العلاقة المتشنجة دلالة على الإحساس بعدم ارتياح كل طرف للطرف الآخر[١] .

وفي مبحث أخر بعنوان مواقف الصحابة من يهود يثرب . تطرق الأزهري الى حقيقة العنصر اليهودي ، وتفرعاتهم ، ومع ذلك ، فهو لا يجد مقاربة بين ما حققه الرسول (ص) من فوز وظفر في علاقته بأسلمة اليهود ، وبين مساعي اليهود لتهويد بني قيلة . وقد عزا الأزهري هذا التفاوت في المنجز ما بين ما قدمه الرسول (ص) وبين غيره ، الى جملة أسباب منها :.

. ما يتعلق باثنوغرافية المنطقة وانتماءاتها ، والاخر لأغراض اقتصادية .

. عامل العصبية القبلية ، والانتماء الى القبائل العربية .

. ما كان للرسول من كاريزما أعطته قدرة على مواجهة الصعاب .

. هناك اعتبارات ووجهات نظر بين من تستأنس برأيه بوصفه نبيا يوحى إليه ، في حين ان اليهودية تدعو من خلال الأحبار ، وهناك فرق شاسع بين ما هو حبر وبين من هو رسول ... وغير ذلك من الأسباب والعلل التي وجد أنها تكمن وراء ما تحقق للرسول من انتصار بهيج فاق تصورات الجميع ، بل وانبهروا فيه .

ووجد الأزهري ان تلك الإطلالة تعد خير وسيلة للكشف حقيقة علاقة بني إسرائيل ببني قيلة ، قبل مجيء المهاجرين الى يثرب . وتحدث عن طبيعة العلاقة التي جمعت بين الأوس والخزرج وبين اليهود من قريظة والنضير ، وما صار إليه الامر من ترتيب لمقتلتين لمجموعة من أشراف اليهود دبرها بنو قيلة ، لتقليل شأنهم في يثرب . وقد اورد الأزهري استنتاجا يشير فيه الى ان الاثاربة العرب واليهود كانوا قد اتحدوا لزمن طويل ، أما التخلص من يهود يثرب فقد تم من خلال مكامن هيأها ملك غسان او جبيلة ، بما يعني ان قبيلة (الأوس والخزرج) كانوا قد تعودوا على

---

١ المصدر نفسه ، ص٧١ .

المكائد والمؤامرات . ومع ذلك ، وجد ان البطون الصغيرة من اليهود أتسمرت على حلفها أو جوارها مع الأوس والخزرج ، وأكد ان ذلك التحالف استمر حتى وصول المهاجرين ، موضحا ان هذه البطون وان كانت مستضعفة إلا انها صاحبة الأغلبية العددية . والى ذلك ، وجد ان من امتنع عن التحالف هما الفرعان القويان من اليهود بنو قريضة والنضير . ولعل من اخطر ما استنتجه ان عدد اليهود كان قد تراجع كثيرا بعد المذبحتين اللتين نفذهما أبو جبيلة الغساني ومالك بن العجلان ، وهذا ما هيأ الى ان يتغلب عليهم الاثارية (بنو قيلة) . وخلص فضلا عن ذلك الى توصيف دقيق ليثرب حال وصول المهاجرين اليها ، بحيث كان الأوس والخزرج لهم السؤدد والعز لوجود روابط وثيقة بين اليهود مع الأوس والخزرج . وأكد ان ما تشعر به الأوس والخزرج من قوة ومن امتلاكهما للمال الوفير ، الغى اية فكرة للتحالف مع اي طرف أخر لانتفاء الحاجة إليهم .

وتحدث الأزهري عن الأنصارْ وعن علاقتهم باليهود ، بوصفهم الركيزة الأساسية من سكان يثرب ، وكيف تزايد عدد الصبية المهودين من خلال رضاعتهم من قبل اليهوديات ، انتهاء بأمر جلائهم من يثرب ، وكيفية معالجة هذا الموضوع من قبل الرسول والسماح لهم بالبقاء بوصفهم مسلمين ، وان أخفوا إيمانهم الصحيح باليهودية دون الديانة ألإسلامية[١] .

وراح الأزهري يسوق لنا الروايات المتعددة عن آلية معالجة هذه الإشكالية ، وما نتج عن تهجير الآلاف منهم الى خارج يثرب ، فناقش إشكالية المعاهدات المبرمة بين أشراف الأوس والخزرج مع اليهود ، وهذا ما نوه به الرسول حال مقدمه ليثرب . وتحدث بإسهاب عن واقع حال اليهود حال وصول المهاجرين المسلمين إليها إذ واجزها

---

١ الشدو (٣)، ص٧٦

بالوثيقة التي كتبها الرسول والتي تحفظ حقوق الجميع بالتساوي ومن دون أكراه ، ولكنه أشار الى فقرة مستقلة في هذه الوثيقة وجدها جديرة بالنظر تمثلت بالأشارة إليهم مرة أخرى دون يهود يثرب الآخرين مما يعني ان ترتيبا قد تم التفاهم عليه بشان يهود الأوس وبنو قريضة والذين تم التخلص منهم نهائيا .

ومن الواضح ان تلك المعاهدة كانت بمثابة ميزان لأعمال اليهود ، فحين وجد الرسول (ص) أنهم خرجوا عليها ، أوقع بهم العقاب المناسب . وكان من بين تلك الأقوام اليهودية :بنو قنيقاع وبنو النضير وبنو قريضة ، فعرض الأزهري الى ترجمتهم وبيان مواقع تواجدهم في المدينة وأثرهم في نسيجها الاجتماعي ، وبالتالي تطرق لدور كل قوم في حياكة المؤامرات والتعديات على المسلمين ، لينتهي الى القول : أن العلاقة بين العرب المسلمين وبين اليهود في يثرب لم تكن ضعيفة بل شملت جوانب كثيرة ، ولا سيما ان مئات السنين كانت قد جمعت بينهم ، مما انعكس إيجابا على علاقة بعضهما ببعض لدرجة ان بني قيلة اعترفوا أن بني إسرائيل يمتازون عنهم فكريا وعقائديا ، بوصفهم أهل كتاب وبذلك يقرون بسّمو الكتب المقدسة وعلو الرسالات السماوية . ولا شك ان ذلك قد ساعد على دخولهم الديانة ألإسلامية[١] .

وحين تطرق في مبحث مستقل موضوعة " المهاجرون" طرح تساؤلا مفاده : كيف كانت علاقة المهاجرين / النازحين من مكة بيهود منطقة أثرب . وقد كانت الإجابة عن هذا السؤال ، بمثابة محتوى هذا الموضوع ، بل انه أشار الى صعوبة العثور على الأخبار المتتابعة والتي تشير الى علاقتهم بالثورة التي انتهت الى جلائهم ، أو مقتلهم ، ثم يلتفت الى بيان طبيعة علاقة المهاجرين بالأنصار ومع ان مصادر هذه العلاقة شحيحة ، إلا ان الشيء الذي يمكن استنتاجه من سياق

---

١ الشدو (٣) : ص١٠٠ .

تتبع الأحداث ، هي علاقة اتسمت بعدم القبول والارتياح ، بل كان كلاهما ينفر من الآخر ويتربص له لأسباب عديدة ، أشار إليها تباعا ، موضحا قاعدة وجودها وتأثيراتها . والتفت الى شرح الظروف التي أتيحت للمهاجرين ان يعملوا في التجارة في يثرب ، وقد التزم هؤلاء بقانونية البيع والشراء ، لدرجة انهم تفوقوا حتى على اليهود في هذا المضمار . وذكر عدد من الصحابة ممن مارس عملية البيع والشراء في الشارع وعلى المارة بوصف ما قاموا به ، هو أمر طبيعي بالنسبة للوافدين لمدينة ليس لديهم شيء يأكلونه . وفي سياق هذا الموضوع عرج الأزهري على بيان الأسباب الحقيقية لعدم ممارسة الأنصارْ للزراعة ، والنأي بأنفسهم من دونه . وهذا ما دفع بالكثير منهم ممارسة التجارة لا سيما بعد ان شعروا ان هذا اللون من العمل من شانه ان ينتهي الى التلاقي بين الطائفتين أو ما يدعي إلى الفرقة بينهم . وأكد ولأكثر من مرة أسباب نفور الطائفتين من بعضهما البعض ، من دون ان يتحدث عن إمكانية حل هذا الإشكال الذي تبادله المهاجرون وبنو إسرائيل في مجتمع أثرب[١] .

ومع هذا الخطب الجلل ، فان روح التعاون والتلاقي لم تؤثر الى حد كبير في بنيوية العلاقة بين المجموعتين ، فقد أشار الى ان عثمان بن عفان كان يبتاع التمر من بني قنيقاع ، وكان هو ذاته أول من أجلاهم . ولعل أهمية موضوعة العلاقة بين المسلمين وبين اليهود في أثرب ، كانت محطة مهمة وخطيرة في تاريخ المسلمين ، وعلى هذا الأساس أشار الأزهري إلى ما عمد إليه اليهود من سوء العلاقة وسوء التصرف مع الرسول (ص) مشيرا ومنوها بكثرة الأسماء والبطون التي ظهرت إبان ذلك العهد ، ودخلوا في إشكالية فكرية وعقائدية مع الرسول وأتباعه ، وقد أشار إليهم الرسول تباعا من الأفراد والبطون . واستدل الأزهري على عمق

---

١ الازهري ، الشدو (٣) ، ص١٠٥ .

العلاقة بين الجماعتين من الأزهر إلى صالات لعب الناركيله ، والشعر . وذكر عدد من أفخاذ وأسماء الأمراء ورؤساء الكتل ، وقد تمثلت مجادلاتهم بالمماحكة والإسقاطات والمزايدات مشيرا إلى أهم الشخوص الممثلين لهذه الشريحة من أقوام اليهود في الجزيرة العربية . وقد انتقد الأزهري عدم تضمن روايات الحديث ، تفصيل كامل عن الحوادث التي تصدت إليها ، لا سيما وان تلك الحوادث ، تعد صفحة مشرقة من تاريخ الفكر والعقائد ألإسلامية ، والتي لو أتيحت فرصة الاطلاع عليها بكل جزئياتها ، لوفرت مادة تاريخية غنية ودسمة .

وتحدث الأزهري عن علاقة القرشيين بيهود (مدراس) ، مشيدا بمستوى علميتهم ومنوها بمساعيهم في التدريس بما مثل مرحلة للتبشير بديانتهم ، ويبدو ان الأزهري مقتنع بل ومعجب بسيرتهم العلمية لدرجة ان تردد ومطالسة بعض الصحابة لهم ، دفع به ان يطلق عليهم بـ (ألانتلجينسيا) أو الفئة المثقفة ، ورأى ان من تنطبق عليه تلك المواصفات ، هو الخليفة عمر بن الخطاب ، مستندا في ذلك على ما ورد في بعض الروايات والتي أشارت إلى كلام له بهذا الخصوص وهذا الأمر من التردد على علماء الأحبار ورهبانهم ومناقشتهم ينسحب أيضا على أبو بكر الصديق. وتشير الروايات التاريخية ان هؤلاء الصحابة ، كانوا ينظرون الى التوراة نظرة تقديس بوصفه كتاب مقدس ، ولم يترددوا ان يطلعوا عليه ، مع الإبقاء على ثوابت القرآن بوصفه خاتم كتب المرسلين ، وما كان لاطلاعهم للتوراة إلا لغرض التنوير والاستزادة فهم ((ينظرون إلى كتاب اليهود الأقدس نظرة تقدير وإكبار ، فهو بحد تعبير أبن أبي قحافة ((كتاب الله)) بل وانه أضاف إليه إنجيل عيسى ، وأنهما مما يستشفى بهما .

وفي عنوان مستقل أسماه بـ " الأوس والخزرج " وقف عند تاريخية هذه الأقوام ما قبل ألإسلام وأشار إلى القتال الذي حصل بينهم وكيفية الاستنجاد بأقوام من خارج يثرب ، وحصل أن تدخلت أطراف أخرى للتقريب بين المتخاصمين وقد تم ذلك ،

وكادوا يتوحدون ويضعوا رؤساء لهم ، إلا أن وصول ألإسلام إلى يثرب ، قد مثل انعطافة في مجرى حياتهم بعد أن سلموا الأمر والنهي للرسول (ص) . ومع ذلك فان الأزهري لم يتفق مع من يدعي أن القبيلتين قد اتفقا بشكل نهائي بعد ألإسلام ، بل أن هناك جدلا وإشكالا قد حصل ما بين الطرفين واستمر حتى حين . وأشار إلى مساعي الرسول (ص) في أصلاح ذات البين ، مع أن هناك مشاكل استمرت ما بين الطرفين ، لا سيما وأنها كانت متجذرة لا يمكن بين ليلة وضحاها أن تتغير أو تمحى . وعلى الرغم من هذا الرأي ، فقد نسخ الأزهري رأيه هذا برأي آخر حين ركز على أثر العامل المادي في تغيير تلك الحال . فقد كان يرى ان تدفق الأموال نتيجة الحروب والغزوات ، وما أصاب المقاتلين من موارد ، قد ترك ما كانت من نزاعات خلف الستار ، وبدأت صفحة جديدة من التعاطي مع الموارد والأعطيات ، وصار ديدن الجميع العامل الاقتصادي وكيفية التحصيل[١] .وهنا نحن لا نتفق وما ذهب إليه الأزهري من ان العامل المادي المتمثل بالغنائم والأموال التي وجدت طريقها سالكا نحو جيوب المقاتلين ، كان سببا كافيا لطوي صفحة من التناحر والتنافس بين القبيلتين . والمعروف أن أي حدث في التاريخ لا يمكن ان يقع بفعل عامل واحد بقدر ما يكون حصول الحدث قد وقع بفعل عوامل عدة ، ولربما يكون لأحد تلك العوامل من تأثير متقدم على بقية العوامل ، فيكون عنوانا لتبرير وقوع هذا الحدث التاريخي . وهذا الأمر إذا ما أسقطناه على ما حصل من تغيير في مسار تاريخ الأوس والخزرج ، لا يمكن إطلاقا ان نعزو ذلك التغيير الى تأثير العامل المادي لوحده ، بقدر ما للعوامل الأخرى من تأثير ربما بمستوى او دون ذلك المستوى . ومنها العامل الديني ووصايا وتوجيهات القرآن الكريم وأخلاق الرسول ونصائحه ، الى جانب زيادة الوعي بزيادة التعرف إلى معبود واحد

---

١ الشدو (٣) ، ص١١٧

وأخلاقيات الدين ، والعامل الاجتماعي المترتب على فلسفة الدين وشرعه . وكل تلك الأسباب مجتمعة ، تكون قد هيأت ومن ثم أدت الى ردم الهوة بين القبيلتين ، بالأخص ان المصاهرة والتقارب بين القبيلتين ، كل تلك الأفعال والممارسات قد قللت من الشحن الداخلي لكلا القبيلتين ، وبالتالي سنجد ان الحل لها أسهل مما تصورنا . ((لقد كانت العلاقة بين الأوس والخزرج إبان حياة محمد : عبارة عن مصاولة ، مغالبة ، منافسة ، عض ، سطو ، استطالة ، وثب ، سطوة ، كما وصفها جديث رواه الزهري)) . ولكن تلك الأحوال تبدلت عندما انفتحت جيوب الفريقين وامتلأت خزائنهم من الأموال الأسطورية التي نهشت من البلاد الموطوءة حتى نهكت . وشيئا فشيئا اندثرت التفرقة بينهما بعد ان انطفأت جذوة العداوات والإحن والأحقاد إثر انشغالهم بالظروف الجديدة التي طرأت عليهم والتي لم يحلموا بها لا في منام ولا في يقظة من سبات عميق[١] (١٢٢) .

وبعد هذه الفرشة من الحديث عن قبيلتي الأوس والخزرج[٢] ، بوصفهم الطرف الأخر في المعادلة ، أسهب الأزهري في بيان محاسن وفضائل قبيلة قريش ، والتقت جلّ الآراء من أن مكانة قريش الكبرى وسط شبه جزيرة العرب تعود إلى عوامل عدة ، بداية ان العامل الاقتصادي بما كانت عليه من قوة التبادل التجاري ، ولعل الأهم في هذه المعادلة ، هو وجود شخصية الرسول الفذة التي تمكن من توحيد صفوف الأمة ، وتهذيبها وتشذيبها ، وقد أشار الأزهري الى ثمة إجراءات من لدن الرسول ترجح ميله لتفضيل قريش على باقي القبائل وذلك وفق معطيات واعتبارات متعددة ، أشار إليها تباعا ، الى جانب ذكر أحاديثه التي جسدت هذا المعنى . ولم تغفل المصادر الأشارة الى أهم الأحاديث النبوية التي تذكر فضائل

---

١ الشدو /٣ ، ص١٢٢

٢ المصدر نفسه ، ص١٢٨

قريش ومحاسنهم . ومن نافل القول ان نذكر ان ((قدسية أحاديث محمد (ص) لدى أتباعه هي التالية لقدسية القرآن ، ولا شك ان هذه الأحاديث زادت مكانة قريش لدى العرب المسلمين رسوخا وثبتت أهليتهم للإمامة العظمى أو الخلافة حتى ان القرشية هي أول شرط يتطلبه عامة الفقهاء فيمن يلي الخلافة ، على أن بعض الفرق مثل الخوارج تجاوزته ، ولكن عموم الإخوان السنة والجماعة ما زالوا يتمسكون به امتثالا لتلك الأحاديث[١] .

ومن جانب أخر ، ركز الأزهري على بيان العلاقة الوطيدة بين الرسول (ص) وبين بني هاشم بوصفهم أهله وذويه وقد أورد أحاديث عدة تذهب الى هذا المعنى . ومع أن الأزهري أشار الى ان المسلمين لم يقفوا من هذا البيت موقفا عدائيا ، او أنهم لجوؤا الى التجاوز على حقوقهم . ومع أننا لا نتفق مع هذا الطرح ، لا سيما اذا ما علمنا ان الدولة ألإسلامية الممثلة بالعهدين الأموي والعباسي ، لم يكن لهم من ديدن سوى محاولات الانتقاص والاقتصاص من البيت الهاشمي ، لا سيما من المقربين جدا من الرسول (ص) لكن تدخله في الوقت المناسب كسب ود . وقد أورد الرسول شواهد على ذلك ، ولا يمكن ان ينسى ما حل بالعلويين والعلويات على يد الأموي يزيد بن معاوية من قتل وسبي وتجاوز !! صحيح ان هذا الحادث كان بمثابة السبب الرئيسي لسقوط دولة الأمويين ، فهناك أسباب أخرى أسهمت في ذلك لا سيما الصراع الداخلي على السلطة ، وهذا الحال ينسحب على العباسيين وما تمخض من تلك العداوة من تداعيات نتج عنها تخلخل البيت العباس ومن قبله الأموي ، فكان سببا رئيسيا من الأسباب التي أنهت تلك الدولتين . وزيادة تأكيد على ما ذهبنا إليه ، فقد أورد الشيخ الأزهري ،عدد من الأحاديث أكدت ما نذهب أليه . وناقش الأزهري الازدواجية في الفكر العباسي حين رفعوا شعار الثأر لآل

---

١ الشدو /٣ ، ص١٣١

محمد ، وحين استقر لهم الأمر واسقطوا دولة أمية ، قلبوا ظهر المجون للعلويين الذين أصبحوا تحت نقمة جلاديهم وانتقاص من شأنهم ويشير الأزهري إلى موقف وجده مشين من قبل الصحابة بحق الرسول (ص) في سقيفة بني ساعده .سواء في لحظات احتضار الرسول حين رفض عمر بن الخطاب أن ينصاع لما يريد من ان يسمع كلامه ووصيته ومن ثم أعيد هذا المشهد حين تعمدا أبا بكر وعمر خبر السقيفة عن الهواشم خاصة والقرشيين عامة ليضمنا عدم المنافسة ويفوز أحدهما بالإمامة العظمى . وهذا مثال آخر يسوقه الأزهري ليشير الى لبس وازدواجية علاقة بعض الصحابة ومواقفهم إزاء ما يحصل لهم . وهنا يُكثر الأزهري هذه المواقف على هؤلاء الصحابة المقربين من الرسول ،ولكنه لا يستغرب ان تحصل هناك مواقف على شاكلة تلك الحوادث ، أو أشد منها قساوة . وتلك المواقف تمثلت بمفاوضات الثلاثة أبو بكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة ومحاولتهم استمالة بعض الأقوام والقبائل التي لا ترضى بسياسة ابو قحافة في التعامل مع اختيار الخليفة . وقد بقي هذا الأمر مفتوحا حتى ظهرت مبادرة من احد أنصار النبي وأولياءه (ع) . على ان الذي حصل إبان تلك السقيفة ، فان أعضاء لجنة الامتحان والسقيفة ، هم الآخرين كان لهم مواقف لا يستوي ودرجة الصحابة الآخرين وحصيلة حاصل السقيفة ، كان أمر لم يرض كل الأطراف ، وهذا ما ينطبق على البيت الهاشمي الذين استغاضوا غضبا على نتيجة هذه السقيفة .وهذا الغضب تجسد في قول الشاعر عتبة بن أبي طالب :

ما كنت أحسب أن الأمر منصرف   عن هاشم ثم منها عن أب الحسن

عن أول الناس إيمانا وسابقة الناس بالقرآن والسنن ...))[١] .

---

١ الشدو ، ٣،ص١٤٠.

وإعلانا لرفض الهواشم مبايعة أبو بكر ، فقد تحالف معهم عدد لا بأس به من الأنصارْ والمهاجرين ، وحصلت المشادات الكلامية داخل الاحتفال ، بل وكاد ان يصل الأمر الى حالة من الصراع . ووجد الأزهري ان ابا بكر وعمر بن الخطاب كانا قد قررا مسبقا تنحية الإمام علي من الخلافة كما نص على ذلك قول الرسول ووصيته ، وذلك حين أغفل هؤلاء بني هاشم عن حضور اجتماع السقيفة ، لان حضورهم كان يعني إفشال مخططهم في الاستحواذ على الخلافة . وقد أشار الى عدة أحاديث وروايات تؤكد وبوضوح كيفية الالتفاف على حقيقة البيعة للإمام علي من قبل ابا بكر وعمر وبالتالي ، طرح الأزهري أكثر من فكرة ورأي حول هذا السيناريو المعمول للسقيفة منوها بإصرار المؤتمرين على إخفاء معالمه ، خوفا لانكشاف ما ذهبوا إليه من تجاوز على حق الإمام علي ورغبة الرسول في إمامته ، وعن ذلك يقول : ((أليس هذان الموقفان . موقفهم من مطلب الرسول وهو على فراش الموت ، ومسلك الشيخين في اجتماع السقيفة يمتحنان من معين واحد ؟ وعول الأزهري على ما أشار إليه اليعقوبي من نصوص تضيء مسلك الفروع النحيفة من قريش في سعيها من وراء الفروع الكبيرة حتى تولت السلطة وبتعبير أدق هبشتها))[١] . وقد انتهى الأزهري من خلال تلك الحقائق ان بني هاشم كانت طيبتهم قد بلغت حد السذاجة حين اعتقدوا ان المسلمين لم يعمدوا إلى أي إجراء أو سلوك معين في غيبتهم . وأنهم مقتنعين تمام الاقتناع بأنهم أولى بالخلافة من أي شخص آخر مهما كان انتمائه او نفوذه ، والى ذلك كان يدرك أن العباس بحكم تجربته كان على يقين بغدر قريش ببني هاشم . وهنا يتساءل الأزهري : ما دام العباس كان يتحسس هذا السلوك من قريش ، بدلالة بعض الأمور التي تعمد شيوخ قريش ان ينفذوها كما في تأخير بعث أسامة الذي أسماه محمد (ص) قائدا لجيشه ،

---

١ الشدو /٣، ص١٤٤ .

وغير ذلك من المؤشرات التي أوحت الى العباس بوجود تدبير من البطون الخفيضة ، إذ أيقنوا ان محمدا قد غدا وشيك الانتقال الى جوار ربه[١] . ووثق الأزهري خلاصة ما ذهب إليه الفضل أبن العباس من غمط حقوق الهاشميين بقوله : ((يا معشر قريش انه ما حقت لكم الخلافة بالتمويه ونحن أهلها دونكم وصاحبنا أولى بها منكم))[٢] لينتهي الأزهري إلى القول بان هناك بين ظهرانينا من الكتبة المعاصرين من يبررها ويسوغها بل ويضفي عليها أثواب القداسة !!!. ومع هذا التماهي الواضح عن حق الإمام علي في تقلده منصب الخلافة ، فان أقطاب السقيفة تابعوا المواقف وتواصلوا مع الإمام علي لإنهاء ما حصل من إشكالية ، هي في الواقع لم تكن إشكالية بسيطة مرت مرور الكرام ، بقدر ما كانت عبارة عن لخبطة لبنيوية الفكر ألإسلامي وتفكير بناته ، وهذه الإشكالية البنيوية ، تفاقمت حتى غدت مع مرور السنين والأيام ، جزء من هموم وثقافة الشيعي العراقي ، بل وأضيف إليه ، هموم الأجيال المتعاقبة وما أُلزم به كل جيل من فعل يشرعنون لأنفسهم مفردات وتحركات ما انزل الله بها من سلطان . وبهذه الأجواء الصاخبة والغليان الذي بدء يظهر للعيان ، بعد أن غمط حق أبو الحسنين في الخلافة ، ذكر أبن عساكر : ولما بويع لأبي بكر الصديق ، جاء أبو سفيان إلى علي (ع) فقال له : أغلبكم على هذا الأمر أقل بيت في قريش ، أما والله لأملأها خيلا ورجالا ، فقال الإمام (ع) : ما زلت عدوا للإسلام وأهله ... وأمام رده هذا لا يسعنا إلا ان نقول : لله دركَّ يا أبا الحسنين !! من منا نحن بنو البشر تسنح لنا فرصة اعتلاء عرش دولة ، ويقابلها بهذا الرد الذي ينم عن رجل مبادئ وقيم ، وأما الدنيا فهي حقا لديه لا تساوي " عفطة عنز " .

١الشدو /٣، ص١٤٤

٢ المصدر نفسه ، ص١٤٥

والى ذلك ، أسهب الأزهري في الأشارة الى ما صوره المؤرخون ومنهم اليعقوبي من موقف لأبي سفيان إزاء نتيجة السقيفة ، ومن المؤكد ان موقف معاوية هذا ، لا يخلو من غاية في نفس يعقوب . ومن ذلك ، فان قراءة التاريخ وتجارب الأمم والأشخاص بما فيهم القادة والرؤساء والحكام ، وحركة الجماهير قاطبة ، هي قراءة لتجارب التاريخ والوقوف على غرائبه من مواقف الشخوص ، والوقوف عند عقلانية الأحداث التاريخية الصادرة عن إنسان أراد الله تعالى له الرفعة والمكانة العليا ، أو إنسان شاءت أقداره أن تبعث به إلى الهاوية . وهذه بحق دعوة ونصيحة من دون ثمن تقول : أن الإنسان هو الذي يصنع مصيره بيده ، ولا شيء آخر . .

وبعد قراءة هذه الآراء إزاء أبو سفيان وموقفه من السقيفة... ، فان الأزهري يستدرك ما أورده ، وراح مدافعا بكل ما أوتي من قوة وبمختلف الصعد في سبيل رفع هذا الحيف عن أبا سفيان ، وعن الإمام علي الذي تم تأويل كلامه كدا أن الإمام علي لا يتعدى على مسلم ولا يهزأ بمن يبتغي مساندته ولو رياء[١] .

ووقف الأزهري عند شخص رفيع المستوى اعترض على استخلاف ابا بكر دون الإمام علي ، وهو خالد بن سعيد إذ أسهب الأزهري في بيان شخصيته وتوجهاته ، ومراحل نضجه وصلته بال البيت (ع) . فأورد عدد من التوصيفات لخالد بن سعد[٢] .

وبغية إثبات مقام هذا الرجل الرفيع المستوى ، من خلال أوسمة وهدايا حصل عليها نتيجة مساعيه وإخلاصه في الذود عن ألإسلام وينقل لنا الأزهري رواية مثيرة للجدل ، لكثر ما اختلف المؤرخون فيها وتغافل آخرون عن الأشارة أليها ، وهي عبارة عن رسم صورة لطبيعة تمسك الشيخين بالسلطة والعمل على عدم التهاون

---

١ الشدو ،٣ ، ص١٥٣

٢٢ المصدر نفسه ، ص١٥٣ .

فيها حتى لو اقتضى ذلك الامر ، عمل ما لا يرضي الله . فقد أشار الى رواية تقول : " ولم يتورع أبو بكر وعمر عن التعدي على بيت فاطمة الزهراء (ع) ابنة قائدهما الحبيب ولم يمض على وفاته أيام عدة ، أو هل ان الشيخين لم يتورعا في سبيل الاحتفاظ بالحكم ان يفعلا أي شيء حتى لو اقتض الامر انتهاك حرمة دار بنت قائدهما الذي كانا منذ أمد قريب لا يجرؤون على رفع النظر إليه[١] .

ومع هذا التمادي والتجاوز على حق بني هاشم ، فقد وقف الأزهري عند نقاط ثلاثة تفسر صبر الهواشم وامتناعهم عن المدافعة عن حقهم في استخلاف الرسول (ص) مجملا ذلك بما يأتي : مخافة الفرقة واحتمال عودة الكفر فضلا عن خروج السلطة عن قريش . ويخلص الأزهري الى القول بشان ما حصل في السقيفة انه التزم الأمانة العلمية وتمسك بالموضوعية وهي الصورة الحقيقية لان الصحاب بشر من بشر لا عصمة لهم ولا قداسة وغير محصنين من الوقوع بالخطأ . وكأنه يريد ان يبرر ما حصل في السقيفة من أخطاء بقوله : ان التجربة (تجربة المدينة) لم تكن نموذجية إنما هي تجربة بشرية قام بها بنون لآدم الذين هم بشهادة محمد (ص) هم خطاءون .

ويأت في الجزء الثالث من شدو الربابة ، فيتناول موضوعة الخمر التي تناولها من خلال الحنكة التي اعتمدها الرسول مراعيا فيها العرف الاجتماعي والبعد الديني الذي كان مؤثرا أيما تأثير في تسوية الموضوعات السياسية . وقد تأسست حينها مرحلتين أولهما ما قبل أداء القسم والأخرى ما بعد ألأداء . لتبدأ مرحلة جديدة مشحونة بالتفاوت للآراء والتقاتل على المناصب .وقد أسهب الأزهري في تتبع المناطق ، شرائح مجتمع الدولة في تعاطيهم مع القرار الجديد وهو تحريم تناول الخمر ، تبريرا منطقيا لهذا السلوك غير المحسن ، وهو التأخر في الرد بشان منع

١شدو ، ص١٥٦

وتحريم شرب الخمر . فقد أشار الى روايات ومشاهدات عدة تشير إلى تلك المشاهد التي تسببت في الكثير من الإشكالات والمجادلات في الأدبيات ألإسلامية وغيرها ممن تصدت لعملية التحريم وكيفية إطاعة المسلمين ولا سيما ممن كانوا مدمنين على تعاطي الخمور ، بوصفه عرفا وليس مزاجا .

وفي باب كتابه الثالث المعنون بـ " الأفق العقلي والمستوى الحضاري " وفيه يقف عن المسار التاريخي للتطور العقلي للمسلم البدوي الذي لم يألف حياة التحضر ، وصولا الى قيام الدولة ألإسلامية ، وبناء أركانها وبروز رواتها ومؤرخيها ورجالها العلماء ، ويذكر ان مؤلفات هؤلاء الأفذاذ كانت بمثابة فرشة واسعة لمجريات الحياة اليومية للفرد المسلم ونظرته الى الكون والوجود ، مؤكدا على ان تلك الكتب قد حوت الكثير من الروايات والأخبار التي لا تتساوق والعقل ، ومع ذلك فقد تم قبولها ، لان نفيها يعني نفي التراث ألإسلامي برمته . ولا سيما ان من ساق تلك الأخبار الينا هم علية القوم ومن علمائها . ومع ذلك ، فقد أفرد الأزهري مبحثا أسماه بـ (الغيلان)[١] ، وهو مفرد غول بمثابة شخص شيطاني ملامحه غير معروفة لم يأنس العيش بين البشر فاتخذ الصحاري موطنا له . وقد أشار إلى بعض المصادر التاريخية التي تبنت هذا المنهج الذي يؤكد فيه الأزهري على سذاجة بعض مصادر التاريخ ألإسلامي ممن تعمد الخرافة والروايات الأسطورية أساسا في تسويق مادتها على الآخرين . ويبدو واضحا أن الأزهري حين تحدث وهو يرفض رفضا قاطعا وجود مثل هذا المخلوق الهيولي ، ان من الصحابة ممن أدعى انه صادف او رأى أو التقى مع هذا المخلوق ، فان الوقوف مليا عند سيرته وما صدر عنه ، يستدعي جدية وتعمقا اكثر ، لان وجود مثل هذه الروايات غير الموثوقة في ثنايا كتب التراث ألإسلامي ولا سيما منها الكتب المعتبرة ، يشكل سابقة خطيرة في

---

١ شدو ٢، ١٩٤ .

حركة التاريخ ألإسلامي المدون في بطون مثل هذه المصادر المثقلة بالأساطير والروايات الخارجة عن المعقول والمنطق . ويستنتج الأزهري رأيا لكثر ما ردده في مناسبات سابقة ، ان التراث العربي لم يفارق العرب المسلمين حتى بعد اعتناقهم للاسلام فهو يقول :" لقد كانت أقاصيص الجان من المكونات الهامة لجلسات السمر التي كانوا يعقدونها وسوف نرى أحد الخلفاء الأكابر بدل من ان يشغل وقته في رعاية شؤون الإمبراطورية التي نعموا بخيرات بلادها دون توقع أو تربص ، أذا به يغرق لأذنيه في الاستماع الى حكايات الجن المشوقة ، وهذا ما يدل على ان المجتمع الذي عاشوا في حناياه بثقافته وقيمه وأنساقه لم يفارقهم بل حابثهم حتى بعد أن اعتنقوا الديانة ألإسلامية التي بشر بها الرسول (محمد) . ولا يريد الأزهري ان يذهب الى تقويم هؤلاء الصحابة ممن راحوا يقصون على الناس قصص الجن والسحر والأشكال الهيلوية أو يقلل من شانهم ، بقدر ما أراد القول إن وجود مثل هذه الروايات في الأدبيات التاريخية والتي تتحدث عن مرحلة معينة ، فإنها تعيد الى الأذهان المستوى الثقافي والحضري لهذا المجتمع أبان تلك المرحلة . وهذا ما دفعه ان يوصي بضرورة دراسة مثل تلك الحالات التي تعكس الوضع الاجتماعي والبيئة التي كان الفرد يعيشه ، وقد أورد أمثلة تشير لمثل هذه المناسبات التي شهدها صحابة وصحابيات [١] . ويخلص الأزهري الى خلاصة نجدها ووجدها محيرة ، مفادها : من جماع النوازل التي ساقها الأزهري فيما سلف ، يثبت ان أصحابا وصاحبات قابلوا الشيطان والجان والغول وتحادثوا وتعاملوا معها بشتى ضروب المعاملات بموجب أخبار حملتها ألينا مصادر مكينة لا يرتفع اليها التضعيف أو التهوين أو التهزيل وان نسبة ولو ذرة من الريب أليها يعد طعنه نجلاء

---

١ الشدو /٣ : ص٢٠٠ .

في الصميم لتراث أمة لا أله إلا أﷲ وهو أمر لا يقدم عليه أي مسلم . وبالتالي فان الأزهري يسلم أمره ليقول إذن هي حقيقة[١] .

ويأت في الباب الرابع من كتابه ، فيتطرق الى موضوعة الظواهر الطبيعية[٢] (٢١٩) . وفيه يستعرض الأزهري آيات من الإنجيل يبين فيه قصص الأنبياء وكيفية تعاطي الله تعالى مع مطالبهم ودفاعهم عن مدنهم أمام الجبارين[٣] . ومن الواضح ان استعراض الأزهري لما جاء في التوراة والإنجيل من اختراق الصحابة والأنبياء للسنن الكونية ، فانه أراد بالمقابل بيان اختراق صحابة محمد للظوهر الطبيعية فحسب ، وقد أورد عدد من الأمثلة تشير لمثل تلك الحالات من مثل جريان نهر النيل او هطول المطر بعد جفاف طويل . ويبدو ان شيخنا قد تعمق أكثر في تلبس المثالية في تعامله مع المظاهر الإنسانية ، حين انتقد حالات القتال بين المتقاتلين الأعداء كقوله : ومن الغريب ان أتباع الرسل بدل من شكر السماء على وقوفها الى جانبهم ونجادهم بخرق الظواهر لهم سواء الكونية او الطبيعية ، نجدهم يمعنون في قتل عباد الله من أعدائهم قتلا ذريعا ويأسرونهم ويسبون نسائهم ويحوزون على أموالهم ، فكان الاموريين والعلاء الحضرمي ومن معه من الأصحاب وعلى لسان انس بن مالك خادم محمد (ص) (فلم نلبث إلا يسيرا فأصبنا العدو فقتلنا وأسرنا وسبينا)) !!!

وأمام هذا الطرح يكون لنا رد نجده واجب الوجود وهنا نقول ومن خلال قراءة تلك النصوص التي أوردها الأزهري وأبدى رأيه الناقد والناقم على الصحابة ، لأنهم عاملوا عدوهم بقسوة واضحة ، الأمر دفعنا للبحث في هذه الحالة التي سيصفها كل

---

١ المصدر نفس٢٠٠٧ ٢١٧

٢ : الشدو ، ص ٢١٩ ه

٣ المصدر نفسه ، ٢٢١/٢

من يقف عندها أنها لا تتم أخلاقيات دين سماوي . ولكن إذا ما دققنا وحققنا هذا القول سنجد أنفسنا بعيدين جد البعد عما يذهب إليه الأزهري من نقده للصحابة وتجاوزهم لأخلاقيات الحرب . حين ندرك ماهية وصايا الرسول للمحاربين من المسلمين . فقد أوصى (ص) على سبيل المعروف لا الحصر عبد الرحمن بن عوف حين توجه لمقاتلة قبيلة كلب النصرانية في دومة الجندل السورية (حاليا) وشدد بقوله : ان لا تقاتلوا حصرا من كفر بالله ولا تغُلوا ولا تغدروا ولا تُمثلوا ولا تقتلوا وليدا ولا أصحاب الصوامع . وهذا ما أخرجه أيضا ابن عباس[1] . ولم يتحدد الرسول في وصيته على الرجال او النساء ، بل شمل أيضا الصغار ن كانوا مقاتلين ، فقد كان يرحم الغِلمان وصغار السن الذين لا يملكون أمرهم، ويأتون للحرب ضد المسلمين، أو لمعاونة سادتهم رغم ان تلك المساعدة هي من صميم أعمال الحرب[2] .

ومن جهة أخرى ، فلو وقفنا عند التاريخ الحربي لبقية الدول المجاورة للدولة ألإسلامية ، لوجدنا البون الشاسع بينهم وبين ألإسلام فيما يتعلق بالقيم الإنسانية وأخلاقيات الحرب . ففي الدول النصرانية ، كان للخلاف المذهبي الحاد بين الأرثوذكس والكاثوليك ، ان تمخض عنه حرب طاحنة أودت بعشرات الألوف من البشر ، فقد كانت الطائفة الخلكانية وهي طائفة نصرانية متطرفة تقوم بتعذيب أبناء الطوائف الأخرى تعذيبا بشعا يصل الى حد الحرق والغرق مع أنهم واحد وهو الأرثوذكسي . وبقيت تلك الحالة المرعبة ملاصقة لأولئك النصارى حتى مجيء

---

١ الحاكم (٨٦٢٣)، وقال الذهبي قي التلخيص: صحيح. ابن هشام: السيرة النبوية ٦٣١/٢.

٢ينظر : بن هشام: السيرة النبوية ٦١٦/١، ٦١٧.. وانظر الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد ٢٧/٤

الفتح ألإسلامي لمصر ، فشكل لأقباطها خلاصًا من اضطهاد وتعذيب الدولة الرومانية لهم[١].

ولم تكن القسوة مع الأعداء والعبيد والفقراء فقط، بل وصلت وبقوة- إلى المرأة الرومانية ذاتها، فحين اجتمع مجمع كبير بحث في شئون المرأة؛ قرر بعد عدة اجتماعات ان المرأة كائن لا نفس له، وإنها لهذا لن ترث الحياة الأخروية، وإنها رجس من عمل الشيطان [[٢]]. وهذا الوضع المزري ينسحب ولربما بقوة على بلاد فارس ، فالوضع في الدولة الفارسية كان في تلك الدولة يمثل مأساة حضارية بكل المقاييس في كل الجوانب الأخلاقية، والاجتماعية، والدينية على السواء، فقد كان الشعب في المجتمع الفارسي يخضع لنظام شديد الطبقية، وفيه مهانة كبيرة للانسانية ويصف البكري[٣] بعض أصناف الصقالبة سكان المناطق الشمالية في أوربا، فيقول: لهم أفعال مثل أفعال الهند، فيحرقون الميت عند موته، وتأتي نساء الميت يقطعن أيديهن ووجوههن بالسكاكين، وبعض النساء المحبات لأزواجهن يشنقن انفسهن على الملأ، ثم تُحرق الجثة بعد الموت، وتوضع مع الميت [٤]. ومن المؤكد ان تلك الأخلاقيات برمتها لم ولن يوصي بها الدين ألإسلامي ، ولم تكن ضمن قاموس تعامله مع أبناء جلدته ، فكيف إذن مع الأغراب وان كانوا من الأعداء.

---

١ ألفرد. ج. بتلر: فتح العرب لمصر ص٣٧، ٣٨.

٢عفيف طيارة: روح الدين الإسلامي، ص٢٧١.

٣ أبو عبيد البكري: عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي (- / ٤٨٧ هـ).

٤ أبو عبيد البكري: جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك ص ١٨٧، ١٨٦. ٨

٢٤

ويناقش الأزهري في مبحث أخر ما اشيع من كرامات وخوارق للصحابة بحيث تجاوزا في أفعالهم أفعال البشر العاديين ، وهي كرامة من الله بحيث وصلت الى تحويل الخمر الى الخل والى اختراق صوت بعضهم لجدار الصمت ليصل الى أماكن بعيدة جدا بقدرة قادر . أما تبرير الأزهري لمثل تلك المظاهر المجتمعية ، فهو : منذ قديم الزمان كان قد انبرى من يتصدى لتبرير أي فعل او تصرف حتى لو دخلوا جحر ضب ، ويعقلن أي أسطورة يقصها احدهم ، إما منفردا وإما معه بطانة او سنيدة ويجهد جهده في تقديم الحجج والبراهين عليها وفي تعليقها. ولا بأس من التمسح برداء العلم واستخدام مصطلحات . وهذا ما أقدم عليه أ.عباس العقاد في خصوصية هذه الواقعة (يا سارية الجبل)فعوضا عن ان يقطع بعدم معقوليتها وإنها أسطورة تأثر عمر ومن شارك معه في صنعها بأي طريق ، سواء بالرواية أو أدعاء سماع الصيحة الخ ... ، فقد تأثروا بها بموجبات عصرهم والأنساق الفكرية السائدة بينهم ، وبأن من الجائز لديهم إتيانهم الخوارق ومقابلة كائنات غير منظورة ومخاطبتها ، فباتت تلك الظاهرة جزء من ثقافتهم ، ولكن بعد ان اختلطوا بالشعوب المغزوة وعاينوا حضارتها واطلعوا على ثقافتها ، غادروا تلك الظاهرة . ومع ذلك يبقى الجدل دائرا بين من يؤمن بصحة وجود مثل تلك المظاهر وغيره من لا يؤمن . وقد وجدنا الأزهري وقد ألقى جام غضبه على العقاد الذي يسوغ لعمر بن الخطاب سماعه الصيحة عن بعد مئات الكيلومترات ، وغير ذلك من الغيبيات ، نافيا صحة ذلك ولا بد من العودة الى العقل في التعامل والتعاطي مع الأشياء وحركاتها . ويطرح الأزهري تساؤلا موضوعيا مفاده : ما علة إيمان الصحابة بهذه الخوارق ؟ وكان جوابه متشعبا حتى وصل الى ان حواريي عيسى وموسى كانوا يؤمنون بالخوارق ولهم القدرة على ذلك ، وبما ان محمد أعلى منزلة من عيسى وموسى ، فان أصحابه المقربون من المؤكد ان لهم من تلك الخوارق نصيبا . ويبدو أنها إجابة غير نهائية ، حين أسقط حالة على حالة ، ولربما هو لا

يؤمن بالأولى فكيف بالحالة الثانية ، ولكن درءا للإحراج ربط هذه المسألة من اختراق الظواهر الطبيعية ، بما سبقها من خرق لتلك الظواهر . ويصل بالموضوع من خرق الصحابة للظواهر الطبيعية ، ليصل إلى ظاهرة التعامل مع الحيوان ، فمنهم من خاطبهم فرد عليه بلسان عربي فصيح وغير ذلك من الاختراقات للنواميس والظواهر الطبيعية[1] .

وفي ذات السياق ، أورد الشيخ الأزهري روايات تتحدث عن حالات عدة تشير الى أن أكثر من (فرس) في أثناء المعارك ، نطقوا وذكروا سورة من القرآن الكريم ، وكان الأمر عاديا جدا بان انتهت المعركة الى صالح المسلمين . بل والانكى من ذلك ، ومما زاد الطين بلة ، وولّد لدى الشيخ استغرابا وذهولا تامين ، تلك الروايات التي تحدثت عن ان قدرات بعض الصحابة وإمكانياتهم قد نفذت إلى عالم الجماد الذي لا يفصح ولا يبين حتى بانين أو همهمة أو زمزمة أو حتى بأسارير الوجه وأشارات البشرة[2] . وفضلا عن تلك الصور التي أوردها الأزهري وقد استقاها من روايات لأشخاص ، راحوا يؤكدون على وجود كرامات للصحابة تعلو على العقل البشري ، بل وتدخل في سياق التسويق الهيلوي للأشياء . والواقع ان شيخنا الأزهري ، وفضلا عما أشار اليه من مزايا الصحابة وكراماتهم بحسب ما ساقه بعض المؤرخين ، وهو غير مؤمن إطلاقا بها ، فقد أورد ما قيل من كرامات تتعلق بعلاقة الصحابة بالحيوانات . إذ يقول : هذه فاصلة نخصصها لمستوى أدنى في خرق الصحابة للظواهر الطبيعية ، وهو التعامل مع الحيوان فمنهم من خاطبهم فردّ عليهم بلسان فصيح ومنهم من عرك أذن هزبر مفترس وأمره فانصاع ومنهم من طلب من غضنفر قسورة ان يدله على الطريق أضله ، فلبىّ طائعا وأخيرا :

---

١ شدو/٣، ص٢٥

٢ الشدو /٢٥٦

ثور يغدو عينا أي جاسوسا فيدلّ: ثور الذي أضله فلبّى طائعا ... وقد عول في ذلك على ما أورده العديد من المؤرخين والمعنيين بكتابة التاريخ ألإسلامي ومنهم ابن عساكر وكذا أورده الحاكم في المستدرك . وقد أورد لنا الشيخ رواية تجسد ما يريد قوله بهذا الشأن . إذ قال: وهذا خادم رابع لمحمد (ص) يكرر لنا خوض نهر دجلة دون غرق إنما يضع بجانبها معجبة أضافية هي انه عندما وصل ومن معه الى حافة النهر تهيبوا عبوره لأنهم يعلموه القانون الطبيعي وهو الغرق في الماء العميق ، فخاطب فرسه الجميل (إطلال) أقفزي ولا تهابي فالظواهر الطبيعية تسير باتفاقنا ومأمورة أيضا بتعطيل سننها الكونية إكراما لنا ...الخ فردت عليه : وثبا وسورة البقرة . وأكد الأزهري إن هذا الخبر على درجة عالية من التوثيق ، فقد جاء في ثلاثة مصادر : (فتوح)لسيف بن عمر و(تاريخ الطبري) إلى جانب كتاب الإصابة لابن حجر العسقلاني . وقد انتقد الأزهري زج آيات قرآنية في أحاديث موضوعة او معلولة ، إذ أورد العديد من الراويات التي تحدثت عن جدل فتتحدث عن فضائع بحق الآخرين باسم غنائم حرب وأسلاب كما هو الحال فيما : يقال ان سعد بن أبي وقاص قابل راعيا بائسا يخبئ قطيعه فسأله : فرد لا اعلم ان تمتد إليه أيديهم المبروكة . وهنا يحدث أمر مدهش إذ يخون ثور منها راعيه وسيده ويخون أخوانه في القطيع ويصيح بلغة عربية مبينة : لقد كذب الراعي وها نحن أولاء تقدموا أيها الأشاوس ، واغتصبونا حلالا طيبا بقانون الغزو وشريعة الفتح ... ولم يقصر عاصم بن عمرو فاستاقهم الى قائده المظفر الذي قام بتقسيمها على عسكره الذين نعموا بأطايب لحومها (فأخصبوا) أياما دون ان يفكر ابن ابي الوقاس أو أبن عمرو أو جنودهما انها حصيلة عرق الفلاحين وشقائهم[١] .

---

١ الشدو (٣)، ٢٥٦ .

ويخوض الأزهري في موضوعة أخرى تتعلق بقدرة خارقة للصحابة حين ذكر ان الصحابة كانوا يجيزون عقلا ان يتشكل أبليس في صورة أحدهم ويتكلم بلسانهم وان الذي مات قتيلا ودفن يخرج من قبره والنار مشتعلة فيه يطلب السُقيا ويوكل به من يحذر منه وكيف ان الرؤى والأحلام لها فعاليتها البليغة فيهم حتى في أمور تتسم بقدر من الخطر والأهمية مثل موظف كبير من وظيفة وعدم فهم الدلالة المجازية للخطاب ، وينتهي الأزهري إلى القول : ان الأفق العقلي للصحبة كان ساذجا بسيطا تماما مثل البيئة التي عاشوا في أحضانها[١] .

وفي باب كتابه الخامس ، المعنون بالمستوى الحضاري ، يبدأ بالمستوى الإدراكي ، محاولا الوقوف أمام بنيوية عادات وتقاليد الصحابة التي وصلت حسب رأيه الى مستوى لا يستوعبه العقل . وكأنه يعيد هذا الجانب من خرافة التفكير واسطرة الموضوعات ، الى البيئة التي ترعرع فيها الصحابة ووعوا على عادات وتقاليد لم يتخذها أو يهتم بها أصحاب الحضارات المجاورة ، لأنها لا تنم عن عقلية متفتحة بل منغلقة وركيدة . وعلى كل حال فان الأزهري رسم لنفسه صورة انطلاقا من إيمانه ان العرب وقبل ألإسلام كانوا من أشد الناس جهلا واقلهم إدراكا لماهية الأمور ، وذلك على ما يبدو ما دفع بالبعض منهم إلى محاولة إعطاء نفسه صفات فوق العقل البشري ، مما ولد عند البعض انتقادا لما ذهب إليه الأزهري ولا سيما بعد ان استعرض خطبة لسعد بن أبي الوقاص وهو يوضح طبيعة الغزو ألإسلامي من ان السبب لا يكمن في الجهاد ونشر الدين بقدر ما كان البحث عن الغنيمة والمادة هما سببا لتلك الغزوات[٢] .

---

١ الشدو، ٣، ص٢٦٩

٢ الازهري :الشدو (٣)، ص٢٨٢

وأكثر من ذلك ، أشار الأزهري بأشارات لا تقبل التأويل او الخطأ مفادها ان نشر الدين ألإسلامي لم يستند إلى آلية إنسانية صحيحة . وهذا ما وجدناه متجسدا في أشارات تقضي انه : لم يكن الهدف من نشر ألإسلام ، هو نشر هذا الدين لذاته بقدر ما كان البحث عن الفوائد والمكاسب قد فاق غيره من حسابات الاشتراك في تلك المعارك . والله اعلم . والى جانب ذلك ، يجعل من توصيف الدين بدين المحبة والسلام وان نشره مرتبط بالسيف ، يعدها مفارقة واضحة ، ويتساءل عن الصلة بين إفشاء الديانة وكسح الأموال بالملايين وأسر الرجال والنسوان ، ثم يقول وهل يستلزم نشر ألإسلام غزو أراضي الآخرين واستعمارهم واستيطانهم ؟ لينتهي الى القول : بانه مذهول وهو يقرأ أو يسمع من يدافع عن وطء أراضي الآخرين ممن هم ليسوا بالمسلمين !![١] .

يقينا ان ما يطرحه الأزهري يشعرني بغبطة وإثارة لا مثيل لها ، لأنه يتعاط مع الرواية التاريخية تعاطٍ عقلاني ، لا يتيح للأخر من يتصيد بالماء العكر ان يجد ضالته ، فيبدأ بالتجني والتلفلسف حسبما يشتهي . ولكن الأمر الذي لم أستسيغه من طرح الشيخ الأزهري أن هناك أمور ليست بحاجة لا إلى تفسير أو تأويل ولا حتى تسويغ أو تسويق لبضاعتها ، لأنها واضحة المعالم ، بل هي من ثوابت حركة التاريخ . فالمعلوم أن تلك الحركة للتاريخ محكومة بحركتها بعدة عوامل ولا يمكن إطلاقا ان تتحرك بفعل عامل واحد دون غيره ، فحينها يكتسب عنوان التفسير الأحادي لتلك الحركة ، فتصبح تلك الرواية حمالة أوجه ورؤى مختلفة . ولكن الأصح ان أي حدث تاريخي لا يمكن ان يقع ويتبلور ليأخذ شكله الطبيعي ، إلا بفعل عوامل عدة تتفاعل فيما بينها لتعطينا شيء اسمه الأصل التاريخي . وهنا نتوقف لانيهة عند ما ذهب إليه شيخنا الأزهري بقوله : حين نستعرض خطبة لسعد

١ المصدر نفسه : ص٢٨٤ .

بن أبي الوقاص وهو يوضح طبيعة الغزو ألإسلامي من أن السبب لا يكمن في الجهاد ونشر الدين بقدر ما كان بحثا عن الغنيمة والمادة هما سببا لتلك الغزوات[١]. ما يذهب إليه أمر عجيب ، صحيح ان العامل المادي متجذر في نفس كل إنسان وان الرغبة بالاستحواذ على فوائد من البديهيات لديه ، ولكن أو لم تكن تلك تجليات واضحة لعوامل مساعدة او مرافقة للعامل المعول عليه وهو الفتح ألإسلامي ، وهذا الفتح لا يمكن ان يتم بسحر ساحر أو بأشارة من عصا موسى (ع) . فكانت كل تلك العوامل التي يتحدث عنها الأزهري أو تلك التي أوجزناها ، لا تعدو أن تكون عوامل تدور في فلك قوة السيف وتأثيره وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم المنزل من لدن الرحمن الرحيم بحيث تدل دلالة بينة واضحة على أن السيف كان من أهم الأسباب التي أدت إلى انتشار ألإسلام بقوله : قال الله تعالى : (وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ ان اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) الحج /٤٠. وقال : (وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتْ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)[٢]. وفضلا عن ذلك ، فقد أمر الله تعالى بإعداد العدة لمجاهدة الكفار وإرهابهم ، كما في قوله تعالى : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ)[٣]. فلو أسلمنا جدلا أن ألإسلام لا يمكن أن ينتشر ألا بحد السيف ، الم يكن من المستساغ الأشارة إلى العوامل المساعدة الأخرى . فلو كان ألإسلام لا ينتشر إلا بالدعوة السلمية فقط ، فمم يخاف الكفار ؟ أمن كلام يقال باللسان فقط ؟ وفي الصحيحين أن النبي صلى

---

١١ الشدو/٣، ص٢٨٢

٢ البقرة /٢٥١

٣ الأنفال /٦٠

الله عليه وآله وسلم قال : (نصرت بالرعب مسيرة شهر) وهل يرعب الكفار ان يقال لهم أسلموا ، فان لم تسلموا فانتم أحرار فيما تعتقدون وتفعلون . أم كان يرعبهم الجهاد وضرب الجزية والصغار . مما يحملهم على الدخول في ألإسلام لرفع ذلك الصغار عنهم . وفضلا عن ذلك ، فقد كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يدعو الناس إلى ألإسلام دعوة مقرونة بالسيف ، ويأمر بذلك قواده، لعل الناس إذا رأوا القوة وجد المسلمين في الدعوة إلى دينهم تزول عنهم الغشاوة .

روى البخاري (٣٠٠٩) ومسلم (٢٤٠٦) عن سَهْل بْنَ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ يَوْمَ خَيْبَرَ : لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلا يُفْتَحُ عَلَى يَدَيْهِ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَبَاتَ النَّاسُ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَى فَغَدَوْا كُلُّهُمْ يَرْجُوهُ فَقَالَ أَيْنَ عَلِيٌّ فَقِيلَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ كان لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ فَأَعْطَاهُ الراية . فَقَالَ : أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا ؟ فَقَالَ : انفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى ألإسلام ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ ، فَوَاللَّهِ لان يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلا خَيْرٌ لَكَ مِنْ ان يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ .أذا تلك أوامر الله المسيرة بإتقان لا يمكن لاي أحد ان يجاريها أو ان يصل بمستواها . ولا نريد أن نصادر أفكار شيخنا الأزهري ، ولكن ما انتهت أليه حركة الفتوح بشراستها وعنفها وطغيان القوة على الأسلوب ، أوحى للأخر ما للمسلم من قوة بطش وفتك بمن يخالفه عقيدته وتوجهه . ومن باب التعريف بان الإنسان ميال إلى التغيير الأفضل والصورة المثلى ، فما بال المسلم حينذاك عندما أدرك ما للمسلمين من حظوة بين الأمم ، وبالمقابل ، يجد انتكاسات و تشققات داخلية شهدتها دول الكفر بما فيها الدولة الرومانية ،منذ ان بدأ الفتح العربي ألإسلامي (القرن الأول الهجري /السابع الميلادي بدءاً من معركة اليرموك عام (١٣هـ /٦٣٤م وتحرير بيت المقدس (١٤هـ/ ٦٣٥مإذ فرض العرب المسلمون سيطرتهم على بلاد الشام ثم بعد ذلك سيطروا على مصر وشمال إفريقيا وبعض جزر البحر المتوسط مما جعل المسلمين

مهيمنين على البحر المتوسط . وبعد هذا التسيد الم ينتشر ألإسلام ويتجذر في تلك المناطق ؟.

ووجدنا شيخنا الأزهري وقد انتهى إلى القول إمعانا في نقده لسلوكية المقاتل المسلم حين غزوه للأقوام الأخرى فيقول : " لقد كانت تلك الرسالة الحضارية التي حملها الغزاة معهم من جزيرتهم إلى البلاد المجاورة التي وطؤوها بسنابك وأخفاف إبلهم ، فقتلوا الرجال واستولوا على أموالهم وأحرقوا حصونهم وسبوا نسائهم !!!

وهنا رب سائل يسأل الشيخ الأزهري : كم هي المدة الممتدة ما بين ما يعرف بالعصر الجاهلي وبين دخول ألإسلام للمدينة المنورة . انه ليس أكثر من نيف من السنين او دون ذلك كثيرا ، ولو وقفنا عند العادات والتقاليد التي كانوا عليها العرب قبل ألإسلام وقاربناها مما هي عليه بعد دخولهم للإسلام ، لوجدنا واقعا ملموسا من المتغيرات . وأما تلك التي وصفها بالهمجية والتي لا تتفق ومبادئ الدين الحنيف ، فعلينا أن ندرك أن تلك العادات والتقاليد المتجذرة منذ مئات السنين في مجتمع يفتقر لأدنى ثقافة ورادع ديني ، لا يمكن بين ليلة وضحاها أن تتقلب ومعها الموازين والقيم إلى غيرها ، أما الأحسن منها ، فهو بالتأكيد أمر واقع لا محال لاسيما وصية الرسول (ص) للمقاتلين بان لا تعترضوا الذي لا يحمل سلاحا ولا تسبوا النساء ولا تقطعوا شجرة ولا تعترضوا شيخا أو أعزلا والى غير ذلك من الموضوعات الحضرية والإنسانية التي تجعل القارئ لا يتفق كثير مع الروايات التاريخية التي تتحدث عن فظاعة الأفعال والسلوكيات التي يسوقها البعض عن المقاتلين المسلمين في أثناء معاركهم مع أعدائهم . وقد يبدو معقولا نوعا ما ، ما ذهب أليه الأزهري من تعديات وتجاوزات بعض المقاتلين على الأهالي دون رادع أو وازع ولكن هذا الأمر لا يمكن أن نعول في أحكامنا فنطلقها جزافا على جميع المقاتلين ، ولا هذا الأمر يبرر التشهير والتمزيق لروحية المقاتل الذي ترك ليلة زواجه وانضم إلى المقاتلين ليستشهدوا او الذي علم بوجود ذويه من الطرف الأخر

وراح يقاتله ، او ذلك المقاتل المترف الذي ترك ترفه وطلب الشهادة وفضلها على لذة الحياة . تلك الجوانب المضيئة من حركة الفتوح وطلب الشهادة والإقبال على الجهاد ، في رأينا تغطي على الكثير من المساوئ التي رافقت عمليات الفتوح ، وهو أمر بنيوي لم تتمكن روحية بعض المقاتلين وتوجهاتهم القديمة أن يتخلصوا منها ويغادروها بتلك السرعة التي كان عليها الصحابة الأشداء والمخلصين حقا .

ولا نريد أن نقلل من دراية الشيخ الأزهري بسياسة الرسول في نشر الدعوة ألإسلامية ، لا سيما بعد استقرار الوضع الداخلي وترميم دولته الفتية ، وقيامه بإرسال رسائله الشهيرة الى كسرى ملك الفرس وإمبراطورها والمقوقس عظيم القبط في مصر والنجاشيّ ملك الحبشة. إلى جانب كبار قادة الشام واليمن وغيرهم من الأمراء والملوك ورؤساء القبائل الكبيرة . وقد جمعت أكثر هذه الرسائل والمواثيق في كتب خاصّة[١] ، وخاطبهم بالتي هي أحسن وخيرهم بين الحرب وبين ألإسلام والسلام . أذن أو لم تكن تلك سياسة دبلوماسية ناجحة ، سبقت مرحلة الدخول في الصراع المسلح الذي انتهى إلى نجاح حركة تلك الفتوح ؟!! .

ولعل ما أثارني حقا فقرات أوردها الشيخ الأزهري ، وفيها يتجاوز المبدأ الذي يحتكم أليه الرجال في سيرتهم ، وكأنه تناسى أن الكلام والإصرار عليه هو ما يعني شخصية الرجل ، بل أن الكلمة التي يقطعها الشخص على نفسه هي بمثابة الحصن الذي يتمترس خلفه الرجال . فما أثارني حقا قوله : وقد أُرسل ربّعي بن عامر لمراودة رستم ... فأقبل ربعي يسير على فرس له زّباء قصيرة ومعه سيف (مجلو) وغمده لفافة ثوب خلق ورمحه معلوب (أي مشدود بالعنق) بقدٍ (سمن الجلد) معه جحفة (ترس من جلد بلا خشب) . ويقف الأزهري هنا لتوصيف هذا المقاتل البسيط في ملابسه والفقير في مقتنياته ، ليقول انه دلالة على تخلفه وعلى

---

١ أ.د محمد حميد اللّه : الوثائق السياسيّة ومكاتيب الرسول ، جامعة باريس .

انه لم يشهد قط شئ اسمه حضارة او تمدن !! . وهنا نحن نعود لنذكر الأزهري بقداسة " الكلمة" عند الرجال الأصحاء ، فما الضير لو ان رجلا ضرغاما لا يخاف لومة لائم وحياته هي مشروع استشهاد دائم من اجل شعبه ودولته ، ألا أن هذا الرجل الشجاع يعاني من العوز والفاقة ، وبدلا من أن تنعكس تلك الأحوال ضد السلطة التي هي الأول المعنية بهذا الإشكال ، يرى الأزهري ان الأمر استدعى وكان يستدعي مراجعة هؤلاء المقاتلين ذاتهم لينزعوا من أبدانهم تلك المظاهر المعبرة عن جهلهم قياسا وما كان لديهم هم الآخرون من عطاء لتبدأ جولة جديدة من الفوز بتلك الخاصية . بل وأكثر وأدق ما يريد قوله عن جهل العرب المسلمين وتخلفهم ، هو سوقه لرواية تتعلق بتحفة نادرة حصل عليها المسلمون حين أسقطوا عرش كسرى ، فيقول وهو مندهش مما أراد البعض من قسمتها بينهم بالتساوي من دون ان يعلموا ان بترها او تقسيمها لأي جزء يعني ضياع نضارتها وانتهاء رونقها لأنها تمثل لوحدها فكرة متكاملة لا يمكن تجزئتها . ويضيف إلى أن العرب في ذات مرة احتسوا القهوة من دون أن يدركوا ماهيتها ، وأنهم كانوا كذا متخلفين وكذا وكذا وراح يسطر الأساطير ويذكر الروايات التي تشير الى تخلف هؤلاء القوم ! ولكنه يراجع ما كتبه من جديد لينتهي إلى القول : وإذا كانوا هؤلاء بتلك المنزلة من التخلف ، كيف تمكن هذا الضعيف وبهذه القوة التي لا تضاهي قوى تلك الدول صاحبة الحضارات ان يصمد بل ويقلب عليهم الطاولة ، وبدلا من ان يخضع وجيشه لأجندات دول أخرى ، ويرتبط بهم عقائديا ، فانه انتهى الى بناء دولة حضارية راقية ! . وهنا يتبادر التساؤل الهام عند الأزهري : هو كيف وصلت هذه الأمة البدوية الى تلك المنزلة والمقام المهاب لدرجة ان تمكنت من سحق تلك الدول المتحضرة وتحتل محلها .؟

وهذا التساؤل يحيلنا الى الخوض في علم فلسفة التاريخ ، لبيان ان لكل أمة من الأمم عمر مشابه لعمر الإنسان . فكان هناك جملة نظريات برزت في العصور

القديمة تقول بهذا المسار من عمر الدولة مرورا بالعصور الوسطى حيث نظرية الأجيال لأبن خلدون ونظرية العصور لفيكو ونظرية المصير لشبنجلر ونظرية التحدي والاستجابة لارنولد توينبي وغير ذلك من النظريات التي تخصص لكل أمة من الأمم عمرا معينا ، تبدأ بمرحلة البداوة كما في الجيل الأول من نظرية الأجيال لابن خلدون حيث الدولة قوية وفيها يشترك الجميع في المنجز ، وفي الجيل الثاني تتغير الأحوال في المجتمع وتجنح السلطة الحاكمة نوعا ما الى التسلط والاستبداد ليصل الى الجيل الثالث حيث تتلاشى العصبية القبلية أساس قوة المجتمع بعد ان يزداد الحاكم استبدادا وظلما للجموع المتهالكة مما يؤدي إلى ثورتهم وانهاء هذا الحكم الفاسد إيذانا ببدء مرحلة جديدة من عمر الدولة الجديدة التي انهت سابقتها بعد ان وصلت الى حد الاستبداد والعمل بالسيف . وهذا المسار التاريخي ، ينسحب ايضا على نظرية العصور لفيكو . ومن ذلك فلا غرو من ان يطلع شيخنا على تلك الأدبيات التاريخية التي تجسد لنا حقيقة مرور الانسان وحركته في تاريخه . تلك الحركة التي تتأثر قطعا بتحركات المجتمعات الاخرى .

وفي محل آخر ، يسرد لنا الأزهري روايات متتالية تشير الى بساطة وزهد الخليفتين الاول والثاني وتواضعهما ومواقفهما التي ترقى بحق لانسان مسلم ومؤمن . بيد اننا وجدنا الأزهري يؤاخذ كثيرا على الخليفة الثاني على ما كان عليه من إهمال الجانب الأمني لشخصه بوصفه خليفة للمسلمين ورئيس دولة جديدة . وأمام ذلك وصلت إليه يد الغدر ، وما ان تم كشف الجاني حتى تم اعتقال وسيق الى الغرفة الموجود فيها الإمام مسجى . وفي تلك الحالة من الحزن والشعور بالتيه ، صدر الحكم عليه ، ويقول الأزهري أزاء ذلك ، متهما عبد الرحمن بن عوف انه كان على علم بنية فيروز ابو لؤلؤة باغتيال عمر بن الخطاب ، ليخرج لنا بنتيجة قد تكون موضوعية مفادها ان معاوية بن ابي سفيان كان الطرف الثاني في مؤامرة اغتيال الخليفة الثاني حين اتفق مع الفيروز على اغتيال الإمام علي (ع) ، مستفيدا من

علاقته الاجتماعية بالبيت السفياني . ويبدو واضحا ان الأزهري أراد من بيانه امتناع عمر لحماية نفسه بوصفه خليفة وقد يكون مستهدفا ، انه بذلك غير متحضر إذ يقول: " وكان حريا بالخليفة الثاني بعد ان حذره مفسر الأحلام بقتل أحد الأعاجم إياه أن يأخذ حذره بيد أن أفقه الحضاري غلبه فخسر باغتياله خسارة لم تعوض"[١] . ولا نريد ان نؤاخذ شيخنا على هذا التصور ، بقدر ما كنا نتمنى ان يعطي تفسيرا آخر يتعلق بأيمان عمر بقدر الله أو انه كان يدرك ان لا أحدا يضمر له ضغينة ، وهذه التفسيرات لا تعني انه غير متحضر ، بل لعل الذي يتعمق بالحذر والتشكك هو من يفتقر الى الروح الحضارية التي تؤمن ان لكل أجل كتاب.

وفي مبحث آخر أسماه الأزهري بـ" المستوى الحضاري المستوى الإدراكي " يلمح إلى أمثلة من بينها أولئك الذين يخاطبون النبي من وراء الحجرات ، ويستشهد بالآية الكريمة " ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون " ويستدرك الأزهري هذه الأشارة التي اتفق عليها البعض ، منوها ان النقاش والجدال بين الشيخين الأول والثاني في حضرة الرسول ، وهما بوصفهما قدوة لغيرهما أمام الأعراب وغيرهم ، فقد نزلت الآية بحقهما . وعليه فإذا كانا الشيخين من الذين انتقدهم الله على مستوى تحضرهم المتدني ، فكيف الطبقة العامة ، فهي بالتأكيد دون ذلك المستوى الحضاري الملزم .

ويتابع الأزهري في ملاحقة الروايات مهما كانت نسبتها من الصحة والتي تتحدث عن هفوات وأخطاء غير مقصودة من الصحابة ، أو حتى لعادات وتقاليد ساذجة ، ليأخذ منها دليلا قاطعا على تخلف العرب المسلمين وإنهم دون بقية المجتمعات تحضرا وتطلعا ، وهو أمر بديهي لا يختلف عليه اثنان ، فالحضارة تنمو بأبنائها وبعطائهم ومتى ما قل هذا العطاء ومفرداتها ، استنادا لعمر الدولة الحضارية ، فلا

---

١ الشدو /٢ ، ص٣٠٦ .

يمكن لهم أن يصنفوه على وفق القضاء والقدر بقدر ما كان أمرا محتوما . ومن ذلك ، نجد أن العرب كانوا قد فارقوا حضارتهم لقرون عدة ، وتلونت حياتهم وتعددت وسائلها وعاشوا ويلات الغزو والاحتلال المتكرر لهم . وفي كل حقبة من تلك الحقب او ما تعرف بحقب التسلط الأجنبي ، فان أول ما تعمد إليه تلك السلطات المحتلة ، هو تحييد الفكر انتهاء بوأد أي بادرة حضارية او حركة فكرية ، لأنها بالتأكيد لا تتفق وتوجه المحتل الذي يريد دائما ان تكون الشعوب المنضوية تحت احتلالها اقل منها فكرا وعطاء وهذا هو ديدن من تسلط على العرب سواء من الروم او الفرس . ومن الطبيعي ان تستمر تلك الثقافة المتدنية للعرب التي ألفوها قبل ألإسلام ، ان تستمر حتى نزع المجتمع المسلم عنه لباس التخلف بعد عهود من قيام الدعوة ألإسلامية .

وفي هذا السياق من توخي الحذر في تدوين ما من شأنه أن يقلل من قيمة الأمة الإسلامية وشعوبها ، فقد وقفت عند روايات ساقها الأزهري ، لم استطع استساغتها وقبولها لأنها تجافي العقل وغير موضوعية ، ولا اعرف الغرض من سوق تلك الروايات التي تشعر القارئ بالسخط على شخوص لهم مكانتهم واحترامهم في التاريخ ألإسلامي !! . فقد ذكر " إن(سوده) زوجة الرسول (ص) كانت في ذات ليلة قد توجهت الى الصحراء . اعتقد ان القصد الفناء الخارجي المحيط بالبيت . كعدتهم وكان ذلك يتم مساء ، وحينها تعرض لها عمر بن الخطاب . وهو بلا شك يعرف أين تقصد ولماذا . ثم يُسمعها كلمات جوارح تؤذي شعورها المرهف ، فاضطرت إلى العودة لمنزلها . ولك أن تتصور مدى الضيق والحروجة والمعاناة التي كابدتها إذ لم تقض حاجتها ، فهل هكذا تخاطب السيدات وبخاصة زوجات القائد والزعيم ؟[1]

---

١ الشدو/٣ ، ص٣١٣

وهنا يتبادر أمام ناظرينا ثمة تساؤلات : يقول اعتاد الناس ومنهم السيدات على قضاء حاجتهم ليلا فقط ؟!!. كيف ذلك وهل بإمكان شيخنا ان يمتنع عن قضاء حاجته لست ساعات وليس لنصف يوم بالتمام والكمال . أولا ، والاهم من كل ذلك قرئنا في صفحات هذا الكتاب السابقة ، إشادات بعدالة الخليفة عمر ونزاهته وأخلاقه وسمو رفعته !! . طيب ما الذي حدا بالذي بدا حتى ينزل مستوى خلق هذا الشخص . حاشاه من ذلك . لهذا المستوى الذي لا يليق سوى بإنسان ضال وجاهل !! كيف تسنى له أن يسمح لنفسه بالتطاول على زوج الرسول (ص) . وإذا سلمنا بذلك ، فأي احترام يكنه هذا الشخص لنبيه وقائده . فلله درك يا شيخنا الأزهري على ان تسوق لنا هذه الرواية ، لمجرد ان يبرهن على ما يذهب إليه ببداوة وجهل الصحابة وتدني مستوى ثقافتهم !!.

وفي مبحث أخر يقف الأزهري عند أهم الحرف التي كان يزاولها الصحابة ومنها : السقاية والحجامة ونحت الأقداح والدباغ والحدادة أو القين والحلاقة والحياكة والخياطة وغير ذلك من المهن . وقد أعاب على بعض الرموز من أمثال أبو بكر وسلمان الفارسي مزاولة الأعمال وهم في مناصب عليا ، بحجة تحصيل رزقهم ؟ أو لم يكن الإمام علي (ع) كذلك ، فلماذا هذا النقد بدلا من التأكيد على ان هذا السلوك دلالة الإيمان والنزاهة والحرص على أن لا يكون للمسؤول من حصة في بيت مال المسلمين . وعلى كل حال فالشيخ الأزهري يحاول جاهدا أن يرسم صورة أكثر واقعية للصحابة ، بل ويريد ان يظهر تلك الشخصيات بكل مظاهرها وتحركاتها وسلوكياتها وعاداتها وتقاليدها ، ولا يرغب ان يعيب شيئا بقدر ما يضع الكرة بساحة القارئ ليقرر الصح من الخطأ في سلوكية من روى له .

ويخلص في مبحث أخر الى الحديث عن الأعمال التي كان يقوم بها كبار الصحابة ومنها الخلفاء الراشدين ، ومع انه يأخذ عليهم ان ينزلوا الى الشارع والأسواق ليمارسوا الأعمال وهم بهذه الرتب مبررا ذلك بافتقارهم للمستوى الحضاري

إلا انه يستدرك الأمر ليقول ان هناك عدة أسباب أكسبتهم هذا المقام الرفيع وفي مقدمتها " أنهم غدوا شخصيات "ميتاتاريخية " اختلط فيها عنصرا العقيدة والتاريخ ، إلى جانب أنهم ممن سعد طالعهم وحسن بختهم ، أنهم رافقوا القائد العظيم محمد مفجر أعظم ثورة في التاريخ العالمي "[١] .

وفي باب الكتاب الأخير والمعنون بخاتم الأسفار : أعطى الأزهري في هذا الباب توصيفا دقيقا للمسار البياني لانطلاقة الدعوة ألإسلامية ممثلة بتحرك الرسول ما بين المتعرجات والمعوقات ، حتى تحول من طريد ملام الى ضيف معشوق همام . ويسهب في توصيفه هذا للصحابة ممن عاصر والتقى الرسول ، ويستغرق أكثر في ذلك حين يصور حالة التحول البنيوي لهؤلاء الصحابة ، وما ترتب على ذلك من متغيرات في حياتهم الخاصة ، والعلاقات مع المؤسسات الأخرى لان الأعلى تبقى ذات طموح أخاذ . ويحاول الأزهري التقريب بين فرائض أشار إليها القرآن الكريم وهي ملزمة للمسلمين في حين يراها ليس بمحلها في واقع المسلمين ، فهو يشير الى الصورة المثلى لعلاقة الصحابة ببعضهم كما وردت في القرآن الكريم ، بينما يراها " لا تتطابق مع الواقع ، فالقرآن وصفهم (رحماء بينهم) في حين أن السيف كان في أكثر من موضع الحكم والفيصل بينهم "[٢] . والذي يهمنا هنا هو طبيعة هذا الصراع والمواجهة التي يشير إليها الأزهري والتي وقعت بين الصحابة ؟ هل يقصد وقعة الجمل أو صفين أو حروب الردة أو غيرها من المواجهات الدامية . فإذا ما تصفحنا وريقات تلك الأحداث ، فما من شك أننا سنجد أنفسنا أمام مسار طبيعي من مسارات التاريخ ، فهنالك علل ومسببات تؤدي إلى هذه الحرب أو غيرها ، وبالتالي فلا بد من مواجهة تنتهي إلى قتل ودمار وهزيمة أو نصر . ومثل هذه

---

١ الشدو/٣، ص٣٣٣ .

٢ الشدو /٣، ، ص٢٣٨ .

الأحداث يزخر بها التاريخ العالمي ، وبمختلف حقبه ومراحله . ومن ذلك ، فليس من المنصف أن نأخذ على شخوص من قيادة الجيوش ألإسلامية ، أو أعيانهم ورموزهم إشكالية خليفة أو أمير ، لا سيما بعد أن بات لتلك الدولة أو الإمارة العربية ألإسلامية صداها وعنوانها المعروف . إذن ليس من المنصف أن نلقي باللائمة على شخوص لا لشئ ، سوى أنهم كانوا قادة لحرب واجبة الوقوع ، أو وقعت لتلافي خطر يداهم الدين أو الدولة . فأداء الواجب لا يتعارض قطعا وأخلاق الشخص ومبادئه .

والى ذلك ، فقد انتقد نقدا لاذعا أولئك الكتاب والمؤرخين ممن لم يعولوا وبشكل رئيسي على كتب الصحاح والمسانيد ويعتمدون على غيرها من المصادر ، منوها بغزارة معلومات تلك المسانيد والصحاح ومن مختلف نشاطات الحياة اليومية مؤكدا أن تلك المؤلفات المعنية بالحديث أو السنة ، هي التي حملت ألينا بين دفتيها اللوحات البارعة عن أحوال ذلك المجتمع[١] .

---

١ المصدر نفسه ، ص٣٤٢ .

من ملامح التجديد في فكر الشيخ خليل عبد الكريم :-

لو طالعنا بروية مؤلفات الشيخ عبد الكريم والتي تجاوزت ثلاثة عشر كتابا ، لتبين لنا ان تلك الدراسات مثلت مشروعه الفكري الذي المتضمن مشروعه التجديدي ، ومع ذلك فأن هذا المشروع قد يختلف بعض الشيء مع المشاريع التجديدية الأخرى لكونه قد اعتمد أدوات تدخل عبر تناوله التراث الإسلامي من منظور عقلاني ، متخليا عن التشبث بما كان لنا في الماضي من رقي ومعولا على قوة وغزارة التراث الإسلامي في صناعة جديدة لمستقبل الإسلام القائم على أسس حداثوية بعيدا عن النظرة المثالية . ولعلنا لا نخطئ بأن من أهم أدوات التحديث هو الاعتماد على الكتب والمراجع الحديثة من المؤلفات الإسلامية الرصينة . وكان للشيخ عبد الكريم رؤية خاصة إزاء ما عمد إليه بعض المشايخ والعلماء ممن حاولوا التأسيس لعالم التجديد في العالم الإسلامي من أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وحسن العطار ورفاعة الطهطاوي ، مؤكدا أن هؤلاء العلماء كان ديدن عملهم منصبٌ على كيفية تجميل الصورة للنص الثانوي وهو أقوال الصحابة والتابعين دون الأخذ بالاعتبار أهمية الالتفات إلى معالجة النص الأصلي (القرآن والسنة) منتقدا حالة الانغلاق التي رافقت ما بعد القرآن والوحي ، لتبقى الأفكار مغلقة . لقد تجسدت حركة الشيخ التجديدية حين راح ينادي بضرورة وجود حركة ، نقدية وتفكيكية للنصوص التأسيسية أو الأشخاص الذين أخذوا قداسة على مر القرون وأصبحت أقوالهم في مصاف النصوص التأسيسية . ومن ذلك ، أيقن أن مهمته تستدعي زحزحة هيمنة النصوص، سواء التأسيسية أو الثانوية على العقليات وسيطرة الشخصيات التي أصبحت شبه أسطورية إن لم تكن أسطورية ، متيقنا أنه سيواجه بصعوبة بالغة لربما تصل الى حد التصفية الجسدية . أما عن

مبدأ تاريخية النص ، وما أثير من إشكال حول إدعاء جماعة الإسلام السياسي بأن أصحاب التيار العقلاني يدعون لوضع القرآن في متحف التاريخ وتجريده من فعاليته ، وهو الأمر الذي يتناقض مع صلاحيته لكل زمان ومكان؟ فأن الشيخ عبد الكريم يؤكد أن المناداة بمبدأ تاريخية النص ، فأن هذه بمثابة دعوة للابتعاد كاملا عن العقيدة والعبادة ،مؤكدا أن الإنسان المسلم المتنور يستطيع ان يتعامل مع ثوابت الإسلام ومتغيراته بعقلانية تامة ، لا تثير إشكالا ولا تتسبب في ثلمات في جدار الدين الإسلامي . فالموروث الإنساني الدنيوي ، من السهل التعامل معه وتطويعه على وفق ما تستدعيه المرحلة الزمنية ، على أساس أن الإنسان أعلم بشؤون دنياه ، أما فيما عدا هذا فهو يعتبر من أمور الدنيا ."

ويعرج الشيخ عبد الكريم على قضية حساسة ومثيرة لكثير من الجدل ، وصلت إلى حد حرمان شخص من حقوقه . وهذه القضية هي قضية المواريث والمرأة هنا معنية في كثير من مفاصل هذا الموضوع . فالمرأة ترث نصف ما يرثه الرجل ، وكذا الحال بالنسبة لشهادتها ، فهي نصف شهادة الرجل وكان هذا بمثابة ثورة على الأوضاع الاجتماعية السائدة في ذلك الزمن، وهي من النقاط الإيجابية الرائعة التي تحسب للإسلام لأنه كان من المستحيل مساواة المرأة بالرجل في ذلك المجتمع ، وهي ضرورة استدعتها العامة لدولة فتية . ولكن وبعد تطور هذه الدولة واتساع أفقها لم توضع حلول جذرية وصحيحة لهذه الظاهرة ، بل أن البعض من المعنيين بالفقه الإسلامي يقول غير ذلك مبتعدا بمكانة المرأة إلى حيث تخرج من سياق أنها إنسانة مخلوقة أسوة بأخيها الرجل ، وهذا ما نلحظه عند الشيخ أبن تيمية حين أفتى بعدم جواز منح المرأة نقودا في يدها حتى لشراء ملابسها الداخلية ، وأن الرجل هو الذي يشتريها لها وأن على المرأة كذلك أن تخدم زوجها وأولادها وكذلك عبيد زوجها وطبعا هذه نظرة ذكورية وتحويل للمرأة إلى أقل من أَمَة (عبدة) . ولكن أذا ما قورن دور المرأة حاليا ومشاركتها معترك الحياة على حد سواء مع الرجل ، فأن هذا

المتغير يراه الشيخ عبد الكريم ضرورة للأخذ بالحسبان مساواة الرجل بالمرأة ومنها على الأقل زحزحة هذه القواعد الميراثية لأنه إذا كانت المرأة في ذلك الوقت لا تشارك في عملية الإنتاج ، فهي اليوم مشاركة أساسية في تدبير وإدارة الحياة برمتها استنادا لما وصلت إليه الكثير من النساء من الحظوة العلمية والأدبية حاليا .

ويرى أن من المفيد أجراء تغيير على هذه الآلية من خلال الإقرار أن الظروف التاريخية تحتم زحزحة هذه القواعد الميراثية لأنه إذا كانت المرأة في ذلك الوقت لا تشارك في عملية الإنتاج بأي صورة من الصور ولا حتى في الغزوات التي كانت تشكل عنصرا مهما في الدخل، فإن المرأة الآن تعد عنصرا هاما جدا في الإنتاج والخدمات وفي كل المجالات ، فمن الظلم إذن مقارنة المرأة في القرن الحادي والعشرين بالمرأة في القرن السابع، وحيث أن النصوص المذكورة قد ظهرت في أقل المناطق حضارة في ذلك الزمن (الحجاز) ، فمن الظلم مقارنة المرأة البدوية الأمية الجاهلة التي لا تفرِّق كما يقول المثل في صعيد مصر بين "كوز الذرة والألف"، بأستاذة جامعية أو مهندسة أو طبيبة؛ المرأة في ذلك الزمان العجيب لم تكن معارفها تتعدى ما كان يحدث في مضارب قبيلتها، أما المرأة اليوم فإنها ـ حتى لو كانت أميّة ـ تشاهد التلفزيون وتستمع للراديو . ويبرر الشيخ رؤيته تلك نتيجة المتغيرات الحاصلة على شخصية المرأة . ويؤكد أن القرآن عندما أعطى المرأة في القرن السابع حق نصف الشهادة فإنه أعطاها أكثر مما تستحق وأنصفها بصورة غير متوقعة استنادا لما كانت عليه من محدودية حركتها وعطائها في المجتمع وقتذاك ، قياسا وما جرى عليها من تغيير في بنيويتها إبان القرون المتأخرة ، حتى بات من حقها أن تساوي شهادتها شهادة الرجل، وفي نهاية المطاف فهو يؤمن أن الميراث والشهادة ليست من أركان الإسلام وإلا كان قد نص عليها .

عن منهجيته في كتابة التاريخ :

للشيخ الأزهري كتب ودراسات جمة ، وسوف لن يختلف أحد معي حين قراءة تلك الكتب أن لا يحار بما سيقرره إزاء مستوى أسلوبه وعطائه ، وأحيانا لتعقيده بعض المشاهد التاريخية ، والنزول بها أيما نزول ، حين يجده ضمن سياقات تنفيذ الواجب . ووجدناه لا يميل كثيرا لجهة دون أخرى مع أنني فوجئت مبدئيا من خلال قراءة أحد كتبه ، حين اعتمد في بعض الأحايين أسلوب التدوين الشفاهي في سوق مادته التاريخية ، لا بل الانكى من ذلك أنه يسوق لنا في بعض مؤلفاته تلك بعض الروايات التي تتنافى والعقل ، من دون مناقشتها أو حتى تصويبها ليبقي عليها وكأنها دلالة على عجز في التحليل والاستنتاج ، والسبب في ذلك هو تواتر الكثير من تلك الروايات وسوقها تباعا مما يصّعب مهمة المؤرخ ، أو على الأقل مقدرته على التحليل والاستنتاج . ولربما يصح القول معنا بأننا تلمسنا ومن خلال اطلاعنا على مؤلفاته ، أنها تسمو على مستويات العديد من المؤرخين والمعنيين بكتابة التاريخ ، بما يفسر لنا عدم رواج تلك المؤلفات سوى عند المختصين بها .

أما عن آلية عمله ، فقد كانت الجذاذات وسيلته لجمع مادة كتابه ، إذ جمع الآلاف منها . ولم تكن مادته مستلة حصرا من كتب السير والتواريخ ، بل انه عمد الى سائر كتب العلوم ألإسلامية ، من حيث أنها تحوي ذخائر وكنوز الأحداث والنوادر ، أغفلتها كتب التاريخ والسير . والى جانب ذلك ، فقد كان لكتب تفسير القرآن وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ ، تحوي بين دفتيها المباحث الخاصة بالقرآن . وكذا الحال لكتب الصحاح الستة وما دونها من رتبة وكتب الفقه وأصول الفقه وكتب الخراج والطبقات والأنساب وكتب البلدان . وعن طبيعة تصديه لمادة

كتابه يقول الأزهري : تناول مجتمع الصحابة بدراسة موضوعية رصينة ، أمر لا غبار عليه بل مرغوب ومحمود . وهذا يعني انه اعتمد مصادر ومراجع اختلفت مناشئها ومآلاتها ، ويبقى على الباحث ذو النظرة الثاقبة أن ينتقي من المواد التاريخية أحسنها وأكثرها قبولا وتوافقا مع العقل السليم . ومن محاسن ما اعتمده الأزهري من منهج كتابه ، انه لكثر ما تحاشى إصدار أحكام ، بل انه أورد وقائع استقاها من المصادر العوالي والتي في نظر الكثير من المؤمنين أن ما ورد في تلك الكتب لا تعدو أن تكون كتابة أخذت بنظر الاعتبار العواطف والطبقية والشرائحية ، إلا أن شيخنا كان راصدا دقيقا لتلك الهفوات ، ليقوم قدر ما تمكن من التحليل والوقوف عند دوافع وموجبات وارتباطات تلك الحركة ، فكان من مخرجات هذا السعي والنشاط ، هو الوقوف نوعا ما عند دوافع وموجبات وارتباطات حركة التغيير وما واكبها من ظروف اقتصادية وحابثها من ملابسات سياسية او طبقية . ومن الواضح أن الأزهري حين لجأ إلى اعتماد العرض والتحليل ، والابتعاد عن العواطف والوجدانيات ، فهو يقينا يترك للقارئ أن يحكم بنفسه . وينأى الأزهري بنفسه من التعويل على المصادر من أمثال الأغاني وألف ليلية وليلة ، وهو بهذا التشكك برصانة المصادر حتى يتبين له أنها موثقة ومستخرجة من مصادر رفيعة الدرجة ليقطع الشك والطريق أمام كل معارضة أو سخرية أو هزل أو همز أو لمز وذلك لان هذه المصادر ، هي بذاتها بمثابة وثيقة تنأى بنفسها عن التحريف . ومن بين تلك المصادر التي اعتمدها الأزهري هي : كتب التفسير وعلوم القرآن وكتب أصحاب السير وكتب الصحابة والطبقات والمؤرخون والنسابة . إلى جانب كتب أصحاب الخراج والأموال وكتب الحديث وكتب الفقه وكتب البلدان الجغرافية . وكان من محاسن منهجه انه لكثر ما انتقد المصادر التي تفاوتت في ترجماتها للشخوص ممن كان له دور واضح في الأحداث التاريخية ، فالبعض يتطرق إلى الجوانب الايجابية تاركا الأفعال الشنيعة التي ارتكبها صاحب تلك الترجمة بحجة

مخرجات عمله ، كما هو الحال في ترجمة بسر بن أرطأة الذي وصفه ابن عبد البر بأنه رجل سوء في وصفه وقد تحدث عنه بعشرة صفحات في حين اكتفى ابن الأثير بصفحة واحدة[١] .

ومن خلال قراءة هذا الكتاب ، يمكن الوقوف على جانب من منهجيته في الكتابة حين يميل إلى اعتماد الأحاديث النبوية الشريفة لجعلها مصدر رئيسي من مصادر توثيقه للرواية التاريخية ، مؤكدا على أن الأحاديث النبوية الشريفة تعد أكثر دقة وتوثيقا من الرواية المتواترة عبر الأجيال . فهو يّذكر أن التاريخ لدى المسلمين جذره هو "الحديث" ومن ثم بدأت السيرة التي كانت بداية تدوينها بالأحاديث النبوية الشريفة ثم أحاديث الصحابة وآل بيته ومن ثم تطورت إلى ما سمي بتدوين التاريخ. وفضلا عن ذلك ، فهو يحاول أن يرسل رسالة مفادها انه لا يقّوم الأحاديث بالميزان الذي كان يمسكه علماء الجرح والتعديل أن لنا مقياسا مغايرا فنحن نتقبلها على علاتها ، بوصفها أقرب الكتابات إلى ذلك المجتمع بل وأشدها لصوقا به . ويشير إلى الروايات التاريخية الواردة قبل عشرين عاما ، ليؤكد أنها انعكاس لماهية حياتهم وقتذاك وأكثر التصاقا بالواقع المعاش وقتذاك . وبسبب هذه الفائدة التي يتوخاها في اقتناص المعلومة التاريخية من مصادرها الأصلية ، وجدناه ينأى بنفسه بعيدا عن التمذهب او التمترس خلف قيادات أو رموز . ويبدي عدم اهتمامه بما يتنافس عليه الفرق في انتحال الأحاديث التي تتنافس عليها لأغراضها الدعائية او السياسية . ويشير للمثال لا للحصر إلى أحاديث عني بها الشيعة وهي تتحدث عن مناقب أبي الحسنين ، مؤكدا أن لها ثوابتها وعللها وهي انعكاس لتقدير الرسول (ص) للإمام علي بن أبي طالب (ع)[٢] . وأبدى اهتمامه ليس بكتب التاريخ فحسب

---

١ الشدو /٣ ، ص٣٦٠ .

٢ الشدو /٣، ص٣٤٥

، بل انه راح يعتمد غيرها الكثير بوصف التحدد عندها حصرا ، يعد من المساوئ المنهجية[١].

. ويعرج الأزهري على بيان المغزى من تأليفه الأجزاء الثلاثة من مؤلفه (الشدو) مؤكدا ان غرضه كان لرصد وتحليل العوامل التي أدت لتحقيقه لدرجة ان العنوان المبدئي للكتاب كان بمثابة إرهاصات قيام دولة قريش) والوقوف عند سير وسلوكيات الصحابة من خلال المقاربة بين ما أراده القرآن من ذكر سلوكياتهم على فرض أنهم الأقرب إلى رسول الله وبين ما شهده الواقع من سلوكيات هؤلاء الصحابة . وعن ذلك يقول : " إن ما نص عليه القرآن هو المثل الأعلى الذي كان عليه الصحابة أن يصلوا إليه فان فعلوه أو فعله بعضهم فيها ونعمت وان لم ... فهو ذروة سامقة لمن يأتي من المسلمين بعدهم عليهم ان يجهدوا جهدهم في الاقتراب منها بل الوصول إليها "[٢] . وهذا هو خلاصة تفسير الشيخ عن الصحاب مما ورد من آيات القرآن الكريم . ومن لطف وبساطة شيخنا ، وهذا ما لمسناه أكثر في أخريات هذا الجزء من كتابه واضحا جليا حين يؤكد انه لا يبتغي من التعليق على ما ورد في الأحاديث ألتي وردت في المساند والإصحاحات أن يضعف من قيمتها أو يشكك بمصداقيتها ، بل يقول : نصحح ما صححوه ونضعه فوق الرؤوس ولا يتجرأ على التشكيك في صحة حديث أشار اليه الصحابة ، لأنه يؤكد انه ليس أهلا لذلك ورحم الله امرءا عرف قدر نفسه وأدرك قامته ولزم غرزه . ويخلص إلى القول ان ما يهمه في كتابه هذا هو بيان ما نقلوه من أحاديث يعمد الى تمحيصها ويتمعن في تفرسها ، مؤكدا ان تلك الأحاديث والروايات هي التي صورت أحوال

---

١ الشدو ٣، ص٣٤٤

٢ المصدر نفسه ، ص٣٣٩

الصحاب وبيان شؤونهم ، مع إخضاع تلك الروايات تحت المجهر بحيث لا يغادر صغيرة او كبيرة إلا وأخرج صورتها الحقيقية[١] .

. وفي سياق الحديث عن منهجيته في التصدي لموضوعة الصحابة أبان عهد الرسول ، يؤكد انه اعتمد في إتمام الأجزاء الثلاثة من كتابه على الأحاديث الصحيحة والمتفق عليها والحسنة اعتمادا كليا ، كما انه من بين المصادر التي اعتمدها اعتمادا كليا ، كتب التفسير وعلوم القرآن ، أصحاب السير وكتب الصحابة والمؤرخون والنسابة وكتب الخراج والأموال وكتب الحديث فضلا عن العشرات من المصادر الموثوقة التي تتعلق بسير الصحابة وفعالياتهم ومنجزاتهم الى جانب كبواتهم وسلبياتهم وايجابياتهم . والى جانب ذلك ، فقد توقف عند تراجم وسير بعض المؤرخين ممن يرى لهم أدوار لا تنسى في تراجم الصحابة وسيرهم من أمثال أبن عبد البر ، بسبب ما يراه من طفرة في التدوين عند هذا الشخص حين راح يدون على خلاف الكثير ممن يركزون على الجانب المضيء من الشخصية ، هاملا أو غافلا الجوانب السلبية في حياة المترجم لهم .

وواضح أن الأزهري كان مؤمنا حق الإيمان بقوة العامل الاجتماعي بمفرداته المتعددة في التأثير في حركة التاريخ . لان طبيعة الحياة الاجتماعية للفرد تنعكس في تصرفاته وسلوكياته . وهذا ما خلق عوائق جمة أمام مؤرخنا في الوقوف حقا على بنيوية وطبيعة الدين ألإسلامي وآلية التبشير به وما حصل من متغيرات في حياة المجتمع ألإسلامي وبالذات القرشي منه[٢] . وفي تصورنا ان ما كانت عليه كتابات البعض ولربما الأكثرية من المؤرخين عن الصحابة حين طغت القداسة على كتاباتهم عن الصحابة ، فقد كان ذلك سببا في بروز من اعتمد مبدأ الشك

---

١ الشدو/٣: ص٣٤٢

٢ المصدر نفسه ، ص٣٦٣

مبدأ لليقين عندما أعادوا سير هؤلاء الصحابة وكشفوا عما تجاوز عنه الكثير من المؤرخين لأسباب المَحَنا إليها ، وكان الشيخ الأزهري واحد من هؤلاء المؤرخين . وفي هذه المناسبة يوجه شيخنا نقده اللاذع لأولئك الذين طغت على كتاباتهم التمجيد والإطراء والتهليل للصحابة ، وكأنهم يتعاملون مع شخوص غير آدميين أو هم فوق البشر بحيث لا سقطة ولا عثرة تعترض حياتهم ، ومن ذلك فان فرص الخطأ والزلل غير وارد في سير هؤلاء الصحابة مهما كانت منزلة هذا الصحابي أو ذاك . وهذا على ما يبدو واضحا ، السبب الرئيس في إطلاقه صفة الصحابي على كل من عاصر الرسول حتى لو انتكست أخلاقياته . ومع ذلك فان الشيخ الأزهري يستدرك هذا الأمر ويشير الى بعض المؤرخين والمفكرين ممن حادوا عن منهج من سبقهم في التوريخ للصحابة ، وراحوا يبحثون في سير هؤلاء بصرف النظر عن ما رافقتهم القداسة الموضوعة ، وتعاملوا معهم بوصفهم من البشر العاديين ، ومن المؤكد ان الشيخ الأزهري ، يعد واحدا من هؤلاء المتنورين . وأشار إلى عدد من أولئك المفكرين ممن وصفهم الأزهري بالمعاندين ومن فاعلي التخالف من اجل ان تعرف المعنيين بهذا التغيير من أمثال الأستاذ "عباس محمود العقاد "[١] وقد أسهب الأزهري في بيان المسار التاريخي للقائد خالد بن الوليد ، منوها بما ذهب إليه العقاد من تبرئة ابن الوليد من هذه المجزرة مستعينا بما ورد في كتاب "الأغاني" من تمويه وتسفيف للمسار الحقيقي أبان عصر الأنوار في أوروبا بعد ان

---

١ (١٨٨٩– ١٩٦٤) أديب، ومفكر، وصحفي، وشاعر، مصري، وعضو سابق في مجلس النواب المصري، وعضو في مجمع اللغة العربية، لم يتوقف إنتاجه الأدبي بالرغم من الظروف القاسية التي مر بها؛ حيث كان يكتب المقالات ويرسلها إلى مجلة فصول، كما كان يترجم لها بعض الموضوعات، ويعد العقاد أحد أهم كتاب القرن العشرين في مصر، وقد ساهم بشكل كبير في الحياة الأدبية والسياسية، وأضاف للمكتبة العربية أكثر من مائة كتاب في مختلف المجالات.

انعكس هذا التغيير النوعي على المسلمين أنفسهم ، وراحوا يشعرون بضرورة المحافظة على وحدة وفكرة موضوعة الكتاب – أي كتاب_ بشرط الابتعاد عن المنغصات وبيان الغث من السمين ، ولا سيما من الصحابة الأخيار .

ثبت المصـادر

ـ أولا : آي القرآن الكريم

ـ البقرة: ٢٥١/ ٢٦٤

ـ النساء / ١٢٨ ، ٧٥ .

ـالأحزاب /٣٣

ـ الأنفال /٦٠

يونس/٣٨ـ

الفيل /١– وسائل

ثانيا : الكتب المطبوعة :ـ

الازهري : الشيخ خليل عبد الكريم :

ـ قريش من القبيلة الى الدولة المركزية : ط٢ ، بيروت ، ط٢ ، دار الانتشار ، ١٩٩٧ ،

ـ شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة ، السفر الأول ، محمد والصحابة ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٩٨ .

ـ إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، بيروت لبنان ـ دار الانتشار العربي ٢٠٠٦ .

ـ لتطبيق الشريعة لا للحكم ، د ط ، دت .

ـ الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية ، سينا للنشر / القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٧.

ـ توماس كارلايل " الابطال وعبادة البطولة ، ترجمة محمد السباعي ، بيروت ، ٢٠١٧ .

ـ الحر العاملي :وسائل الشيعة، كتاب القضاء، باب ٦، ح ٥١ و٥٢ ، مؤسسة آل البيت ، ط٣ ، قم ١٤١٤هـ .

ـ الذهبي"التلخيص": صحيح. ابن هشام: السيرة النبوية ٢.

ـ سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصري في عهد المماليك ، دت .

ـ الشرباصي ، أحمـــد : المعجم الاقتصادي الإسلامي ، دار الجيل للنشر ، ١٩٨١

ـ الأصفهاني ، مقاتل الطالبيين ، النجف الاشرف ، العراق ، المكتبةُ الحيدرية، ١٣٨٥ هـ

ـ علي الشهرستاني : جمع القرآن ... نقد الوثائق وعرض الحقائق ، ج١، المركز الاسلامي للدراسات الإستراتيجية ، العتبة العباسية .

ـ الغريري : أحمد ناجي ، والركابي : عكاب يوسف ، من الإيمان الى الإلحاد ... رحلة لم تنته .. دراسة تحليلية ونقدية لكتاب الشخصية المحمدية ، حل اللغز المقدس ، دمشق ، مكتبة عدنان ، ٢٠١١ .

ـ محمد حميد اللّه : الوثائق السياسيّة ومكاتيب الرسول ، جامعة باريس ، دت "

ألفرد. ج. بتلر: فتح العرب لمصر ، ترجمة محمد حديد ابو فريد باك ، دار النشر : مكتبة مدبولي ، ١٩٩٦ ، ص٨٩ .

: ـ اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، المجلد الثاني ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، د ت

النت :ـ

https://ar.wikipedia.org/wiki:

https://libris.kb.se/katalogisering/nl٠٢xzm٦٤٠٢٧vh٢

http://data.bnf.fr/ark:/١٢١٤٨/cb١٣٠٠٩٦٢٣٢

الكتب المطبوعة للمؤلف:-

١- عباس العزاوي :حياته ، آثاره ، منهجه في كتابة التاريخ
٢ - مجيد خدوري :حياته ، آثاره ، منهجه في كتابة التاريخ
٣- قضاء المناذرة التسمية والتكوين الحديث
٤- حكمت سليمان : دراسة في سيرته السياسية
٥- وزارة حكمت سليمان الانقلابية سنة ١٩٣٦ في الوثائق البريطانية
٦- السيد محمد باقر الحكيم : دراسة في سيرته
٧- الشيخ أحمد الوائلي ومنهجه في الكتابة
٨- منهج بحث وفلسفة التاريخ
٩- دراسات في الفكر الإسلامي المعاصر ،السيد محمد باقر الصدر نموذجا
١٠- التوجهات السياسية عند عشائر الفرات الأوسط ، الشيخ عبد الواحد الحاج سكر نموذجا
١١- عماد عبد السلام رؤوف : أربعون سنة في دراسة التاريخ وكتابته
١٢- الدكتور محسن محمد حسين : دراسة في سيرته
١٣- معروف عبد الغني الرصافي وآراؤه السياسية
١٤- من الإيمان إلى الإلحاد . رحلة لم تنتهي . دراسة نقدية وتحليلية في كتاب الشخصية المحمدية .
١٥ - كمال مظهر احمد : خمسون سنة في دراسة التاريخ وكتابته .
١٦- في تاريخ ونسب عشيرة المعامرة **(تحقيق)**
١٧- منهج بحث وفلسفة التاريخ (**طبعة ثانية)**
١٨ - تاريخ من لم ينصفه التاريخ الشيخ علي كاشف الغطاء صاحب الحصون وجهوده العلمية .
١٩- صفحات من تاريخ العهد الملكي في العراق (١٩٣٢ - ١٩٥٨) .
٢٠- الشيخ الدكتور محمد حسين الصغير وجدلية كتابة التاريخ .
٢١- **الإمام جعفر الصادق (ع) ونظرية البطل في التاريخ ... الاستحقاق والتغييب .**
٢٢- مجلة الأكاديمية الكردستانية وأثرها العلمي **حتى عام** ٢٠١٩ .

انتهى بعونه جلّ وعلا